تنوير المؤمنات

الجزء الثاني



عبد السلام ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد السلام ياسين

تنوير المؤمنات

الجزء الثاني

دار لبنان للطباعة والنشر

الطبعة الرابعة : 1439/ 2018

ISBN: 9772780062

رقم الحساب للتحويل المصرفي

Name: DAR LOUBNAN LIL TIBAA WAL NASHR

ACC: 1578046

BLOM BANK SAL- MAIN BRANCH

RACHID KARAMEH STREET

BEIRUT LEBANON

IBAN: LB61 0014 0000 4002 3041 5780 4614

(CURRENT USD)

SWIFT CODE: BLOMLBBX

بشامون - الطريق العام ـ مجمع بشامون الصناعي

هاتف و فاكس : 5813203 - 00961

البريد الإلكتروني: dar@darlubnan.com

الموقع الإلكتروني: www.darlubnan.com

الفصل السادس

المؤمنات وطلب الكمال القلبي والعلمي

- حب الله ورسوله
- محبة الآل والصحبِ
- صحبةُ من صحبَ ومحبة من أحب
- مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وقربهم من الله
- الفقه المغَيب
- الصبر مع الجماعة
- إكرام المسلمين وصحبة الشعب
- الكمال الخُلُقي
- الإحسان إلى الخلق
- الكمال العلمي

حب الله ورسوله

استكملت الإيمان من أعطت لله، ومنعت لله، وأحبت لله، وأبغضت لله. كما جاء في حديث الترمذي عن معاذ بن أنس الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعند الإمام أحمد من حديث البراء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله». وهما حديثان قويان. «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان». حديث أبي داود عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

استكملت الإيمان من أصبحت أعمالها مطهرة من النفاق، مخلَصة لوجه الله تعالى. بواعثها القلبية لا تُكذِّب أفعال جوارحها. تعرض كل أفعالها على الشريعة لتتأكد من أن ما تأتي وما تذر، ما تعطي وما تمنع، ما تحب وما تبغض، لا يُملي الهَوَى والشيطان أوامره، ولا توسوس به النفس المُراوغة الممانعة لمقتضى الشرع.

إنها أعمال قلبية تزكي الأعمال الجوارحية، إنه إخلاص الوجهة لله تعالى، إنه إمساك واستمساك بالعروة الوثقى بدل التشبث بحبال الدين الرث البالي.

إخلاص الوِجهة لله تعالى نية وعملا هو لب الإيمان وقلبه، فإن تحرّت أمة الله الصواب الشرعي في عملها فهي على طريق الصلاح. رائدها ومَرْمَى طرْف إرادتها أن تكون مرآتها التي تجلو لها أحوال إيمانها قولُه تعالى يأمر نبيهُ ويأمرنا: ﴿قل إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.(1)

استكملت الإيمان من ذاقت طعم الإيمان يومَ أصبح الله ورسوله أحبّ إليها مما سواهما، ويوم أحبت المؤمنات لا تحبهن إلا لله، ويوم كرهت ماضيَ غفلتها

(1) سورة الأنعام، 164-165.

أو تيهتها كما تكره أن تقذف في النار. قلبُها مُفْعم بالشكر لله الحنان المنان الذي أنقذها من خِضم الفتنة وأتاح لها سفينة النجاة.

لا يتساكَن الإيمان المكتمل، الإيمان الذي له طَعم وحلاوة ومذاق، في قلب المؤمن مع الحسابات الصغيرة والضغائن الحقيرة والإحساسات المريرة من حقد، وحسد، وأنانية، وحب رئاسة، وحرص على الدنيا وهوىً في متاعها الفاني كما يتمتع اللاهون العابثون بأعمارهم. إنما يتساكن الإيمان المكتمل مع حب الخير للمسلمين، وللناس أجمعين، ولخلق الله عامة: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». حديث نبوي متفق عليه من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه.

لا يصلُح الإيمان ويكتمل إلا بصلاح القلب، وإخلاص أعمال القلب، وصواب الطاعات بموافقتها للشرع. فإن اطّلعت المؤمنة على دخائل نفسها فوجدت الكَدَر والظلمة بدل الصفاء والنور، فلتراجع حسابها مع ربها عز وجل، ابتداء من التروك التي تعهدت بها في عقد «بيعة النساء»، ثم تصحح فصول الحلال والحرام لتكتشف من أين دخل عليها الكدر، ومن أية كُوّةٍ نفسية تسرب الظلام. الحرام كدر وظلام تغشى القلب آثاره فتعتِّمهُ وتُسَوّده وتمْرِضه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشَبَّهاتٌ لا يعلمها كثير من الناس. فمن اتقى المشبهات فقد استبْرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشُّبُهات وقع في الحرام كَراعٍ يرعى حول الحِمى يوشك أن يقع فيه. ألا وإن لكل ملكٍ حِمى، ألا إن حِمَى الله في أرضه محارمُه. ألا وإن في الجسد مُضْغَة إذا صلَحت صلَح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله. ألا وهي القلب». رواه البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

تراجع حسابها ومراقِي سلم دينها هذه الطامحة للكمال إن وجدت في نفسها ما يضُرّ ولا يسُرّ.

مراقي الدين تعلمها الصحابة رضي الله عنهم في مشهد ملائكي فريد لكي يكون وقع التعليم مؤثرا عميقا دائما. تعلموا أن الدين سلم مرقاته الأولى إسلام، والثانية إيمان، والثالثة إحسان.

افتتح الإمام مسلم صحيحه بحديث جبريل، هذا الحديث الذي لا تمل المؤمنات من حفظه وتحفيظه وفقهه وتفقيهه وعلمه وتعليمه حتى لا يستقر عند المسلمات والمسلمين أن الدين مرتبة واحدة، الناعسة على عتبتها كالصاعدة في سلمها يحدوها حب الله والشوق إلى الله والإخلاص لله. لا تستوي تلك وهذه.

روى عبد الله بن عمر عن أبيه رضي الله عنهما قال: «بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثَر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند رُكبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخِذَيه (أي أن الداخل وضع كفيه على فخذيْ نفسه) وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتُقيمَ الصلاة، وتؤتيَ الزكاة، وتصومَ رمضان، وتَحُج البيت إن استطعت إليه سبيلا**». قال: صدقت! قال (عمر): فعجبْنا له يسأله ويُصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخِرِ، وتؤمنَ بالقدَر خيرِه وشرِّه**». قال: صدقت!

قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». الحديث. وروى مثلَه البخاري من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم سأل الرجل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة وأشراطها، فذكر له في رواية عند مسلم عن أبي هريرة أن من شروطها أنْ يُرَى «**الحفاة العُراة الصم البكم ملوكَ الأرض**». وأن يُرى «**رِعاءُ البَهم يتطاولون في البنيان**».

انطلق «الرجل» بعد أن سمع أجوبة النبي صلى الله عليه وسلم. قال عمر: فلبثتُ مَلِيّا، ثم قال لي (النبي صلى الله عليه وسلم): «**يا عمر! أتدري من السائل؟**». قلت: الله ورسوله أعلم! قال: «**فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم**».

هذا الدين ما هو بسيطٌ مستوٍ وصعيدٌ متساو. بل هو مراقٍ يُصعد عليها، وعقبات تقتحم، ودرجات في الآخرة ينالها الناس على مقادير خلوص الأعمال وصفاء القلوب.

ها هي أشرفَت على مطالع الإحسان من أتقنت أركان إسلامها الخمس وأرست أساسها على متين العلم، ثم عَمَرَت ظاهر البنيان الإسلامي بالأعمال والأخلاق والقربات الإيمانية، وصفت القلب من الشوائب حتى صلَحت المضغة لإيواء أنوار الإحسان. يدخل حب الله وحب رسوله فينير الجنبَات.

ترتدُّ إحداهن خائبة العزم كليلة الإرادة خامدة الهمة، وتنكُص على عقبها، وتتساقط بما أخلّتْ من شرائط الإسلام والإيمان، وبما نفضت يدها من جماعة المؤمنات حين جرحت كبرياءَ أنانيتها كلمةٌ ناصحة، وحين ضعُفت عن تحمُّل أعباء العمل الجماعي، وحين عَيِيَ صبرها عن الإغضاء والتسامح والبِر وحسن الخلق.

تلك المرتدة المتساقطة يخاطب أمثالها ومثيلاتها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.[1]

الإحسان من شرائطه ذبح الكبرياء الزائفة والأنانية المتعالية لتكوني ذليلة على المؤمنات عزيزة على الكافرات. ذليلة بمعنى الملايَنة والمحبة التي تغطي على الهفوات، لا الذل بمعنى سقوط الهمة والارتماء على عتبة القوة والمال والشهوة.

(1) سورة المائدة، 56.

لا يمكث حب الله في قلب مؤمنة إن بقي في قلبها حب يساويه أو يفوقه. للحب الفطري مكانُه يعترف به الشرع، وللحب في الله مكانه يحث عليه الشرع. لكن كل ذلك باطل في باطل إن زاحم حب الله وحب رسوله أو نافسهما. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.(2)

للمشركين أنداد يحبونهم كحب الله. ولبنات الدنيا زينة الدنيا يحبِبْنها لاَ يُحببن الله. لكن الذين آمنوا واللاتي آمنَّ أشدّ حبّاً لله. بل يتمكن حب الله وحب رسوله في قلوبهن حتى يطرُد كل حب غيرَه لا يرخص فيه الشرع. وما رخص فيه الشرع من حب الأمهات والآباء والإخوان والأزواج ترى فيه المؤمنات نعما من الله يجب شكره عليها وحبه من أجلها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أحِبوا الله لما يغذوكم من نعمه. وأحبوني لحب الله. وأحبوا أهل بيتي لحبي**». رواه الترمذي والحاكم وصححه عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

يلتقي حبها لله بحب رسول الله لله، وبحب الله لرسوله، وبجامعة حب آل البيت المطهرين، على جادة الإحسان. وإن كان أحد أشد حبا لله فهو رسول الله الذي يقول في دعائه: «**اللهم ارزقني حبك، وحب مَن ينفعني حبه عندك. اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوَّة لي فيما تحب. وما زوَيْتَ عني مما أحِب فاجعله فراغا لي فيما تحب**». رواه الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن يزيد الخطمي الأنصاري رضي الله عنه.

في ثنايا قول المعلم صلى الله عليه وسلم: «**أحبوا الله لما يغذوكم به**» الخ الحديث، وفي ثنايا دعائه أن يجعل الله له ما رزقه قوة فيما يحب الله، تعليم رقيق يأخذ بيد النفس البشرية الضعيفة ليتدرج بها من تقدير الأرزاق إلى تعظيم الرزاق، ومن الارتياح للنعم إلى حب المنعم، ومن صرف قوة العطاء في خدمة الأهداف الدنيوية إلى توظيفها في اقتحام العقبة إلى مَحاب الله وإلى حب الله.

---

(2) سورة التوبة، 24.

نِعَم وأرزاق مجسدة فيما يغذونا به الرزاق المنعم سبحانه من غذاء الأجسام وكسوتها ونفقتها ورخائها. هذه الماديات، التي هي من ضروريات الحياة وكمالياتها، تصبح وسيلة ومرقاة للعروج من عالم الماديات الصماء العمياء إلى عالم الكمال الإيماني الإحساني.

كيف تكون إذاً قيمة النعْمة العظمى والوسيلة الأرقى إذا تعلقنا بأذيال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحببناه! حبه أصل من أصول الإيمان. حبه دين. حبه وسيلة لحب الله.

جاءه رجل فسأله عن الساعة متى هي؟ قال صلى الله عليه وسلم: «**ما أعددتَ لها**؟ قال: لا شيء غير أنني أحب الله ورسوله. فقال: **أنت مع من أحببت**». متفق عليه من طريق أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال أنس: فما فَرِحْنا بشيء فَرَحَنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: **أنت مع من أحببت**. فأنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل أعمالهم.

قرأنا في حديث تسلسلَ المحبة وتواصلها بين الله ورسوله وأهل بيت رسوله، وقرأنا في حديث أنس فرح الصحابة رضي الله عنهم لَمَّا بُشروا بفاعلية المحبة بين الله ورسوله والمؤمنين. هذا التواصل والتحاب بين العباد هو العروة الوثيقة التي نخصص لها الفقرة التالية بإذن الله. ولَهِيَ المفصِل والمَوْصل بين درجات الدين. والحمد لله رب العالمين.

محبة الآل والصَّحْبِ

قال الإمام القرافي رحمه الله معبرا عن فقه حب رسول الله صلى الله عليه وسلم: «معرفة أحواله صلى الله عليه وسلم واجبٌ من قبيل الاعتقاد، لا مجرد العمل».

معرفة أحواله وشمائله صلى الله عليه وسلم واجبة لنحبه على علم، كما أن معرفة أقواله وسنته واجبة لنتخلق ونعمل. حبه عقيدة، والعمل على سنته بِنِيَّةِ الاتباع برهانُ سلامة العقيدة. كلما ازددنا -نحن الآخِرين- معرفة بأحواله وشمائله ازددنا محبة فيه كما تدرج الصحابة رضي الله عنهم في ذلك.

كان معهم رضي الله عنهم من الانجذاب للإيمان ومن محبة الله ورسوله قوة انتزعتهم من الأهل والعشيرة فهاجروا في سبيل الله ورسوله. ثم قويت محبة الله ورسوله في قلوبهم فواجهوا في ميدان القتال الأب والأخ والأعمام والأقارب. يروي الإمام البيهقي أن والد أبي عبيدة كان في صف المشركين يوم بدر، فأخذ ينعَتُ لابنه وهو في صف المؤمنين آلهة قومه. وأخذ أبو عبيدة يحيد عنه. فلما أكثر الوالد المشرك قصده الابن المؤمن فقتله. ونزل قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.(1)

تميز حزب الله عن حزب الشيطان: حزب الله رابطته حب الله ورسوله والوَلاية الجامعة بين المؤمنين، وحزب الشيطان جامِعتهم ورابطتهم العصبية القومية والوَلاء الجامع للأصنام ينعتونها ويزينونها للأبناء المؤمنين حتى في

(1) سورة المجادلة، 22.

ساحة القتال. ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.[1]

أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح كان من أحب الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة. رأيناه يقتل الجرَّاح لما لم يَجِدْ مَحِيداً عنه. أثبت بذلك في أي جهة كانت محبته وولاؤه. غلب حب الله وحب رسوله المكتسَب حب الفطرة والإلْفِ. الحب الفطري حق إن انسجم مع مقتضيات الإيمان، فإن قاومها وعارضها أصبح باطلا يدحضُه الحق.

حب النفس والحفاظ على الحياة فطرة، فإذا غلب حب الله ورسوله في القلب الفطرة الأنانية رأيت في غزوة أُحُد أم عمارةَ رضي الله عنها تضرب بسيفها الجبابرة وتعرض نحرها للطعن دفاعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مرتبة عالية في الإيمان والإحسان هي هذه الفدائية. لا ندري في أية سنة، وفي أية مرحلة، امتحن رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب حين أخذ بيده فقال عمر: والله يا رسول الله لأنْتَ أحبُّ إلي من كل شيء إلا نفسي! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من نفسه**». فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الآنَ يا عمر!**». رواه الإمام أحمد. وعند البخاري قوله صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو هريرة: «**فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والدِه وولده**». وعنده أيضا من حديث أَنَسٍ قوله صلى الله عليه وسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده ووَلَده والناس أجمعين**».

هذه كانت محبة الصحابة رضي الله عنهم تُمتحن في ساحات القتال. لم تكن محبة عُذْرِيّةً لَفظية حالمة. فَلْتنظر فلانة من المؤمنات أين هي من أمثال أم عِمارة. فإن امتحنت نفسها فوجدت أنها لا تبذل في سبيل الله دعما للدعوة وفداء للحق حتى أبسط وسائل راحتها، فلتراجع الحساب، ولتدبر الحيلة لتفْطم نفسها عن

(1) سورة المجادلة، 19.

أنانيتها، وَلْتستَعِنْ بأخواتها على ذلك الفطام. أين يباع حب الله ورسوله؟ وما ثمنه؟ وما القنوات القلبية الموصولة به؟

إن حبل المودة والمحبة يريده الله ورسوله رباطا ممتدا بين أجيال المؤمنين، موصولا من قلب لقلب إلى منبع النور. الآصرة النبوية تضم إليها الأمة من قنوات الحب في الله، تخُصُّ بالوصية قنوات آل البيت وقنوات الصحابة، وتنعَتُهما نَعْتا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة له بغدير خُم بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ: «**أما بعد، ألا أيها الناس! إنما أنا بشر، يوشك أن يأتي رسولُ ربي فأُجيبَ. وإني تارك فيكم ثَقَلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به**». قال الراوي: فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: «**وأهلُ بيتي! أذكركم الله في أهل بيتي! أذكركم الله في أهل بيتي! أذكركم الله في أهل بيتي!**». الحديث رواه مسلم عن زيد بن أرقَمَ رضي الله عنه. سأل حصين -وهو ممن حضر حديث زيد بن أرقم- ومَن أهله يا زيد؟ أليس نِساؤه من أهل بيته؟ قال زيد: نساؤه من أهل بيته. ولكنَّ أهل بيته مَن حُرِم الصدقَة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس.

هل في تمسكنا بالكتاب والسنة ما يناقض محبة آل البيت عليهم السلام؟

فعلت الفتنةُ فِعلها فشقت الأمة شقين: شيعة ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهل بيته فتذكروا، وأجّج حبَّهم لآل البيت مذابحُ آل البيت في كربلاء. وسنة سَلَوْا مقتلَ حسين رضي الله عنه ونسوا مخازي يزيد بن معاوية حين سيق إليه رأس حسين والطاهرات من آل البيت سبايا.

جُرح مؤلم عميق في جسم الأمة. ليس هنا مكان الإفاضة في التذكير به.

الواجب هنا أَنْ نعبر عن كراهيتنا لمن لا يقيم وزنا لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، كراهية يتساوى فيها الروافض الذين يعميهم الحب المتعصب الجاهل الحاقد لآل البيت فيسبون الصحابة، والنواصب الذين أعمتهم الدنيا عن فضيلة آل البيت.

لم يسلَمْ من ثَلْب الصحابة وتنقيصهم والحَطِّ عَليهم إلا أربعة أو ستة. أسقط الروافض شهادة الله وشهادة رسوله للصحابة. فهو خزي وبوار. والعياذ بالله.

وأمر ملوك بني أمية بسب علي كرم الله وجهه على المنابر، فسُبّ خمسين سنة. بوار وخزي. والعياذ بالله.

هل يضمِّد الزمَن ذلك الجرح العميق في جسم الأمة، أم يزيده الزمن تفاقما؟ متى يجلس علماء المسلمين سنة وشيعة ليجتمعوا على الحق، وهو حب الآل والصحب معا، حبا إن انفصم بعضه عن بعض، أو أعمى بعضه عن بعض، فقد انفصمت عُرى دين من فرق بين ما جمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصيته: الآل والصّحب. الثقلان الكتاب والعترة الطاهرة. الكتاب والسنة الطاهرة التي قاتل عنها وبلغها الصحب الكرام.

بئس ما خلَفْنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إن أصْرَرْنا على مضغ المآسي التاريخية فكرهنا الصحابة، وثلبنا الصحابة، ونقصنا الصحابة، وطَعَنَّا في شهادة الله ورسوله للصحابة.

وبئس ما خلَفناه صلى الله عليه وسلم إن تركنا رواسب النّصْبِ الأموي، وآثار الدعاية الرسمية الأموية التي قتلت حُرْمَة آل البيت بعد أن ذبحت في كربلاء آل البيت.

أخرج الترمذي عن زيد بن أرقم رضي الله عنه حديثا حسنا غريبا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي. أحدهما أعظم من الآخر، وهو كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض. وعِترتي أهل بيتي. لن يفترقا حتى يَردا علي الحوض. فانْظروا كيف تخلُفوني فيهما**».

أرأيتُنَّ معاشرَ المؤمنات لو كان من أهل البيت عُصاة وظالمون شذّوا عن القاعدة فانحرفوا عن الطريق، وافترقوا عن حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض؟

الشاذون والشاذات على رؤوسهم ورؤوسهن تهديد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مثّل بأعز الأحباب فاطمة ابنته ليؤكد أن شرع الله لا يحابي أحدا فقال: «**إن بني إسرائيل كان إِذا سرق فيهم الشريف تركوه،** (...). **لو كانت فاطمة لقطعت يدها**». الحديث عند البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما.

فاطمة التي دعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا عليا وحسنا وحسينا فقال: «**اللهم هؤلاء أهلي**». رواه الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بسند صحيح. فاطمة التي أدخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مِرْطٍ مُرَحَّل (كساء منقوش) كان عليه، أدخلها هي والحسن والحسين وعليا ثم قرأ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1]. رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها.

حب فاطمة وعلي وحسن وحسين وآل البيت من صميم الدين.

وحب الصحابة أيضا. جاء جبريل عليه السلام فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تَعُدونَ أهل بدرٍ فيكم؟ قال صلى الله عليه وسلم: «**من أفضل المسلمين** -أو كلمة نحوَها-. قال جبريل: وكذلك من حضر بدرا من الملائكة». رواه البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي وكان من أهل بدر رضي الله عنه.

أين ذهب باقي الصحابة من أهل بدر وهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا. لم يَسْلَم من الثلب إلا أربعة أو ستة. شهد لهم الله ورسوله وجبريل والملائكة. وطعن فيهم الروافض. مرفوض والله مخزِيٌّ مطعون في دينه من يثلب الصحابة.

حديث صحيح عند أبي داود من طريق أبي هريرة يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: «**اِطَّلَعَ الله على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**».

سيفُ عليٍّ له على الأمة فضل كبير. لكن مَا كان يفعل علي لولا المهاجرون البواسل والأنصار الأخيار؟ حب الأنصار من الإيمان. حب الأنصار آية الإيمان

(1) سورة الأحزاب، 33.

وعلامته. روى الشيخان والنسائي عن أنس رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار**».

الأنصار لهم مكانة عالية في كتاب الله، يُشَرَّفُون فيه ويشكر جهادهم ويُشهد لهم بالفلاح. أهم أربعة أو ستة أولئك الذين بايعوا في العقبة وحاربوا الكفر وآووا ونصروا؟ في أي وادٍ من وِديان الضلال يسلك المبغضون الثالبون لمن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لو أن الأنصار سلكوا واديا أو شِعبا لسلكتُ وادي الأنصار. ولولا الهجرة لكنت امْرَءاً من الأنصار**». رواه البخاري عن أبي هريرة. بأي وجه يلقى الله من يبغض أنصاريا واحدا فأحرى بُغضهم جميعا، وأحرى بغض الصحابة كافة؟ عند الشيخين والترمذي حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق البراء بن عازب يقول فيه عن الأنصار: «**لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق. فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله**».

اللهم ارزقنا حبك وحب من ينفعنا حبه عندك.

صُحْبةُ من صَحِبَ ومحبة من أحب

هل هناك أفصح وأوضح في مشروعية الحب في الله من دعائه صلى الله عليه وسلم ربه أن يرزقه الله حب من ينفعه حبه عنده؟

هل فهم أحد مقاصد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فهمها الصحابة، وهذا أنس يرجو أن يلحقه الله بأبي بكر وعمر ببركة حبه لأبي بكر وعمر؟ هل جاءنا الدين من الأوراق والكتب، أم من قنوات القلوب المؤمنة: من أبوين ربيا على الإيمان، ومعلم صالح، وواعظ متقٍ، وعالم عامل، ونموذج حي ماثِلٍ يُحتذى حذوُه، ويقتدى به، ويُحبُّ؟

هل هي سلسة من أصحاب، والمصاحبة انقطعت، أم الأمر لا يزال مستمرا من قلب لقلوب؟ نِقِف ونبحث ونتساءل ونعود للكيفية التي أوتي بها الصحابة الإيمان قبل القرآن، فتلقّوا القرآن بتعظيم وطاعة، بينما آخرون ينثرونه نثْرَ الدقَل. نعود ونتساءل لتتربى المؤمنات التربية الكاملة المتكاملة عقلا وقلبا وخلقا. قلبا قبل كل شيء، ليتأهلن بالأنوار المقتبسة المشعة من جيل مؤمن لجيل مؤمن، ولينشِئْنَ أجيالا مؤمنة يرضعنهم مع لبن الجسم لبن الإيمان.

ذاق الصحابة حلاوة الإيمان، وطعِمُوا طعمه، فحصل لهم اليقين. ذوّقوا طعم الإيمان تابعيهم، وذوّق تابعوهم تابعيهم، والجداول النورانية حية لا تزال، متدفّقة ينور الله بها عباده، ويحيي بها أرض القلوب كما يحيي بغيث السحاب أرض الزرع.

ما الأمر معلومات تُدرج في الطروس، ولا مجرد إقناع فكري وإن كان للعقل مكانه. للعقل القلبي مكانه الذي لا مدخل إليه ينفُذ منه العقل المعاشي المشترك بين البشر. ما الأمر معلومات وإقناع فكري، بل هو إقناع قلبي عقلي وِجداني أفاضه جيل على جيل، وجليس على جلساء، ومحبوب في الله على محبين في الله.

على هذا المستوى من أهمية الاقتباس القلبي والعناية بِمصادره نفهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بآل بيته وبصحبه. روى الترمذي عن عبد الله بن مغَفّل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**اللهَ اللهَ في أصحابي! لا تتخذوهم غَرَضًا** (هدفا يُرمى بالنبل) **بعدي. فمن أحبهم فبحبي أحبهم. ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم. ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله**». ورواه الإمام أحمد أيضا. وعن الشيخين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تسُبوا أصحابي، فَلَو أنّ أحدا أنفق مثل أحُدٍ ذهبا ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نصيفه**».

كان الصحابة رضي الله عنهم أوعية للعلم بلّغونا ديننا، كانوا فُقهاء مجتهدين أناروا لنا الطريق. كانوا أئمة هُدىً وتقى. كانوا قبل ذلك ومعه مَجالِيَ لِنور الإيمان، من قلوبهم سطع على مَن بعدَهم.حبهم من حب رسول الله، وحب رسول الله من حب الله. فالهدَى هداه سبحانه، والنور نوره، والوَصْلَةُ قلبية كما هي علمية، تربوية كما هي تعليمية. إذا غاب هذا عن العلاقات بين أجيال المؤمنين جفّ معين الإيمان، وأوتي من أوتي القرآن لا إيمان في قلبه، فهو ينثُره نثر الدقَل.

الرابطة القلبية الحماسية الغاضبة على خصوم آل البيت قوة هائلة حية عند إخواننا الشيعة. وعندنا سرعان ما غلبت الرابطة التعليمية، فانحسرت العلاقة مع الصحابة وتابعيهم في دائرة التلقي العلمي رِواية ودراية. من جيل لجيل خمدت جذوة المحبة وانزوَت. وكدرتها بغضاء الصحابة، وخلافات الصحابة، وأخطاء بعض الصحابة.

عاشت أمنا عائشة رضي الله عنها سبع سنوات من حكم معاوية. أخبَرَ عُروةُ خالتَه عائشة بأن الإمام عليا يُسَب ويُشتم ويلعن على المنابر. قالت عائشة: «يا ابن أُختي، أُمِروا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبوهم». أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها.

كان شتم علي ولعنه على المنابر مما فعله وأمر به معاوية. ثار بالفئة الباغية وقادها حتى استولى على الحكم. قال المسلمون السنة: اجتهد فأخطأ. ثم أخطأ حين أمر بلعن علي، أمرا استمر خمسين سنة. ثم أخطأ غفر الله لنا وله حين جيء إليه بحُجْر بن عدي الصحابي الجليل الزاهد العابد الفاضل فقتله وسبعةً من أصحابه. ذنب حجْر رضي الله عنه أنه قامَ ورد على زياد بن أبيه والي معاوية على العراق حين سمعه يلعن عليا على المنبر.

وأخطأ معاوية خطأه الأعظم لَمّا أرغم المسلمين تحت طائلة السيف على بيعة ابنه يزيدَ الفتى اللّعوبِ. وفعلها يزيد بعد أن ورث الملك عن أبيه كما يورث قطيع من النَّعَم، فقتل حسينا، واستباح جنده المدينة ثلاثة أيام لما قام عليه علماؤها من الصحابة، قتل منهم أكثر من ثلاثمائة، وأكثر من عشرة آلاف من المسلمين، وحَبَلت ألْف امرأة من سطو العساكر الأموية.

لا يحب الإخوان الشيعة أن يسمعوا كلمة «اجتهد فأخطأ فله أجر واحد». ويسيطر الغضب على ما فعله بنو أمية بآل البيت منذئذ على العقول فلا يعترف الشيعة بحديث نقله غيرهم، وعلى القلوب فتتجرع الأجيال مقتل حسين وحجر ولعن آل البيت على المنابر. ويسيطر الغضب الرافضيُّ على الأفئدة فيُبْغَضُ الصحابة لخطإٍ صدر من بعض الصحابة. نسمي ذلك خطأ لنستظل بستر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ناشد أمته: اللهَ اللهَ في أصحابي!

ومن جانبنا يتناقل الإخباريون آراء للأئمة ترفع معاوية إلى عَنان السماء، كأن مناشدة النبي صلى الله عليه وسلم في الصحابة براءة لجميعهم من الخطإ والعيب. ينقل العِمادُ الحنبلي في كتابه «شذرات الذهب» أن الإمام أحمد سئل أيهما أفضل: معاوية أو عمر بن عبد العزيز. فيزعم الأخباري أن الإمام قال: «لَغُبَارٌ لَحِق بأنف جواد معاوية بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من عمر بن عبد العزيز». كلمة يشم منها رائحة السيف ودعاية الإسلام الرسمي، فيترجح

أن نِسبتها للإمام أحمد، الجبل الشامخ رضي الله عنه، زور مما يلَفقه الإخباريون. وتبقى مزية الصحبة خارج المعارك.

لا جرَمَ أن يدّعيَ الشيعة العصمة لآل البيت إن كان السنة يسيغون مثل هذه الأحكام الغالية والأخبار التالية. أية تفاهة وسخرية بالعقل والدين: غبار في أنف فرس خير من عَلَم من أعلام المِلّة! لكنه فرس مَلكي.

نعود، والعوْدُ أحمُد، لنستمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي بأصحابه، ويوصي أصحابَه. روى مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «صلينا المغرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء. قال: فجلسنا فخرج إلينا، فقال: **مازلتم ها هنا؟** قلنا: يا رسول الله! صلينا معك المغرب، ثم قلنا: نجلس حتى نصلِي معك العِشاء. قال: **أحسنتم —أو أصبتم**–. قال: فرفع رأسه إلى السماء —وكان كثيرا ما يرفع رأسه إلى السماء– فقال: **النجوم أمنة السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماءَ ما توعَدُ. وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون. وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**».

قال ابن الأثير الجزري في كتاب «جامع الأصول» تعليقا على هذا الحديث: «**أتى أصحابي ما يوعدون**» إشارة إلى وقوع الفتن ومجِيء الشر عند ذهاب أهل الخير. فإنه لما كان صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم كان يبين لهم ما يختلفون فيه. فلما فُقد جالت الآراء واختلفت، فكان الصحابة يُسندون الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول أو فعل أو دَلالة حال. فلما فُقِد الصحابة قل النور وقويت الظلمة.

نتتبع مواقع النجوم الهادية ومجالس النور، كيف كان التابعون يرتادونها. روى الشيخان عن عَلْقَمة رحمه الله قال: «قدمت الشامَ، فصليت ركعتين، ثم قلت: اللهم يسر لي جليسا صالحا. فأتيت قوما فجلست إليهم، فإذا شيخ قدْ جاء، جلس إلى جانبي. قلت: مَن هذا؟ قالوا: أبو الدرداء (وهو من جِلة الصحابة وعلمائهم).

«فقلت: إني دعوت الله أن ييسر لي جليسا صالحا، فيسرك لي. قال: ممّن أنت؟ قلت: من أهل الكوفة. قال: أوَليس فيكم ابن أم عبدٍ صاحبُ النعلين والوسادة والمِطهرة؟ -يعني ابن مسعود-، وفيكم الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه -يعني عَمَّارا-. أوليس فيكم صاحِب سِرِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا يعلمه أحد غيرُه؟ -يعني حذَيفة-. ثم قال: كيف يقرأ عبد الله «والليل إذا يغشى»؟ فقرأت: «والليلِ إذا يغشى والذكرِ والأنثى». قال: والله لقد أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن فيه إلى فِيَّ».

هكذا كان يلتقي جيل بجيل، وهكذا كان يبحث اللاحق عن صحبة السابق ومجالسته، وفي هذا كانوا يتذاكرون، وعنه يتساءلون. وفيما يلي وصف للمناجاة القلبية الحبية بَيْنَهُمْ.

روى الإمام مالك في الموطإ والحاكم وابن عبد البر بسند صحيح عن أبي إدريس الخولاني عائذِ الله، وهو من كبار التابعين، قال: «دخلت مسجدَ دمشق، فإذا فتىً برّاقُ الثنايا، والناس حوله. فإذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه، وصدروا عن رأيه. فسألت عنه، فقالوا: هذا معاذ بن جبل. فلما كان الغدُ هجَّرتُ إليه (ذهبت إليه قبل الظهر)، فوجدته قد سبقني بالتهجير، ووجدته يصلي. فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قِبَل وجهه، فسلمت عليه ثم قلت: والله إني لأحبك في الله! فقال: آللهِ! فقلت: آللهِ! فقال: آللهِ! فقلت: آللهِ! فأخذ بحبوة ردائي إليه وقال: أبشر! فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فِيَّ، والمتباذلين فِيّ**». أُسَمِّي هذا الحديث دستوراً للصحبة. لا غنى للمؤمنات عن التحاب بينهن في الله، وعن التجالس والتزاور والتباذل في الله. قد يكون التحاب فاتِراً في البداية، فيسخنه التجالس، ويمَشّي عراه التزاور، ويقوي أواصره التباذل.

تتواصى الأجيال بهذا. حضر الموتُ مُعاذا رضي الله عنه فطلب إليه أصحابه الوصية. فقال: أجلسوني. ففعلوا. فقال: «إن العلم وَالإيمانَ مكانَهما، من ابتغاهما

وجدهما. يقول ذلك ثلاث مرات. التمسوا العلم عند أربعة رهط. عند عُويمر أبي الدرداء، وعند سلمان الفارسي، وعند عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن سلام الذي كان يهوديا فأسلم. فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنه عاشِرُ عشرة في الجنة». أخرجه الترمذي عن يزيد بن عميرَةَ.

أن يبتغي الجيل اللاحق العلم والإيمان عند أكابر الجيل قبله، هذه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلسل بها النقل كما تسلسل بالابتغاء والبحث والمحاسبة والصحبة والاقتباس.

يفلح من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أحبه، ومن صحب من صحب، ومن أحب من أحب، ومن رأى، ومن رأى من رأى. والخير في الأمة إلى يوم القيامة. روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**يأتي على الناس زمان يغزو فيه فِئَامٌ** (جماعة) **من الناس، فيقولون: هل فيكم مَنْ صاحَب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيُفتَح لهم. ثم يأتي على الناس زمان، فيغزو فِئام من الناس، فيقال: هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم. ثم يأتي على الناس زمان، فيغزو فِئام من الناس، فيقال: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم**».

في رواية «**هل فيكم من رأى من رأى؟**» والمقصود دائما هذه الصحبة المباركة المتسلسلة بالتلمذة والمجالسة والتزاور والتحاب في الله. والله يحب الصادقين

مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وقربهم من الله

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.[1] وقال عز من قائل: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.[2]

الوَلاية والوِلاية قرب وتناصر وصداقة وصحبة. وشيجتها العظمى حب المؤمنين والمؤمنات مولاهم عز وجل حبا غير مفصول عن حب بعضهم بعضا.

ذُكرت وَلاية المؤمنات في الآية ومشاركتهن الأصيلة الصميمة في الوَلاية العامة للأمة. ولم يُنقل إلينا كيف كانت التابعيات يصحبن أمهات المؤمنين والعالمات من الصحابيات. نُقلت إلينا مجالس التابعين إلى معاذ وأبي الدرداء وأمثالهم من علماء الصحابة يأخذون العلم والإيمان حيث العلم والإيمان مكانَهما في عقول الرجال وقلوبهم. لم ينقل إلينا جلوس المؤمنات في البيوت إلى فاطمة وعائشة وفضْليات الصحابة مثلما نقلت المجالس في المساجد. والعلم والإيمان مكانَهما في عقول المؤمنات وقلوبهن مثلما هما في عقول المؤمنين وقلوبهم.

من قالت منهن لصاحبتها: اجلسي بنا نؤمن ساعة، كما قال معاذ لصاحبه؟

هل قرأن سورة «والعصر» إثر كل لقاء ليضربن موعدا بعد موعد تصديقا لما في سورة «والعصر» من الحث على التواصي الدائم بالحق والصبر؟ هل كن يقرأنها كما يقرأها الصحابة في آخر الجلسة؟ أم تُراهُنّ يجلسن للقيل والقال وشقشقة اللسان؟ هل كن يتحابَبْن في الله؟

(1) سورة التوبة، 71.

(2) سورة يونس، 62-64.

أقسم لهن ولنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا! ولا تؤمنوا حتى تحابّوا! أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أَفْشوا السلام بينكم**». أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وضرب لنا صلى الله عليه وسلم مثلا حِسِّيا ليعلمنا أن المحبة في الله لا تقف عند السلام، بل هي مُؤاخاة وتآزُر وتكافل. قال: «**مثَل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطُفهم مثَل الجسد: إذا اشتكى منه عضو تَداعَى له سائر الجسد بالسهر والحمى**». رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

ثم لم يقتصر تعليمه صلى الله عليه وسلم على الوصية، بل ترجم وصاياه إلى عمل حين آخَى بين المهاجرين الذين غادروا المال والديار والعشيرة وبين الأنصار الذين آوَوْا ونصروا وأوسعوا لإخوانهم. ما كان الأنصار الرجال أن تَسع بيوتهم غرَباء عن البلد لو لم تكن الأنصاريات ربات البُيُوت قد تصارعت في قلوبهن دواعي الأنانية والخصوصية مع دواعي الإيثار حتى غلبت المحبة في الله وطردت الخصوصية الشحيحة ففتحن قلوبهن للمهاجرات يقاسمنهن السقف والدِّثار والماعون والحياة.

عن سيدنا عبد الرحمن بن عوف قال: «آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين سعد بن الربيع. فقال لي سعد: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقاسِمُك مالي شطرين. ولي امرأتان، فانظر أيّتهما شئت حتى أنزِلَ لك عنها. فإذا حَلّتْ (بعد عِدة طلاقها) تزوجتَها. فقلت لا حاجة لي في ذلك. دُلّوني على السوق. فدَلّوني على سوق بني قَيْنُقاع. فما رُحت حتى استفضلتُ أقِطا (جبنا) وسمنا». الحديث أخرجه البخاري.

هل من الإيمان أن يحب الرجل أخاه في الله وفي عَقد رسول الله أكثر مما يحب زوجه؟ تلك كانت ظروفا استثنائية. ولكلتا المحبتين مكانها.

ولتتوطد المحبة بين المؤمن والمؤمن وبين المؤمنة وأختها في الله يأتي التعبير اللفظي بعد التعبير العملي الذي يشاطِر مالَه ومأواه. قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم: «**إذا أحبّ الرجل أخاه فليُخبره أنه يحبه**». أخرجه أبو داود والترمذي عن المِقدام بْن مَعْدِ يكَرِب رضي الله عنه بسند صحيح.

كلمة «أحبك في الله» كلمة فارغة جوفاء إن لم يَكن عمارتَها البذلُ والعطاءُ والوقوفُ الساهر عند الشدة والحاجة.

لا مفهومَ لقوله: إذا أحب الرجلُ أخاه. لا مفهوم له كما يقول الفقهاء. أي لا مفهومَ مُخالَفة. فكذلك إذا أحبت المؤمنة أختها فيستحب لها أن تخبرها بعد أن تتأكد أنها محبة في الله خالصة لا مجرد إعجاب طارئ أو عاطفة طائرة.

ولا مفهوم للرجلين المتحابين في الله الذين يُذكران في الحديث النبوي القائل: «**سبعة يظلهم الله في ظله يومَ لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعودَ إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلمُ شِمالُه ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه**». أخرجه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ليس الإيمان وجوائز الإيمان وكمال الإيمان ومراتب الإحسان حكرا على الرجال. فالشابة التي نشأت في عبادة الله كالشاب تُجزى بما يجزَى به، وكذلك المؤمنتان إن تحابتا في الله اجتمعتا على ذلك وتفرقتا عليه. وكذلك المرأة إن دعاها رجل إلى الحرام فقالت إني أخاف الله. وكذلك المتصدقة، والذاكرة الباكية.

يذكركِ ربُّك أيتها المؤمنة الكاملة الإيمان، المحبةُ لأخواتها في الله محبة مشتقة من حب الله ورسوله. محبة أعطيتِ عليْها براهين نصر دين الله حين خذله الناس، وأعطيت عليها شواهد الثبات حين تخاذل الناس، وأعطيت عليها حجج البذل في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله، واحتضان أخَواتكِ في الله في الضراء والسراء.

تُذكرين إن شاء الله وسَمتْ بِكِ همة، وألحقتك بالسابقات سابقتُك عند الله تعرفينها من يقين في قلبك، وإرادة فاعلة، واستقامة، ومواظبة في طلب كمالِك.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يقول الله تعالى يوم القيامة: أيْنَ المتحابون بجَلالي؟ اليومَ أظِلُّهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**». أخرجه مسلم والإمام مالك في الموطإ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن مُعاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**قال الله عز وجل: المتحابون بجلال الله يكونون يوم القيامة على منابِرَ من نور، يغبطهم أهل الجمع**». أخرجه الترمذي بسند صحيح. وروى أحاديث في هذا المعنى أبو الدرداء، وعبد الله بن مسعود، وعبادة بن الصامت، وأبو هريرة، وأبو مالك الأشعري رضي الله عنهم. فالبشرى العظيمة كانت معروفة عند الصحابة مذكورة.

إن لله عز وجل أولياءَ يذكرهم كما يذكرونه، ويتقربون إليه فيتقرب إليهم، ولا يزالون على ذلك حتى يحبَّهم. مما يتقربون به إليه في الدنيا الحب فيه، والبذل فيه، والزيارة فيه، والتجالس فيه. ويحبهم تعالى فتحبهم لحبه ملائكته، ويحبهم لحبه أهل السماء والأرض. روى البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا أحب الله العبدَ نادَى جبريلَ: إن الله يحب فلانا فأحِبّوه. فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القَبول في الأرض**».

وروى مسلم عن سُهيل بن أبي صالح قال: كنا بعرَفةَ، فمرَّ عمر بن عبد العزيز وهو على الموسم (أي كان أمير الحج تلك السنة). قال: فقام الناس ينظرون إليه. فقلت لأبي: يا أبَتِ! إني أرى الله يحب عمر بن عبد العزيز. قال: وما ذاك؟ قلت: لِما له من الحب في قلوب الناس. قال: فأُنَبِّئُكَ؟ إني سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريلَ فقال: إني أحب فلانا فأحبَّه. قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء، فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه. فيحبه أهل السماء، ثم يوضَع له القَبول في الأرض. وإذا أبغض عبدا دعا جبريلَ عليه السلام، فيقول: إني أبغض فلانا فأبغِضْهُ. قال: فيُبغضه جبريل،**

ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يُبغض فلانا فأبغضوه. ثم توضع له البغضاء في الأرض».

فلان ذُكِر بخير وأحِبّ، وفلان ذكر بسوء وأبغض. فما حال فلانة وفلانة؟ أما فلانة الناصية الكاذبة الخاطئة، فعصت ونافقت وأعرضت عن ربها فأبغِضت وغُضِبَ عليها وطُرِحَت حصَباً لجهنم وحطبا، نعوذ بالله.

وأما فلانة فقالت: كلنا أولياء الله مؤمنون متقون. لم تُصدق قول ربها عز وجل: ﴿**يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ**﴾[1]. قالت هذه الفلانة: أولئك هم الأنبياء، وقد انتهى الأمر.

وأما فلانة فصدقت بكلمات ربها وكتابه وكانت من القانتين كما صَدّقت مريم ابنةُ عمران التي ضربها الله لَها مثلا، وسألت ربها أن يبني لها بيتا في الجنة كما سألته امرأة فرعون، وآزرت الدعوة كما آزرتها خديجة، وصبرت مع الدعوة كما صبرت فاطمة، وحملت العلم كما حملت عائشة، وفدت الإسلام كما فدته أم عِمارة. هذه الفلانة تطلب كمالها من ربها وهو كريم سبحانه.

ما هم أنبياءُ من اختصهم الله بولايته الخاصة. نقل إلينا وصفَهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياءَ ولا شهداء، يغبِطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانتهم من الله**». قالوا: يا رسول الله! تخبرنا مَنْ هم؟ قال: «**هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها. فوالله إن وجوهَهم لنور، وإنهم لعلى نور. لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس**». وقرأ هذه الآية: ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[2] . أخرجه أبو داود. وفي الباب أحاديث تُقَوّيهِ رواها الإمام أحمد وأبو يَعْلَى والحاكم.

---

(1) سورة آل عمران، 73.

(2) سورة يونس، 62.

أحسنت الظنَّ بربها عز وجل وبعباده فلانةُ فاستقامت وأطاعت واجتهدت وجاهدت حتى ارتاش فَرْخُ إيمانها وقَوِيَ وطار إلى عالم الملكوت، حيث ذكِر اسمُها مع المحبوبات.

أما فلانة المكذبة فخاطبها لسان الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه «الفتح الرباني» قائلا: «أراك قليلة المعرفة بالله عز وجل وبرسوله. قليلة المعرفة بأولياء الله عز وجل وأبدال أنبيائه وخلفائه في خلقه. أنت خالية من المعنى! أنت قفَص بلا طائر! بيت فارغ خَراب! شجرة قد يبِسَتْ وتناثر ورقها! عِمارة قلب العبد بالإسلام، ثم بالتحقيق في حقيقته وهي الاستسلام».

أنا أَنَّثْتُ خطابه رحمه الله. فهو في مسجده كان يخاطب حاضرين، وفي هذا الكتاب نخاطب بالقصد الأول حاضرات.

قال رحمه الله: «يا غلام! ما صحت إرادتك للحق عز وجل ولا أنتَ مريد له... مريدو الدنيا فيهم كثرة، ومريدو الآخرة فيهم قلة، ومريدو الحق عز وجل الصادقون في إرادته أقلُّ من كل قليل (...). ويْحك تدّعي أنك منهم! ما علامتُهم عندك؟ ما علامة قرب الحق عز وجل ولطفِه؟ في أي منزلة أنت عند الحق وفي أي مقام؟ ما اسمك وما لقبُك في الملكوت الأعلى؟».

وأنتِ يا أخت الإيمان هل تطمحين وتطمعين أن تذكَري في الملإ الأعلى ويكونَ لك ثَمَّ اسم ولقب؟ إنها إرادة واستقامة وعمل صالح. فمن تَسمع ومن تجيب؟

الفقه المغَيّب

في هذه العصور النفطية غُيِّب فقه ترقيق القلوب، فقه المحبة في الله، فقه حب الله، فقه التقرب والسلوك إلى الله وكأنه بدعة طارئة في الدين لا أصل لها.

نتفقه في كتاب الله العزيز القائل: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.[1] ونتفقه على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي علمنا أن هؤلاء الأولياء ما هم نكِرات في السماء والأرض، وإنما هم فلان وفلانة ممن أحبهم الله فقربهم وأمر ملائكته أن يحبوهم.

بيد أننا نحتاج لِمن يشرح لنا فقه السلوك كما نحتاج لمن يضبط لنا فقه الأحكام أصوله وفروعه، وفقه الحلال والحرام، وفقه الفرائض، وفقه اللغة، وفقه أصول الاعتقاد. سُمِّي فقه المحبة والتربية والتقرب من الله تصوفًا، وعاش جنبا إلى جنب مع الفقه الآخر منكمشا معه عن ساحة الحكم. اليومَ كمَّم الحكم العاض أفواه فقهاء الفروع فلا ينطقون إلا بفتوى تكفر الشيعة وتبشر بأن الزُّرْق الكفار أحباب وأنصار. وكَمَّم فقهاء الفروع فقه التصوف وبدعوا تاريخه ورَمَوْه -بزعمهم- على هوامش الدين.

نصح المؤمنات باتخاذ الشيخ عبد القادر الحنبلي المذهب الصوفي المشرب، المربي الجليل، رفيقا في الطريق، خصوصا في كتابه الفريد «الفتح الرباني». لا يطعن النفطيون فيه، وأنى للأقزام أن تطاول الجبال، وقد مجده وقدسه أئمتهم المعتبرون. ولا تجد المؤمنات مثلَه من يُوبِّخ ويحرك ويستنهض الهمم بأسلوبه المباشر الجرّاح. أسلوب في الوعظ فريد، ومن رجل فريد أجمعت الأمة على محبته وتعظيمه.

---

(1) سورة يونس، 62-64.

لا تكن المؤمنة مثل بعض السطحيين الذين خصصوا لهذا الموضوع الحيوي بضع ساعات قرأوا فيها ما جمعه سطحيون قبلهم من أخطاء بعض الصوفية. إن كان حب إماء الله لربهن دينا، وكان حب الله لإمائه المتقربات المقربات غاية يوصل إليها، فالشقِيّةُ المحرومة من لا تخصص عمرَها، ليلَه ونهارَه، لتتفقه أولا وتتثبت، ثم لتعمَل وتجاهد وتصفِي القلب. دَعي الحيرة والسطحية لغيرك يا أخت الإيمان، وعمقي البحث.

نقرأ في هذه الفقرة شهادات فقهية لأئمة أساتذة. أولهم الغزالي الفقيه الأصولي، والمتكلم المجادل عن الدين، والعَلَم البارز في تاريخ الإسلام.

يقول حجة الإسلام في «الإحياء»: «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضى».

ويقول: «أما بعد، فإن المحبة لله هي الغايةَ القُصوى من المقامات، والذِّروةَ العليا من الدرجات. فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثِمارها، وتابع من توابعها، كالشوق والأنس والرضى وأخواتِها. ولا قَبْل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالتوبة، والصبر، والزهد وغيرها. وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تَخْلُ القلوب عن الإيمان بإمكانها. وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها، وقال: «لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى. وأما حقيقة المحبة فمُحال إلا مع الجنس والمثال».

أرأيت يا أخت الإيمان كيف يكذب «بعض العلماء» صريح ما جاء في الحديث القدسي والنبوي! لهذا كتب الغزالي كتاب «إحياء علوم الدين» منذ تسعمائة سنة ليُنْهِنَهَ من انحراف فقهاء الفروع، وفقهاء الظاهر، وفقهاء السطح، ما نحاول نهنهته في زمننا مع فقهاء النفط. تحتاج أخت الإيمان إلى وقت وإلى عقل كامل ورغبة مستميتة لكي تقرأ وتستوعب ما كتبه الغزالي، ثم لتقرأ بعمق ما خالفه فيه ابن تيمية. تحتاج لدقة وشوق وصبر لكيلا تبقى مقلدة محرومة في قضية هي أم قضايا الدين. لا أرضى للمؤمنات أن يتلاعبن بدينهن.

قال حجة الإسلام رحمه الله: «ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر. ونحن نذكر في هذا الكتاب شواهد الشرع في المحبة، ثم بيان حقيقتها وأسبابها، ثم بيان أن لا مستحِقَّ للمحبة إلا الله تعالى، ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى، ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا، ثم بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى، ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب، ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى، ثم بيان معنى الشوق، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد، ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى، ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى، ثم بيان معنى الانبساط في الأنس، ثم القول في معنى الرضى وبيان فضيلته، ثم بيان حقيقته، ثم بيان أن الدعاء وكراهة المعاصي لا تناقضه، وكذا الفرار من المعاصي».

مصطلحات في فقه القلوب تبقى حروفا باردة إن كان المكانُ غير قابل لحرارة حب الله والشوق إليه. تعالي أخت الإيمان نستمع كلمات مُلهبة من عبد القادر الجيلاني عسى وعسى تنبِضُ فينا نبضة حياة. قال رحمه الله: «ويحك ادعيت محبة الله عز وجل! أما علمت أن لها شرائط؟ من شرائط محبته موافقتُه فيك وفي غيرك. ومن شرائطها أن لا تسكُن إلى غيره، وأن تستأنس به، ولا تستوحِش معه. إذا سكن حب الله قلب عبد أَنِس به وأبغض كل ما يشغل عنه. تُبْ من دعواكَ الكاذبة! هذا شيء لا يجيءُ بالتخلي (أي دخول الخلوة والابتعاد عن الناس وإظهار الزهد الكاذب في الدنيا) والتمني والكذب والنفاق والتصنع! تُب واثبت على توبتك، فليس الشأن في توبتك. الشأن في ثبوتك عليها. ليس الشأن في غرسك. الشأن في ثبُوته وتغصينه وثمرته».

ويحث الشيخ عبد القادر قدس الله سره على صحبة العارفين بالله والأكل من مائدتهم. يقول: «كلوا من بقايا القوم (كلمة قوم اصطلاح معناه الصوفية)، اشربوا ما قد بقي في أوانيهم. يا من يَدَّعي العلم! لا عبرةَ بعلمك من غير عمل! ولا عبرة بعملك من غير إخلاص! لأنه جسد بلا روح. علامة إخلاصك أنك لا تلتفت إلى

حَمد الخلق ولا إلى ذمهم، ولا تطمعُ فيما في أيديهم. بل تعطي الربوبية حقها. تعمل للمنعم لا للنعمة، للمالك لا للمِلك، للحق لا للباطل. (...)

قال: «تَنَعّم المحبّون لله عز وجل الذين هم خواصه من خلقه لابتلاء أجْسادهم. الشهداء الذين قُتلوا بسيوف الكفار لابتلاء أجسادهم، فكيف الشهداء الذين قتلوا بسيوف المحبة! (...)

قال رحمه الله: «إذا عصَيت يجيئُك الخراب إلى جسدك، ثم إلى جسد دينك. يجيئك العَمَى والزِّمَن والطرَش وذهاب القوة. تجيئك الأمراض المختلفة. يجيئك الفقر فيخرب بيت مالك، ويحوجك إلى أصدقائك وأعدائك. ويلك يا منافق! لا تخادع الحق عز وجل! تعملُ عملا وتُظْهِر أنه له وهو للخلق! تُرائيهم وتنافقُهم وتتملق لهم وتنسى ربك عز وجل! عن قريب تخرج من الدنيا مُفلسا!

قال رحمه الله: «يا مريض القلب! عليك بالدواء! الدواء لا يكون إلا عند الصالحين من عباد الله عز وجل. خذ الدواء منهم واستعمله وقد جاءتك العافية الدائمة والصحة الأبدية لمعناك ولقلبك ولسرك ولخلوتك مع ربك عز وجل. تنفتح عينا قلبك، فتنظر بهما إلى ربك عز وجل. تصير من المُحبين على بابه الذين لا ينظرون إلى ما سواه. قلب فيه بِدعة كيف ينظر إلى الحق عز وجل».

ونسمع لكلمة الإمام النووي المحدث العارف غيرِ المنكر لما هي مقامات الإحسان وصحبة الصالحين. قال رحمه الله معلقا على حديث جبريل، وعلى تعريفه للإحسان بأنه: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»: «هذا القدر من الحديث أصل عظيم من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين. وهو عمدة الصدّيقين وبُغية السالكين وكنز العارفين ودأب الصالحين. وهو من جوامع الكَلِمِ التي أوتيها صلى الله عليه وسلم».

قال رحمه الله: «وقد ندب أهل التحقيق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعا من التلبس بشيء من النقائص احتراما لهم واستحياء منهم، فكيف بمن لا يزال الله مطلعا عليه في سره وعلانيته».

لـم يـزل علمـاء الأمـة يجولـون حـول نقطـة محبـة اللـه لعبـده وتوليـه إيـاه، يحـوم بعضهـم ويُلغِز، ويصـرحُ بعضهـم بمواجيـده وأنـوار قلبـه فيفتِن، وينسـحب البعـض إلـى سـاحل جـاف يابـس يـرى فيـه الأمـان مـن الغـرق، فينكـر أن اللـه يُحَـب أو يُحِـب.

من فقهاء المحبة الناكبين عن مصطلحات الصوفية لكن المتمسكين أشد التمسك بفقه السلوك والحب والوِلاية شيخ الإسلام ابن القيم تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية. قال في كتابه «إغاثة اللهفان»: «لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها. فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها ورازقها، ومُميتها ومحييها. فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفس، وقُوت القلوب، ونور العقول، وقُرة العيون، وعِمارة الباطن. فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية أحلى، ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسَرّ، ولا أنْعم من محبته والأنس به، والشوق إلى لقائه.

قال رحمه الله: «والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنَّعيم الذي يحصل له بذلك أتَم من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة، كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله: «إنه ليَمُرُّ بالقلب أوقات أقول فيها. إن كان أهل الجنة في مِثلِ هذا إنهم لفي عيش طيب!» وقال آخر: «إنه ليمُرّ بالقلب أوقات يهتز فيها طرباً بأنسه بالله وحبه له». وقال آخر: «مساكين أهل الغفلة! خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها!» وقال آخر: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف!»».

ها هو ذا الإمام ابن القيم الحنبلي يستشهد بمقالات الصوفية أصحاب المواجيد متحاشيا تسميتهم، محاولا مع ذلك إحياء ما قضى شيخه عمره في محاربته ومناوشته. تلقّى التلميذ النجيب آخر كتابات ابن تيمية من سجنه الذي مات فيه. كان مما كتبه إلى تلامذته رسالة تشبه التوبيخ الشديد، يلومهم فيها فارس المنقول والمعقول على أنهم ينقصهم الوَجد. الوجد هو ما يجده الذاكرون

الله كثيرا والذاكرات، المحبون لله والمحبات، من حلاوة الإيمان وطعمه، ولذة المناجاة في القرب.

ما التحقيق في المسألة العظمى يا فقهاء الإسلام وعلماء الدين؟ إن أمام الفضول الفكري وحب الاطلاع أسفارا وجدالا. لكن مَن يدلنا على الله؟

الصبر مع الجماعة

من يدلنا على الله؟ هل مثل هذا السؤال يطرح وبين أيدينا كتاب الله وسنة رسوله؟

تقول إحداهن: «يا أختي! كنت في غفلة وجهل وإعراض عن الدين حتى لقيت من دللنني على الإسلام بحماسهن. قلن إن الإسلام هُوَيتنا وأصالتنا. وقرأت في كتابات بعض رواد الصحوة الإسلامية أن الإسلام «قومية فكرية». وألتقي بأخريات محجبات يقرأن القرآن ويصلين، وهن منخرطات في حركة إسلامية تدعو إلى الله، لا يطرحن هذا السؤال، ولا خبر عندهن بإسلام يؤسس عليه إيمان، فإحسان يتوج الإيمان، ويرتفع بنا إلى ذُرى الكمال.

فما هذا الفقه الغريب؟ أبدعة وخرافةٌ وافتراء!»

إن الفقه المكتوب المقرَّر المقروء يبقى عرْضا باردا، وتراثا منسيا، و«أصالة» تجاوزها الركب، وغُربَةً وسط غربة. الجادون في دينهم بين العابثين غرباء، والصاحون بين النائمين غرباء، والسائلون والسائلات عن الإحسان وفقهه غرباء بين المنكرين لأصل وجود شيء يسمى إحسانا، والقلوب الريّا بحب الله، المريدة لوجه الله بيئة غريبة بين غرباء الغرباء.

«**اللهم ارزقني محبتك ومحبة من تنفعني محبته عندك**». على هذا الحديث وأمثاله نتفقه. وعلى حض حبيب الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين والمؤمنات على البحث عن بيئة حية ورفقة مُنهِضة. قال: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالِلُ**». رواه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه. أوصى حبيب الله أحدَنا وَإِحدانا بالبحث والنظر عن خُلة في الله، وبيئة تربوية مُنهِضة إلى الله. ما أوصى بأن يزيد أحدنا كتبا إلى مكتبته، لأن القلوب إنما تقتبس من

القلوب. اقرئي ما شئتِ، واسمعي ما شئتِ من محاضرات تنير العقل وتشرح وتصف. لكن من أين لنا بلَمْسَةٍ عُلْوِيّةٍ تسري إلى مجامع القلب؟

أوصى الرب العليم الحكيم حبيبه صلى الله عليه وسلم أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه. وكذلك فعل صلى الله عليه وسلم، لا ليكتسب هو من رفقتهم وخُلتهم إيمانا. كيف وهُو نجيُّ الرحمن، ومصدر أنوار الوحي، وجليس الملائكة! لكن أوصاه لتسمع فلانة وتتفقه وتطمئن إلى أن صحبة جماعة حية بحياة الحب في الله شرط من شرائط السير إلى الله، والقرب من الله.

من كان رأس مالها سوء الظن بالله وبعباد الله فحَبَّتها ما انفتقت لأن الأرضَ قاحلة، قاسية قسوة الصخر. قلب قفر، قلب قبر.

وتذبُل غرسة التائبة، وتموت يقظتها، وتنطفئ جذوتها إن لم تَصِلْ قناة قلبها ببيئة رَوِيّة.

غريبات من يطلبن الآخرة وسط بنات الدنيا، غريبات من يطلبن درجات الآخرة بين من لا خبر عندهن بدرجات الآخرة، غريبات بين كل أولئك من يطلبن وجه الله، ويُرِدْنَ وجه الله، ويدعونه بالغداة والعشي لينصقِل القلب فيلقين ربهن بقلب سليم.

من لم تَلسعها لواسع الشوق إلى الله وهي في مقتبل العمر فهي قفص بلا طائر. من لم يغُمَّها الندم على شطر عمر انقضى لم تسع فيه للتحقق من أن الله عز وجل قريب مجيب يُحَبّ ويُحِب فهي أرض مَوَات. من أشرفت على القبر دون أن تعلَم وتتعلم أن الآخرة درجات، وأن من إماء الله من اكتملن، وأن العقلاء لا يلعبون بدينهم حين كتبوا «إحياء علوم الدين»، وحين دعوا إلى مأدُبة الله وباب القرب من الله، فهي ورقة يابسة سقطت من شجرة الحياة.

أشِرْكٌ هو أن ندعُو الله كما دعاه حبيبه ورسوله المصطفى أن يرزقنا محبته ومحبة من تنفعنا محبته عنده؟ أهو شِرك رَجاء أنَس بن مالك أن يلحقه الله بأبي

بكر وعمر ببركة محبته للنبي وأبي بكر وعمر؟ آه**!** آه**!** ما فعل الفقه النفطي، وما فعلت النضالية الحركية، وما أطَّرا وما داسا بالأقدام من جوهر الدين ولبه وثمرته**!**

كان الصوفية رحمهم الله، ولا يزالون، يدعون الناس للدخول من أبواب التوبة إلى الله، فالزهد في الدنيا، فالتوكل، فالرضى، فالشوق، فالمحبة، فالأنس. إلى آخر مقامات السلوك. كل ذلك بعيدا عن حمل عبء الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا في الأرض.

ودّعنا ذلك الانزواء. وجمع الفاحصون في الأوراق مثال متصوفة مخرفين، وآخرين سُكارَى، فهم يدعون لنبذ «الشرك الصوفي». يا ليتهم قرأوا فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية من الجزء الأول إلى دفة الجزء الخامس والثلاثين ليقرأوا من عجائب الاعتقاد في الحلول الجزئي السائغ**!** وليقرأوا الفارس الصادق يؤنب إخوانه مِن داخل سجن موته على خصاصتهم في «الوجد». ما هو الوجد يا أخت الإسلام؟

تبحث المؤمنة عن جماعة المؤمنات يجمعهن حب الله وحب رسول الله، تجمعهن رابطة القلب كما تجمعهن رابطة الفكر. تجمعهن رابطة العمل الجهادي كما تجمعهن رابطة العِلم الجهادي.

ولا تنس المؤمنات في هذه الجماعة أو تلك أن من شرائط الإيمان وَلاية أهل الإيمان مهما اختلفت الآراء، ومهما تفاوت الفهم، ومهما تخصَّص التنظيم. حب الله ورسوله لا يُضيق الأفق بل يوسعه، حتى نحب في الله كل من نطق بلا إله إلا الله. فأحْرى مَن تجند لنشر عقيدة لا إله إلا الله، فأحرى من عرضن أنفسهن للبلاء فداء لعقيدة لا إله إلا الله.

بعد هذا فالمجالسة في الله اصطفاء واختيار. ولتنظر المؤمنة في قلبها لترى في أي مجلس يتنور. فإن من المجالس والتجمعات ما يلهب الحَماس كما تُلهب نار الحريق، والنتيجة حُراقٌ وسَوَاد في القلوب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير.**

فحامل المسك إما أن يُحْذِيَكَ (يُعطيك من مسكه)، **وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه رائحة طيبة. ونافخ الكير إما أن يُحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة خبيثة**». رواه الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. الكيرُ منفاخ الحداد. وفي عصرنا يُضرَبُ المثل لبعض التجمعات السياسية النضالية بما تنفثُه المداخن الملوِّثة.

إن حزب الله واحد، عرّفه القرآن الكريم في آخر آية من سورة المجادلة بأنهم:

1. لا يوادُّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.
2. كَتَبَ الله في قلوبهم الإيمان. فهم أهل قلوب خاشعة لله، أهل مسجد وصلاة وقرآن.
3. أيدهم الله برُوحٍ منه. وهو سبحانه لا يؤيد المنافقين في الدين.
4. يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ويرضى عنهم ويرضون عنه.

إنها صفات لربانيين وربانيات لهم بالله عز وجل صلات قلبية، ولهم إليه طاعات، ومنه إليهم رُوحٌ وتأييد ونور. أولى سماتهم أنهم لا يوادون من حادّ الله ورسوله. وإنكِ يا أخت الإيمان تجدين في الساحة النضالية مُتخمين ومتخمات بالفكر النفاقي النضالي المتمسلم. إن كان لكِ قلب، وكان لكِ مع الله ساعات مناجاة، وكان لكِ بالصادقات صلات، فستلمحين على وجوه المنافقات والمنافقين سُخَام نافخي الكير. فإن لم تَلْمَحي فتعجّبي من الحلف الشيطاني بين أعداء الإسلام الأقحاح الوِقاح الجريئين وبين المنافقين المتلبسين. عبرةٌ لنا بما فعل «مجاهدو خلق» المنافقون بإيران.

إن للحب في الله حدودا. جليسات المسك الذاكرات الله كثيرا حزب واحد مع المؤمنات المسلمات الصادقات المصليات. والمُبعَداتُ والمُبعدون يُعرفون بسيماهم، ويعرفون بمواقفهم وأحلافهم.

دعِي وَعِلَ النفطِ ينطَح في صخرة الغزالي، واحذري من نافخات الكير مِدْخناتِ إبليس وتعالين نسمع لبعض الوعظ القادري عسى أن يوقظ فينا حُشاشة حب الله.

قال رحمه الله: «ويحكَ قد خرست! استغثْ بالله! ارجع إليه بأقدام الندم والاعتذار حتى يخلِّصَك من أيدي أعدائك ويُنجيك من لجة بحر هلاكك! (...). أنت مستظل بشجرة الغفلة! اخرج من ظلها وقد رأيت الشمس وعرفت الطريق. شجرة الغفلة تُربَّى بماء الجهل، وشجرة اليقظة والمعرفة تُربى بماء الفِكر، وشجرة التوبة تربَّى بماء الندامة، وشجرة المحبة تربَّى بماء الموافقة. (...). قد كان لك عذر وأنت صبي وشاب إلى الآن. قد قاربت الأربعين أو قد جاوزتها وأنت تلعب بما يلعب الصغار».

وقال رحمه الله: «من أراد الفلاح فليصبر نفسه عن المحرمات والشبهات والشهوات. ويصبر على أداءِ أمر الله عز وجل والانتهاء عن نهيه، وعلى الموافقة لِقَدَره. القومُ صبروا مع الله عز وجل ولم يصبروا عنه. صبروا له وفيه. صبروا ليكونوا معه. طلبوا ليحصُل لهم القرب منه. خرجوا من بيوت نفوسهم وأهويتهم وطباعهم، واستصحبوا الشرع معهم، وساروا إلى ربهم عز وجل، فاستقبلتهم الآفات والأهوال والمصائب والغُموم والهموم والجوع والعطش والعُرْي والذل والمهانة فلم يبالوا بها، ولم يرجعوا عن سيرهم. لا يزالون كذلك حتى يَتحقق لهم بقاء القلب والقالب».

قلت: هكذا صبر الصوفية في صوامعهم وزواياهم. ساروا إلى الله وبحثوا عن صِقال لقلوبهم في رفقة مغلقة، وعَبْر امتحانات فردية. وتلك طريق.

والجادة النبوية جهاد، وصبر على بلاء مخالطة الناس، ومجالدة الأعداء من الوَقِحين والمنافقين، ومساهمة في بناء كيان الأمة مساهمة تخدم بإخلاصها وسمو مرماها، وتوجهها الدائم بالنية والدعاء والذكر، قضية مصيري الأخروي، وقضية عروجي القلبي، وقضية صفائي الروحي. يا من

تريدين تغيير المجتمع وقضية إيمانكِ منسيَّة، وقلبُكِ لا تدرين صفا وسلِمَ أم أظلم وعتِم.

قال عبد القادر قدس الله سره: «الصبر سبب للرفعة والنصرة والمعزة. اللهم إنا نسألك الصبر، ونسألك التقوى والكفاية والفراغ من الكل والاشتغال بك ورفع الحجب بيننا وبيْنك. (...) تَعْملُ ويكون قصدُك رضى المستعمِل وقربه. فالأجرة تكون رضاه عنك وقربك منه دنيا وآخرة. في الدنيا لقلبك، وفي الآخرة لقالبك (...). ويحك! خلْق وخالق لا يجتمعان، دنيا وآخرة في القلب لا يجتمِعان، لا يُتصور، لا يصح، لا يجيء منه شيء! إما الخلق وإما الخالق! إما الدنيا وإما الآخرة».

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

إكرام المسلمين وصحبة الشعب

واحدة تزعم أنها تستمد من النفحات القدسية والأنوار الملكوتية، وواحدة معتزة بثقافتها الإسلامية واطلاعها الواسع، والأخرى حديثة عهد بستر شعرها وارتداء جلباب فضفاض ولُبس جوارب سميكة.

وفي الأخلاق تيبس، وجفاء، وتكبر، وجَذْبٌ ومسغبة في الآداب الإنسانية البسيطة. منفرات معسرات لا مبشرات ميسرات. كأن الإيمان يحملن طابعه، من لم يدْمغنَها بمَيْسَمِهِنّ فهي شاة جرباء، فاسقة مارقة. وكأن الانصياعَ لهن والانضواء تحت لواء رئاستهن معيار تُعرف به الناجية من الهالكة.

لو كانت دعوى تلك صلاحا وهداية، وكان علم الأخرى نافعا، وكان احتجاب الثالثة من آثار التقوى، لخفضن الجناح للمسلمات، ولَما رأين لأنفسهن مزية على أخواتهن في الجنس والدين، ولقدَّرن ظروف المسكينة التي يتناقض ظاهر ملبسها مع ما يعلم الله من صفاء قلبها. في قلبها وَلاء لله ولشرعه، ومِن حولها أسرة لا تسعف، وضغط اجتماعي لما تَقْوَ على تحديه، وحكم ظالم يضطهد المحجبات.

لو كان الصلاح والعلم والتقوى حقائق إيمانية عند أولاتِ الحجاب والمظهر المحتشم لوجّهْنَ اللوم العنيف لأنفسهن يجاهدنها لتتطهر، ولكان حزنهن على قلة إيمانهن شاغلا عن سوء الظن بالمسلمات، وعن سَلْق غيرهن بألسنة حِدادٍ.

تلك هي التربية القرآنية التي نقرأها في سورة الحجرات في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ﴾.[1] من أدراني أنا الملتفة في ملبس الجسم أن تلك السافرة مقهورة تائبة في قلبها، وأنها عند الله خير مني؟ من أدراني أن ملبس

(1) سورة الحجرات، 11.

تلك المتبرجة بلاء عابر يرفعه الله عنها يوما ويلبسها أردية الإيمان ويتوجها بتاج الإحسان؟ من أدراني؟ من أدراني؟ ولعلي أكون السبب في هداية فلانة وفلانة فأنال عند الله المكانة.

إن الشخصية المعتزة بذاتها، المُعجبة بأطرافها، المتشنجة سيئة الظن بغيرها لَهي النموذج الكامل للإسلام الأعرابي. أخبر الله سبحانه وتعالى عن حال الأعراب في سورة الحجرات هذه المليحة الزاخرة بالآداب الإيمانية قال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.[1] كان أعراب عصر التنزيل بُداةً يسكنون الخيام ويرعون الإبِلَ. جفاةٌ لم تهذبهم هجرة إلى الله ورسوله، غُفْلٌ مِن حِلْيَة الأدب الإيماني الذي تعلمه المهاجرون والأنصار في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم، وفي الدروس الاستكمالية بمجالس: «تعال نؤمن ساعة».

الأعرابية في الإسلام تبقى صفة بعد انقراض حضارة البدو رِعاء الإبل، وعلَما على غِلظة في الحِس لم يرققها الإيمان، وكثافة في الطبع لم تلطفها مجالسة أهل الإيمان، وجفوة في الحس والمعاملة والشعور والكلام واللهجة لم تستأنِسها ولم تمِّدْنها آداب الإيمان. هذا إلى سطحية في الفكر وسوء ظن بالعالمين.

قد تكون المسلمة إسلاما أعرابيا من صميم المدنيات المتحضرات. أسلمت ولما يدخل الإيمان في قلبها ففي القلب من قسوة الصخر ودخان الآثام الماضية. لما يدخل الإيمان. ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.[2]

قَلّ مَا نفقه عن الله عز وجل وهو يضرب لنا الأمثال ويُجسم لنا المعاني ليقربها إلى أفهامنا. علامة حزب الله التي قرأناها في آخر آية من سورة المجادلة هي أنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله. هي مُقاطعة لأعداء الدين ظاهرة يمكن رصدها وتتبعها. والعلامة الثانية قلبية باطنية، هي الموصوفة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ

(1) سورة الحجرات، 14.
(2) سورة الحجرات، 14.

﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾.[3] الكَتْبُ في اللغة معناه ضم طرفيْ جِلد بالخياطة. هل هناك أبلغ من هذا التعبير لتفهيم أن الإيمان نور يقذفه الله في القلوب فتنضم عليه؟

اقرئي يا من تصفحتِ عَجْلى فقرات سابقة تحدثنا فيها عن الكيْف الذي جعله الله سنة لتلاقح القلوب وتقابسها أنوار الإيمان والإحسان.

إذا تنور القلب بأنوار الإيمان انسحبت منه الظلمة، وانفتح السمع ليتلقى آداب الإيمان. نعرف أنكِ على هدى وصلاح وعلم وتقوى بما يظهر منك من تلك الآداب، لا بالدعوى وفصاحة اللسان وسماكة الجورب والعُجْبِ وحب الرئاسة.

خاطب الله عز وجل المؤمنين والمؤمنات في سورة الحجرات يعلمهم الآداب العامة بين المؤمنين والمسلمين. علمهم أولا أن لا يُقدموا بين يدي الله ورسوله، أي أن لا يشترعوا من الدين ما لم يأذنْ به الله ورسوله، وعلمهم أن يتقوا الله، وأن يغضوا أصواتهم عند النبي توقيرا وتعظيما. وأن يُراعوا حُرمته وحرمة بيته، لأن من الأعراب الجفاة الغلاظ من كان يناديه من وراء الحجرات. اخرج إلينا يا محمد!

آداب مع الله ورسوله هي القاعدة والأساس. وعن هذه القاعدة تتفرع الآداب بين المؤمنين والمسلمين فصلتها السورة تفصيلا، وكملها التعليم النبوي والتربية النبوية.

أمهات هذه الآداب في سورة الحجرات عشْرٌ:

1. أن لا نصدق فاسقاً أو فاسقة جاءتنا بنبإ حتى نتبين صحتَهُ، مخافة أن نؤذِي أحدا عن جهل وسوء ظن.
2. الاعتراف بمنة الله علينا إذْ حبب إلينا الإيمان، وكَرَّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان.
3. أن نصلح بين المؤمنين والمؤمنات في القتال والخصام. لا أن نوقد النيران.

(3) سورة المجادلة، 22.

4. أن نرعى حق الأخوة الإيمانية. وهذا إزالة يوجبها الإيمان للحواجز التي تمنع المؤمنات من التواصل والتحاب والتعاون على البر والتقوى عَبْرَ الخصوصيات التنظيمية وغضا للطرف عن الخلافات الجزئية.

5. أن لا يَسخر قوم من قوم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن عند الله.

6. أن لا يَلْمِزَ بعضنا بعضا. اللمز أن يطعن بعض الناس على بعض، وأن يغتابوهم وينقصوا من قدرهم. ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.(1) تهديد ووعيد. نعوذ بالله.

7. أن لا نتنابز بالألقاب، فيُسمي بعضنا بعضا بأسماء لا يحبها.

8. أن نتجنب كثيرا من الظن. فالمؤمنات الكاملات والمؤمنون يسبقون حسن الظن بالله وبعباده. مع الحذر. «لستُ بالخَب ولا الخَبّ يخدعني» كلمة لأمير المؤمنين عمر. وقال عمر رضي الله عنه. «لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرا وأنت تجد لها في الخير مَحْمَلا».

9. أن لا نتجسس. بل نستر المسلمين ونكتُم أسرارهم ما لم يكن ضرر ذلك فادحا على الغير.

10. أن لا يغتاب بعضنا بعضا.

هذه هي أمهات الآداب التي جعلها الله سبحانه مقدمة في سورة الحجرات ليخاطب بعدها الإنسان، من حيث هو إنسان، يدعوهُ لرفق الإسلام وظل الإسلام الذي يُؤوِي في تلطفه وتبشيره وتيسيره وآدابه النَّادّين عن الله الجاهلين برحمة الله. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.(2)

ترتيب آي القرآن حكمة يكتشفها من يتفكر ويتدبر. جاءت آية الدعوة لِتعارُف الناس وتفاضُلهم وتكارمهم بالتقوى بعد آيات الآداب العامة، وقبل الإخبار عن

(1) بداية سورة الهمزة.
(2) سورة الحجرات، 13.

حال الأعراب الذين قالوا آمنا، وهم إنما أسلموا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم. كأن ترتيب الآيات يشيرُ إلينا مِنْ طَرْفٍ لطيف لنستعِدّ بأجمل ما فينا من آداب نستقبل بها الوافد علينا من بني الإنسان. وكأن الترتيب يقول للوافد: لا تحكم على خير أمة أخرجت للناس بتصرف الجفاة من المسلمين إسلاما أعرابيا، بل تخلق بالآداب الإسلامية الرفيعة مع المؤمنين كاملي الإيمان.

كمّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الآداب العامة فعلّم أن «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنازة، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس». متفق عليه من حديث أبي هريرة. وفي حديث متفق عليه من طريق البراء بن عازب أن حق المسلم على المسلم سبعٌ: عيادة المريض، واتباع الجنازة، وتشميت العاطس، وإبْرار القَسم، ونصر المظلوم، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام.

وعلّم صلى الله عليه وسلم احترام المسلمين وصَوْن كرامتهم. بل جعل حُرمتَهم من حُرمة الله، وإجلالهم من إجلاله. قال عليه الصلاة والسلام: «**إن من إجلال الله إكرامَ ذي الشيبة المقسط، وحامِل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي فيه، وإكرامَ ذِي السلطان المقسط**». رواه الترمذي عن أبي موسى الأشعري بسند حسن. يعني الحديث توقير المسلمين وتعظيمهم لسابقتهم في الإسلام شابوا فيه، ولعلمهم، ولعدلهم.

وشدد صلى الله عليه وسلم النكير على من يُخل بكرامة المسلمين ويتخلى عن واجبه في إكرامهم وبِرّهم، فقال: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويأمرْ بالمعروف وينه عن المنكر**». رواه الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه بسند حسن.

وأمر صلى الله عليه وسلم أن لا نحُط مِن مكانة مسلم ومسلمة قولا أو فعلا، وأن نَفْسَحَ في المجلس للقادم، وأن نبتسم في وجه الناس، وأن نقول الكلمة الطيبة، وأن لا نحقِر من المعروف شيئا من خِدمة صغيرة نقدمها، أو شفاعة، أو قضاء حاجة.

كان هو صلى الله عليه وسلم يسلم على الصبيان والنساء كما يسلم على الرجال. ويسمي الناس بأحب أسمائهم إليهم، وهي الكُنية (أبو فلان أو أم فلان). مر يوما على صبي كان يلعب بطير يُسمى نَغْراً، ثم مر عليه فلم يجد معه النغر فسأله: يا أبا عمير، ما فعل النغَيْر؟

ملاطفة أين منها الحرب التي أعلنتها فلانة على الخالة والعمة يوم وضعت على شعرها رُقاقة من ثوب! قاطعت الأقارب ونفَرت، كأن المسلمين نجس لا يطهُر، وكأن العاصيات لربهن بكشف ما أمر بستره حقهن عليها في الإرشاد والتنبيه اللطيف والوعظ والتعهد الصابر المثابر غيّبَهُ وألغاه فهمُها الجافي العنيف لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. آداب هي وجه الإسلام. فانظري يا أخت كيف تحببين جماله وكماله للناس.

اللهم ارزقنا الفهم عنك والتأدب معك ومع خلقك.

الكمال الخُلُقي

أن تتخلقي بالأخلاق الطيبة مع قريباتكِ وصديقاتك في دَعَة وهناءة عيش، هذا تمرين هين، تجدين الباعث عليه والمساعد فيه في العُرف والمألوف والسلوك المقبول اجتماعيا.

أما أن تخرجي عن المألوف وتتعاملي مع الناس كافة بالهدوء واللين والتحمل الجميل دون أن يفتنوك ويستفزوك، فهنا تتأكد أخلاقيتك بأدلة الامتحان، أو تظهر زائفة قشرية على مِحَك التجربة.

إن حمل أمانة عظيمة مثل أمانة الدعوة وتبليغ كلمة الله عن رسول الله مهمة جليلة يلزمها من الحلم مثل ما يلزمها من العلم. حملها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيدا فريدا معه تأييد الله وتوفيقه. من تأييده له سبحانه وتهييئه له أن جعله على خلق عظيم أشاد بعظمته في كتابه العزيز، وشهدت بعظمته أمنا عائشة حيث قالت: «كان خُلُقَه القرآنُ»، وعاش المسلمون والناس أجمعون في كنَف هذا الكمال الخلقي.

من نقصت أخلاقا وسعةَ صدر وحِلما كانت في الدعوة كالجندي المبتور الأعضاء في ساحة القتال. مهما كان علمها فضيق خلُقها يحُطها عن درجة الأهلية. متدينة متبتلة عابدة قانتة صالحة في نفسها ضيقة بالناس، هذه لا تنتظري منها أن تتجند معك لتطبيب أمراض المجتمع، ونشر بشارة الإسلام، والصبر على مخالطة الناس وأذاهم.

رأس الخُلق الكامل امتلاك النفس، وقمعها تحت طائلة التقوى. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغضبُ إلا إذا انتهكت حُرُمات الله.

امتلاك النفس وحملها على الحق منزجرةً أبدا محكومةً، هذا يعني القدرة على سياسة القوة الشهوانية، وكبح جماح القوة الغضبية بالشرع لتكوني أنت المتصرفة لا الهوى والنزوات ومِزاج الساعة.

تنْتقي المؤمنات لتعزيز صفهن أجود العناصر كما ينتقي رائد الجيش. لحمل السلاح ينبغي عضلات، ولياقة بدنية، ومهارات فكرية، وخضوع لتدريب. للدعوة ينبغي مؤمنات بالله ورسوله، مريدات لله وللدار الآخرة، عاملات على ذلك محتسبات. تكون مؤمنة مريدة لله وللدار الآخرة، لكن أهليتها للعمل تقصُر عن مجال الدعوة لثغرة في الخُلُق.

ترد على المؤمنات بَدَنيات تسوقهن الشهوة، وسَبُعيّات يغلبهن الغضب، ورخَوِيات مريضات، ومِزاجيات حادات تقفز بهن نزوة الساعة. أصناف من النساء تصلح التوبة منهن ما تصلح، ويُصلح الإسلام، وتصلح العبادة، وتصلح مجالسة الخَيّرات. لكن التحزب لله، وتعزيز صف العاملات في الدعوة، يُريد صلاحا متكاملا. يريد دينا وخلقا، علما وحلما.

في النساء، والرجال أيضا، طبائع، وتَطبّعات. جئن من وسط اجتماعي ما، معهن تصورات ومعايير لما هو الخير والشر، ولما هو الفسق والإيمان، ولما هو الدين، ولما هو الحلال والحرام، إلى آخر ما يصلحه التعليم ويقوِّمُ فهمه الاطلاع والدرس. لكن معايير الذوق، واللياقة، والأدب، والنظافة، والكلمة الجارحة، واللحظة المناسبة، ودقائق السلوك الاجتماعي ورقائقه، هذا لاَ يفيد فيه التعليم والاطلاع والدرس إذا كان أصل الطبع شحيحا. لا يُفيد إلا كما يفيد الزرع في أرض صخرية جافة.

لا نيأس من تخليق الوافدة بالأخلاق الكريمة، بل نحاول ونحاول، إذ ربما كان التكبر والجفاء والقسوة آثاراً قِشرية للتربية أو عدمها، وللبلاء الماضي. ربما يكونُ تحت القشر الجاف لُب كريم. فإذا تبيّنا أن العنصر البشري خشب يابس، رمل عقيم، مسغبة خلقية، مَتْرَبَةٌ في الآداب والذوق، خشونة في أصل الطبع، كففنا عن تضييع جهودنا وارتَدْنا منبتا صالحا.

بالخلق الكريم أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وأحبابه. قال عالم الصحابة معاذ بن جبل رضي الله عنه: «كان آخر ما أوصاني به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وضعت رِجلي في الغرز أنْ قال: «**يا معاذ! أحسن خُلُقكَ للناس**». رواه الإمام مالك في الموطإ. وقال صلى الله عليه وسلم: «**بُعثت**

لأتمم حسن الأخلاق». حديث صحيح في الموطإ عن مالك بن أنس رضي الله عنه. وروت أمنا عائشة رضي الله عنها عنه صلى الله عليه وسلم قال: «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**». رواه أبو داود بسند صحيح. وروى الترمذي عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنُهم خلُقا وألطفُهم بأهله**».

وبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم الكاملين والكاملات في الأخلاق فقال: «**إن من أحَبكم إليَّ وأقرَبكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسِنكم أخلاقا. وإن أبغضكم إلي وأبعدَكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون**». قالوا: يا رسول الله! قد علمنا الثرثارون والمتشدقون. فما المتفيقهون؟ قال: «**المتكبرون**». رواه الترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه بسند حسن.

هذه هي الوصايا المباركة. وننزل إلى أرض الابتلاء والاختبار ليعلم الله تعالى مدَى صِدْق ما ندّعيه لأنفسنا من جهاد. قال تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**﴾.[1] هو سبحانه يعلم، لكن قدَره يظهر على أيدينا في أرض الواقع. إما أن نصبر ونواظب ونتحمل الناس وأذاهم فيكون جهادنا حقا، وإما أن يخوننا الصبر وتُعوِزَنا الأخلاق والمخالقة فتكون دعوانا اسما على غير مُسمى. من الآية نأخذ أن الصبر والجهاد متلازمان. ومن معنى الصبر نأخذ أنه امتلاك النفس. وامتلاك النفس وحملها على مكاره الشهوة والهوى، ومحاب الله ورسوله، رأس الأخلاق. وكمال الأخلاق كمال في الدين.

سنة الله تعالى أن يمتحن المؤمنين والمؤمنات، قال جل وعلا: ﴿**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾.[2]

(1) سورة محمد، 32.
(2) سورة آل عمران، 186.

ونقرأ من الآية التاسعة من سورة إبراهيم كيف آذى الأقوام رسلهم، وكيف قالت لهم رسلهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.[1]

ونقرأ كيف يربط الله على قلب رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بضرب الأمثال وقص تاريخ الرسل عليهم السلام. ويقول له: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾.[2]

أذى وصبر نقرأهما في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم. وتَوكّل على الله لا بد منه، ونصر من عنده سبحانه يأتي مع التوكل. والتوكل، ما هو التواكل.

نطرح هنا مسألة جوهرية في الحركة الإسلامية والاستراتيجية الإسلامية. نطرحها باقتضاب، ثم نمضي إلى ما يخص المؤمنات من صبر على مخالطة الناس ومخالقتهم.

نالَ المؤمنات في الحركة الإسلامية على يد عبد الناصر، وعلى يد حافظ الأسد، وعلى يد بورقيبة وخليفته بن علي، حظا مما نال المؤمنين من الأذى. هذا الأذى المسلَّط على المؤمنين والمؤمنات هلْ هو من سنة الله وكلمته التي لا تتبدل في الدعاة من رسل ومبلغين؟ هل هو سنة نزلت قَدَرا مقدورا فوق ما يفقهه المؤمنون والمؤمنات، أم هي أخطاء من عند أنفسنا نزل عليها القدَر المقدور والسنة الإلهية تمحيصاً وعقابا وتأديباً وتعليما لكيلا تتكرر منا الأخطاء؟ سؤال طويل عريض، ما تكفي الصفحات من كتاب للجواب عنه، ولا هو من البساطة ووحدة الظروف بحيث يجاب عنه جوابا موحدا.

جاء أعرابي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وله ناقة بالباب، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل يطلق ناقته ويتوكل، فقال له المعلم الكامل:

(1) سورة إبراهيم، 15.
(2) سورة الأنعام، 35.

«**اعقلها وتوكل**». عقل الناقة عبارة عن اتخاذ الأسباب، وتدبير المسيرة، وإتقان خدعة الحرب إذْ الحرب خدعة كما قال نبينا.

في كتاب الأدب من صحيح البُخاري كلمة لسيدنا عبد الله بن مسعود تقول: «خالط الناس، ودينَك لا تَكْلِمَنَّهُ». الدين يصيبه جُرح إن أنتِ خالطت الوافداتِ بالنية الغِرّة الكريمة لا تعلمين أن المؤمنة مع طيبوبتها يلزمها الحذر لكيلا تُلدغ من جحر مرتين. يلزمها التعلم من التجربة وتصنيف المتقربات من الدعوة الراغبات في المشاركة تصنيفا خاصا غير التصنيف العام للمسلمات والمسلمين الذين يَسَعُهم حسن الظن، والستر، والبر، والخلق الحسن المحسن، والكلمة المُحبة.

ويصيب الدينَ كَلْمٌ وجرح إن فهم المؤمنون المخططون للحركة الإسلامية التوكل، وسنة البلاء، وفضيلة الصبر، ومبدأ الأذى فهما منفصلا عن مسؤولية أنفسنا، وأخطاء أنفسنا.

فاتَ الذين هربوا بدينهم بعيدا عن معارك الجهاد خيرية من دخل المعركة. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**». أخرجه الترمذي وابن ماجة والإمام أحمد.

لا تخطئ من هربت بدينها، وشَلَّها الجبن، وأغلق عليها باب سجنها الجهلُ بأفضلية الدخول في المعارك الجهادية.

ومن دفعه حب الدرجات عند الله إلى ارتكاب أخطاء أردته شهيدا فأجره على الله، فإنما الأعْمال بالنيات. ويغفر الله إن شاء ما يصيب الدينَ من كَلْم. فصوابنا وخطأنا وجهان لقدره. سبحانه لا إله إلا هو. نرجع للتوحيد والرضَى.

أما الواجب على المؤمنين والمؤمنات فهو الصبر على الشدائد بعد استنفادنا وجوه الاجتهاد، والخُدعة، والسياسة، ومصانعَة الواقع، واحترام سنة التدرج. وبعد استفتاح أبواب رحمة الله، واستمطار نصر الله، ومدد الله.

بعد استنفاد الاجتهاد والملاينة والمخالقة والأدب، تخون المؤمنة دينها إن نزلت بمجاملة الوافدة على الدعوة إلى التَّرَخُّصِ المبدئي. ويخون دينَه المؤمن إن لم يصبر على الشدائد تنزل عليه قدرا بعد اجتهاد.

عن خبّاب بن الأرتِّ رضي الله عنه، وكان من الصحابة المستضعَفين بمكة، قال: «شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو متوسِّدٌ بُردةً له في ظل الكعبة. فقلنا: ألاَ تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال: «**كان مَنْ قَبْلَكم يؤخذُ الرجل، فيُحفَرُ له في الأرض، فيجعل فيها. ثم يُوتَى بالمنشار، فيوضَع على رأسه، فيُجعل نصفين** (يُقطع الرجل نصفين). **ويُمَشَّطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه. ما يصده ذلك عن دينه. والله ليُتمّنّ الله هذا الأمر حتى يسيرَ الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه. ولكنكم تستعجلون**». رواه البخاري وأبو داود والنسائي.

ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين.

الإحسان إلى الخلق

دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلا هي أطعمتها وسقتها، ولا هي سرّحتها لتأكل من خشاش الأرض. ودخل رجل الجنة في كلب عطشان سقاه بفلاةٍ فأنقذه من الموت.

هاتان القصتان نقرأهما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونمر. كلا! بل فيهما توجيه لتَعُم رحمتُنا وإحساننا الخلق أجمعين، لا نحقر من المعروف والإحسان شيئا. فالنفس التي تشفق على حيوان ملهوف في الصحراء نفس رحيمة، يشكر الله صنيعها فيجزيها الجنة. والنفس الشريرة التي تمارس عدوانها على الحيوان الضعيف مثل الهرة نفس جهنمية. نعوذ بالله.

هذا جزاء الله عز وجل ثواباً وعقابا للمحسن والمسيء في حق الحيوانات العجماء، فكيف ثوابه وجزاؤه، وعذابه وعقابه، للمحسن إلى الناس والمسيء؟

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه ويلم قال: «**إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم! مرضتُ فلم تَعُدني! قال: يا رب! كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم! استطعمتك فلم تطعمني! قال: يا رب! وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أَطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم! استسقيتك فلم تسقني! قال: يا رب! كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال استسْقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي؟**».

هل هنالك أبلغُ من هذا البيان للدلالة على الأهمية القُصوى لإسداء الخير إلى الناس، وعلوّ مرتبة الإحسان إلى الخلق عند الله؟ وهل ترك لنا القرآن الكريم مطلبا من مطالب البِرِّ إلا بينه في قوله عز وجل: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ

الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾؟[1]

أرأيتِ أختَ الإيمان كيف ذكرت أعمال البر مباشرة بعد الإيمان القلبي بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين، وقبل الصلاة والزكاة؟ من صلت صلاتها وزكت فرضها فهي مؤدية لواجب عيني تحاسب عليه. أما من تبرعت بمالها وحنان قلبها على المحتاج من قريب ومسكين وسائل فقد أسْهمت في القيام بفرض كِفائيٍّ متعلق بذمّة الأمة، فارتفعت بذلك مرتبة عملها إلى أعلى. المصلية المزكية فرضَها ما عدَت أنْ بنَتْ أركان بيت إسلامها. أما المحسنة إلى الخلق المجاهدة بمالها وحنانها فهي تبني في صرح دين الأمة. بذلك كان لها الفضل.

غرسة المرحمة في قلب المؤمنة يُعرف تغصينها وإزْهارها وإثمارها مما تشيعه حولها، الأقربَ فالأقرب، من أنواع البِر والإحسان والألطاف والأَرفَاقِ. ما بينها وبين ربها عز وجل لا سبيل إلى الاطلاع عليه، ونعرف المرحمة بآثارها. تصلح في الأرض حين يفسد فيها المفسدون. تبذر بذور الحب والرحمة في مجتمع الكراهية. تَتَفَرَّغُ لسماع شكوى المعاني. تنصَح المتخبطات في المشاكل وتشفع النصيحة بالبذل والعطاء والسعي لدَى من بيدهم مفاتِح المشاكل. تحوط برعايتها وعنايتها المنبوذات والمحرومات والملفوظين من أطفال البؤس.

تشكر ربها على نعمه أن هداها للإيمان، فتتفجر ينابيع الخير في قلبها، تترجم الشكر والخير عطاء من مالها وحنانها ووقتها واهتمامها ووقوفها بجانب اليتيم، والمسكين، والمقهور، والأسرة المكسرة أو المهددة بكسر، تصلح ذات البين، وتأسو الجراح، وتحتضن النّوائب، وتَجْمع مع أخواتها العون المادي والعاطفي

(1) سورة البقرة، 176.

لرَأب الصَّدْع في البيوت، والتخفيف مما في البيوت من مآس وما في الشوارع من حُطام بشري.

أمومة حانية لمن جفتهن الأمهات، صدور محبة لمن يستغثن، ذمة موثوقة لمن لدغتهن أفاعي مجتمع الظلم والكراهية. أي مَعْدِنٍ هو معدِنُكِ يا أخت الإيمان؟ أنانية وشُح أنت أم عين تفيض بِرّاً؟ ما قدرك عند الله مولاك؟ انظري ما قدر مريض عندكِ عُدْته في الله، واشتريت علب الدواء بعد أن أحضرت الطبيب. انظري ما قدر جائعات وجائعين أطعمتهم في الله. وراقبي نفسك ليكون كل ذلكِ في الله ولله، لا يدخلْ نفسكِ رياء فيبطلَ عملك.

تصلحين في الأرض يا أخت الإيمان اقترابا من ربكِ عز وجل وتقديما لآخرتك، وحُسْنَ صحبة للشعب، وتأليفا للقلوب على الدين، وتهييئا لإقامة دولة الإسلام، دولة العدل الذي يعيد إلى نصاب الاستقامة ما اعوج من شؤون الناس. ثم هي مسيرة لا تقف بك وبأجيال المؤمنات من بعدِكِ. لا يَأسو عدل الدولة الجراح الشخصية، ولا للدولة قلب متفرغ للحالات الخاصة، ولا تملأ القسمة العادلة مهما بلغ تحريها فجواتٍ اجتماعية، وفراغاتٍ طارئة، ومصائبَ نازلةٍ عينيّةٍ مكانية زمانية ضحيتُها فلانة وآل فلانة من الناس.

تصلحين في الأرض أخت الإيمان قبل الحكم الإسلامي وبعده. أيُّ قَبْلٍ وأيُّ بعدٍ أحوج إلى مساهمتك مع أخواتِك؟

نحن الآن في «قبلٍ» ملَبَّدٍ بغيوم البلاء. المفسدون في الأرض يغتصبون بنات الإسلام في البوسنة، ويذبحون الأبناء. يفعل ذلك الارثوذكس الصرب، ويفعل مثله في أشنع منه منذ سنوات المشركون الهنود في الكاشمير وغير الكاشمير، ويفعل أبشع من كل ذلك بنو جلدتنا من حكام الجزائر ومصر وتونس وسوريا والعراق، وغيرها من الآفاق. نساء يزنى بهن أمام أزواجهن، ومؤمنون مجاهدون تبتر أعضاؤهم. ويد الكافر المحلي الذي يهجم بعساكره على المساجد يقتل فيها المصلين مبسوطة بالوُدِّ والتآمُر للكافر الخارجي. وفلسطين ما فلسطين.

أجّجوا فتنة العنف على الإسلاميين وسَمَّوْا ذلك أمنا. فلما دافع المؤمنون عن أنفسهم قامت الضجة العالمية الكافرة تندد بالإرهاب، وتخطط لخنق الحركة الإسلامية، ويُمد بعض الكافرين بعضا بالعون الاقتصادي والسلاحي لتستمر دَولة الفسوق والعصيان والظلم قائمة موالية لأعداء الإسلام.

إحسانكِ إلى الخلق تأسيس «للبَعد» المرغوب، ومساهمة في إبطال هذا «القَبل» المكذوب المشبوب. والخلافة الثانية المَوعد. والله عز وجل المُوعد.

أما بعد، فإن المجتمع الإسلامي المثالي هو الذي تسوده بواعث ﴿أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾.[1] قطبُ الشدة على أعداء الدين مغناطيسية معطلة بدون قطب الرحمة. أنتِ يا أختَ الإيمان قطب الرحمة إن كان لبأس الرجال مجال. ثم تزاحمينهم هناك كما زاحمت أم عمارة بضرباتها في أحُد أبطال الإسلام.

وذلك المجتمع لا يرتجل، ولا تمطره السماء بمجرد إعلان الحكم الإسلامي. إنما يُبنَى لَبِنَةً لَبِنَةً، ويتألف عضوا عُضوا، وينشَأ جيلا أفضل من جيل. وإلى المؤمنات وَكَلَ رب الخلق سبحانه تربية الأجيال. فأحسنت محسنة إلى نفسها، وبنَتْ آخرتها، وخطت خطواتِ قرب من ربها بإحسان ما وُكِل إليها. ما بناء المجتمع الإسلامي خطبة قولية يكذِب بها الناس على نفوسهم وعلى الناس، بل هي خطوة عملية إثر خطوات. خطوات على أرض الحياة لا في خيال المُنى.

تعجّبَ ربنا جل وعلا من صنيع الأنصارية التي أطعمت ضيْف الدعوة، ضيْفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عَشاء أطفالها، واحتالت ليشبع، وتلطفت ليهدَأ بالُه. كذلك قبل الحكم الإسلامي وبعده يلزَمُ المؤمنات أن يوسعن بيوتهن لاستضافة المؤمنين والمؤمنات. تنظر المؤمنة هل ترتيب فراشها وأناقة أثاثها أحب إليها أمْ أن يكون بيتها معقلا من معاقل الإسلام، ومهدا لإنشاء أخوة، وجنّةً من جنان ذكر الله، ومدرسة يتعلم فيها المؤمنون والمؤمنات دينهم، وموعداً لمجالس «تعالي نؤمن ساعة»؟

(1) سورة الفتح، 29.

قِرَى الضيف عابر السبيل فرض، وليلته حق على كل مسلم. فإن كان الضيف ضيف دعوة فقِراه آكد، وحقه أوجب على من تَفْقَهُ في دينها.

هؤلاء التائبون والتائبات منهم غرباءُ في بيوت الآباء والأمهات. الآباء والأمهات على إسلامهم الموروث المهادِن المسالم النائم. فلا تعرف الأمهات والآباء ما تفعله البنات والأبناء من التعرض لنقمة الحاكمين. يجد الغرباء عندكِ ملجأً وموعدا ومدرسة، ويجدون في بيتك الوصية الإلهية بالوالدين، مهما كان موقف الوالدين ما دونَ دعوتهما الذريةَ للشرك بالله. ما وصى الله الإنسان ببر أسبق من بر الوالدين، ولا طاعة أحب إليه من طاعتهما في المعروف، ولا إحسانا أَمَسَّ بذمة الإنسان من الإحسان إليهما. والبِر حسن الخلق كما جاء في الحديث، فالمؤمنات ينتظر منهن أن يدبِّرْن باللطف واللباقة والذوق حسن العلاقة بين الوالدين والمولودين بما يُصلح الدعوة دون أن يفسد ما أمر الله به من البر، ودون أن يُقطع من صلات الرحِم والقرابة ما أمر الله به أن يوصل.

نقرأ ما جاء من ترغيب في النفقة في سبيل الله، والجهاد بالمال قبل النفس في سبيل الله. في سبيل الله إعانة الأفراد من بني الإنسان، وحتى من ذرية الحيوان. إطعام مبرور، وضيافة واجبة، وقِرىً مفروض، وزكاة للبائس والمحروم. كل ذلك بر وصدقة ونفقة. ويتحول كل ذلك جهادا ترتقي به المؤمنة إلى ذروة سنام الدين إن وُظفت الأموال، ورُصدت النفقة، ودبِّرت المبرات، ونظِّمت الإسعافات بفعالية العمل الجماعي، وفي مَدِّ الدعوة ونصر مسيرتها.

عبادة تُقَرِّب إلى الله من طريق المعاملة معه سبحانه في خلقه. معبَّدَة هي الطريق ممهدة من إغاثة النفس المؤمنة إلى حضرة قدس الجماعة الذاكرة المجاهدة، تغشى الرحمة، وتنزل الملائكة.

روى الأئمة مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من نَفَّس عن مؤمن كُربة من كُرَب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كُرَب يوم القيامة. ومن يسر على مُعسر يَسَّر الله عليه في الدنيا**

والآخرة. ومن ستَر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله تعالى، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن بَطَّأَ به عمله لم يُسرع به نسبه».

تُصدقين، وترين الرحمة والسكينة بعين قلبكِ وتعملين. وإذا أنت من المحسنات.

الكمال العلمي

صحبنا العلم القرآني النبوي من أول هذا الكتاب منذ قرأنا في كتاب الله تعالى صفات عباد الرحمن الذين يدعون ربهم ليهب لهم من أزواجهم وذرياتهم قرة أعين وليجعلهم للمتقين إماما. فسر المفسرون إمامة المتقين بأنها إنجاب أجيال مؤمنة صالحة.

قُرَّةَ أعين يكون الزوج لزوجه، وإمامةً للمتقين يرتدي جلباب كرامتها الزوجان، إن كانت الأم مدرسة صالحة. الأم مدرسة. الأم مدرسة. الأم منبع. الأم الجاهلة سُخْنة عين وإمامة ضياع، وامتداد لبؤس الأمة. نرجع إن شاء الله لوظيفة الأمهات وسائر المؤمنات التعليمية التربوية في الفصل التاسع من هذا الكتاب. هناك بحول الله نستعرض الكفاءات الإيمانية الخلقية العلمية الضرورية لتكون الأم إماما للمتقين وصانعة لأجيال حية فاعلة.

في هذه الفقرة، ونحن نودع فصل طلب الكمالات، ننظر في البِنية العقلية النفسية للمؤمنة المتعلمة طالبة العلم من المهد إلى اللحد. العلم وطلبه واستكماله هو نور العقل الذي به تكون المؤمنة متحركة بين ساكنين، متوهجة بين باهِتين، مشمرة بين مترهلين، حية بين أموات. إن لم تكن تأسست بِنْيَتُها النفسية العقلية منذ صباها وطفولتها على قاعدة طلب العلم من المهد إلى اللحد، فمن كمال توبتها أن تنزع عن نفسها رذيلة الجهل، وعطالة الجهل، وأن تتحلى وتتجمل بالمعارف الشريفة.

ما هي المعارف الشريفة القمينة أن تُقبل عليها المؤمنة إقبالَ النَّهِم على المورد العذب؟ العلوم في عصرنا بحر زخار، كتب وكتب، مجلات وجرائد، تلفزيون يبسط المعارف ويوضحها بالألوان والصور والرسم البياني والإخراج. في عصرنا علوم منها المُشَرَّف المحتكَر المحتفظ بأسراره في بلاد المتعلمين من يابان وألمانيين. ومنها الدارج المتجرجر التابع التلميذ في جامعاتنا ومدارسنا.

ما مكان هذه المعارف الكونية المحتكرة هناك المُشرفة، الغائبة هنا الغريبة، من اهتمام المؤمنات والمؤمنين؟ هي معارف ضرورية لا مسكن للأمة على وجه الأرض ولا مستقبل لها إن لم تجاهد الأمة -وفيها عبْقريات المؤمنات- لاكتسابها وترويضها والتسلح بها. عريانة أمة ليس لها قدم تزاحم الأقدام في هذه المَوَاطن، جوعانة، عَزْلاءُ، نكِرةٌ، بلهاء، غثاء.

بعد أن يستقِرَّ هذا في ذهننا، فالعلم علمان: علم بالله، وبغيب الله، وبرسل الله، وبكتب الله، وملائكة الله، وقدر الله، ومصير الإنسان في الدار الآخرة إلى الله. وعلم آخر عن كون الله، وخلق الله، وما أودعه الله في أرضه وسمائه من أسرار، وما رتب سبحانه من أسباب، وما سخر سبحانه للإنسان تسخيرا طبيعيا، وما جعل لتسخيره أسبابا على الإنسان أن يُرادف التجارب، ويجمع المعارف، ويَخترع المناهج، ويصطنع الآلات لتوفيرها.

علم بالله وبغيب الله مصدره الوحي لا مصدر له غيرُه. وآلة تلقيه القلب المؤمن ينير العقل الراجع من تأملاته كليلا يتتلمذ على الوحي. وعلم بكون الله آلته العقل المُشاع بين بني الإنسان مؤمنهم وكافرهم.

تَنفَع الأمةَ في الدنيا علومُ الكون لأنها قوة، وجهاد المؤمنات لاكتساب هذه العلوم مساهمة في الجهاد. لكن السعيَ باطِلٌ ضالٌّ إن انقطعتْ منقطعة عن الوحي، وكانت قِسمتها من العلم الشريف حقا، ومن الإيمان بالله واليوم الآخر، صفرا. مهما كان تحصيلها من علوم الكون ومهارات الدنيا، وصناعات التقنية، كبيرة، فنفع ذلك لها في الدنيا إن ترقت في السلم الاجتماعي وكسبت مالا وشهرة لا يزن عند الله شيئا.

تنهل المؤمنات من علم الآخرة في جلساتهن، ويشجع بعضهن بعضا على اقتناء الكتب، ومعاشرة الكتاب. فإن هذه الثقافة الإسلامية العامة التي تنشر في المجلات الإسلامية إن كانت مهمة في تنوير عامة المسلمات والمسلمين، لا تكفي لتفقيه المؤمنات بدينهن.

وليكن علم المؤمنات علم خطوة لا علم خطبة. عِلما يشرق في القلوب إيمانا وتصديقا، وفي العقول تدبيرا وتطبيقا. علما جامعا لمصلحة جامعة: الأمة ممزقة الأوصال كيف نجمعها. الخلاف مفرق كيف نضع حق الخلاف في الفروع مكانه دون أن نُصلِت اللسان فيصلت الآخر الحُسام. مقالات المتكلمين الأُوَل لا نرفعها ألوية لنكفر ونبدع ونثير الخصام والقتال. تراث لا نحمله على ظهورنا أسفارا، بل نتبع كما اتبع من قبلنا، مجتهدين كما اجتهدوا، مستفيدين من صوابهم كما نستفيد من خطإهم. لا نصغِّرُ من قيمة اجتهاد من سبقونا ولا نضخمه، بل نضعه على سلم الخطإ والصواب حيث بلغ به الاجتهاد، وحيث أوقفه التقليد، وحيث ألجمته الضرورة.

علم خطوة لا علم خطبة. علم يقربنا إلى الله تعريفا بالطريق. يكون العلم خطوة إن تلا التعريفَ تصديق، وتلا التصديقَ عمل وجهاد. قال الله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.[1] وفي الحديث «العلم إمام العمل». أول خطوة أن نصحح المفاهيم ونطهرها مما علِق بها من الفهم المادي الدنيوي. ضلَلْنا وخسِرْنا إن اتبعنا الفهم المادي الدنيوي، أو سحبتْنا إلى التمثّل به ثم تَمثّلِه المحاولات التي تقارن وتحاور من مبدإ: القرآن سبق إلى هذا بأربعة عشر قرنا.

العلم، الحكمة، الفقه، العقل، الرشد، التفكّر، التدبر، النظر. هذه مفاهيم قرآنية نبوية نفرغها من محتواها الإيماني ولبها الإحساني إن نحن قرأناها على ضوء القاموس الفكري العام. هذه المفاهيم المفاتِح تحمل شحنات قلبية، ما منها كلمة إلا ومدلولها الإيمان، ودلالتها على الله، وعلى حكمة وجود الإنسان، وعلى مصيره إلى الجنة والسعادة الأبدية إن رشَد، أو النار والشقاء الأبدي إن غَوَى. تصير هذه الكلمات الشريفة حقا، القدسية مصدرا، قوقعات هوائية إن قرأناها بفكر ممسوح من الإيمان، وبآليات فكرية لسنية تصب علينا مساميرَها صبّاً الثقافة العالمية الأكاديمية الجاهلة بربها، المدججة بالأبحاث، الموَثّقةُ، المتخمة بإفرازاتها حوانيت الأدمغة المغربة.

(1) سورة الإسراء، 36.

هنالك مجال لجهاد المؤمنات يتعين عليهن المزاحمة فيه. ألا وهو مجال التعليم. مستكبرات بدبلوماتهن ومستكبرون ليست القومة لإذلال غَوايتهم بأقل أهمية من القومة السياسية لهدم صرح باطل الظلم وإقامة دولة الإسلام. في جامعاتنا مسارح للعراك الفكري ومداهمة الثقافة المادية الإلحادية في عقر دارها. جامعاتنا عُقْر دارها كما أن أجهزة الدولة عُقر دار الظالمين. على المؤمنات التي حباهن الله بالذهن الوقاد والصبر على التعلم وعلى متابعة التعلم من المهد إلى اللحد أن يتخصصن في أداء الفرض الكفائي في التعليم العام بما لا يتناقض مع فرضهن العيني في تربية بناتهن وأبنائهن في البيت.

مستكبرات ومستكبرون في الجامعات يُنادَوْن من مكان بعيد حين يخاطَبون بالإيمان والعلم الهادي للإيمان. من ينزل الجبارين من بروج الاستعلاء الثقافي إلا عقول آمنت بالله وباليوم الآخر فأوقفت جهودها للتصدي لهذه المعركة الحاسمة. النشء من بنات المسلمين وأبنائهم أثمن ما تملك الأمة، والقتال العلمي لكسبه من أولويات الجهاد. وللمؤمنات في هذه النازِلَة ثغرة لا يسدها غيرهن، وفقه ما له سِواهن.

مستكبرات ومستكبرون! روى البخاري في صحيحه في كتاب العلم أن أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب قال: «تفقهوا قبل أن تسودوا». ذلك أن التي عُرِفتْ بعلمها حتى لُقِّبَتْ دكتورة واعتلت منصة الأستاذية لا ترجع عن ضلالها الثقافي وغرورها بالمكدسات من المراجع في خزانتها، والمنشورات من مؤلفاتها إلا راغمةً مفحَمة. تقوم الحكومة الإسلامية فتعفي المرتدين عن دينهم والمرتدات، ومروجي البضاعة العلومية المغشوشة والمروجات. لكن الهزيمة الفكرية لطروحاتهن وطروحاتهم وحدها تقطع دابر الجاهلية الحاشِرَةِ أذرعها في مدارسنا وجامعاتنا.

قال الإمام مالك عن عيب القضاء: «إن القاضي إذا عُزِلَ لا يرجع إلى مجلسه الذي كان يتعلم فيه». قلت: يمنعه ذلك كبرياؤه، تمنعه رئاسة وسمعة اكتسبها،

وكرسي نفوذ اعتلاه، لا ينزل عنه. وقال الشافعي: «إذا تصدَّر الحَدَثُ فاته علم كثير». وفسر أبو عبيدة حديث عمر، قال: «معناه تفقهوا وأنتم صغار قبل أن تصيروا سادة فتمنعَكم الأَنَفَةُ عن الأخذ عمَّن هو دونكم، فتبْقوْا جهالا».

كبيرات كاملات كمالا وَهميا لما معهن من بضاعة لها قيمة في دار الأساتذة الغربيين. يُحاضرْن في السربون وبوسطون. ويخدمن المخابرات العدوة ما لم يخدمه الاستشراق. ويحطمن من دين النشء وأخلاقه ما لا تحطمه مساعداتهن الهوائيات المقعرات.

الكمال العلمي الحق هو: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين». رواه الترمذي عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. الكمال العلمي في طلب علم الوحي ليكون إماما وسيدا ومرشدا لعلوم الكون، وليكون السعي إلى تحصيله جهادا، ولتكون المشقة والصبر على امتلاكه وسيلة وطريقا إلى الجنة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة**». رواه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الكمال العلمي تعلم القرآن وتعليمه وتفريع كل علم سواه عنه من علوم الدين والدنيا. «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**». حديث نبوي رواه البخاري وأبو داود والترمذي عن مولانا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

خير وكمال حرَص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إنالة النساء المؤمنات حظهن منه. جئنه يوما فقلن: «غلَبَنا عليك الرجال! فاجعل لنا يوما من نفسك! فوعدهن يوما لَقِيهنَّ فيه فوعظهن وأمرهن». الحديث رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

يمنع شيطان الكِبْر ووسواس الخجل من طلب العلم وتلقيه. ثلاثة نفر حضروا مجلسا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتقدم أحدهم، وتأخر الآخر، وتردد

الثالث. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أما أحدهم فأوَى إلى الله عز وجل فآواه الله، وأما الآخر فاستحيى فاستحيى الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه**». أخرجه الشيخان والترمذي والموطأ عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

الفصل السابع

المؤمنة في بيتها وحجابها

- ... ليسكن إليها
- لا تخرجوهن من بيوتهن
- حضرة الحافظية
- «ولا تقربوا الزنى»
- شغل بلا عطلة
- هوَسُ الاختلاط
- روح المسجد
- الحجاب إذْنٌ ورمز
- آداب اللقاء
- خدمة البيت

... ليسكن إليها

قال الله تعالى يمن علينا إحدى نعمه العظمى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.[1] الزوج الرجل، والزوج المرأة. وكلمة «زوجة» لغة رديئة. وقال عز من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.[2]

منة عظمى وآية كبرى من مننه المشكورة وآياته المذكورة. سكون شطر هذه النفس الإنسانية إلى الشطر المكمل راحة واطمئنان وألفة واستئناس واستيطان، لولاه لكانت الحياة وحشة وغربة وقلقا. فالحمد لله رب العالمين، وله الحمد في الأولى والآخرة.

تضعنا الآيتان على قدَم العبودية لله عز وجل، لا نستغرق في منن الدنيا ناسين آيات الله الدالة على الإيمان، لا ننغمس في المعاش لاهين عن المعاد. من قرأتْ في منة سكون الزوج لزوجه مجرد متعة دنيوية منفصلة عن دلالة خلْق الله الذكر والأنثى فهي غافلة.

ذكر الله سبحانه آية خلقنا أزواجا نسكن إليها بمودة ورحمة من بين آيات أُخَرَ تُطْلِعنا إن كنا جاهلين، وتُذَكِّرنا إن نسينا أننا مُدْرَجون في سياق الحياة، مقهورون، مخلوقون، عبيدا وإماء لمَن له الحول والطول سبحانه. في الآيات من سورة الروم تسبيح العزيز العليم الذي يكوِّر بنا الليل والنهار، فنُمسي ونصبح لا نملك أن نتمرد على قانون دوران الشمس، ولا نستطيع الخروج من قيد الزمن. له الحمد سبحانه.

من آياته المذكورة تمهيداً لِذِكر المزاوجة والمساكنة أنه سبحانه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها. من

(1) سورة الأعراف، 189.

(2) سورة الروم، 20.

آياته أن خلقنا من تراب ونشرنا في الأرض بشرا كثيرا. ثم تجيء الآيات لقوم يتفكرون المتمثلة في خلق النفس زوجين بينهما مودة ورحمة. آيات هي، ليست آية واحدة. عُدّيها إن استطعت يا أخت الإسلام، إن أحصيْتِ، وإلا فاشكري نعمه، وآمني مع المؤمنين والمؤمنات بباهر آياته، منها ما كشف ومنها ما لم يكشِفْ.

آيات في المزاوجة والتساكن والمودة والرحمة. ما هي الذكورة؟ ما هي الأنوثة؟ أي إبداع وأي اختراع في الخلق! تُعمينا العادة فيَبطل فينا حس التعجب مما حولنا، ومما فينا، ومما هو من صميم كياننا الجسدي النفسي الوظيفي. تبارك الله أحسن الخالقين.

ثم تأتي بقية السياق من سورة الروم على آيات للعالمين في خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتنا وألواننا، وآيات لقوم يسمعون سماع القلب والإيمان في منامنا ويقظتنا وخضوعنا تحت قهر دورة الليل والنهار، وآيات لقوم يعقلون في ظواهر البرق ونزول المطر وحياة الأرض بعد موتها، وآيات في طاعة الأرض والسماء ومن فيهن لأمره سبحانه، وآيات في بَدْئه سبحانه للخلق من عدم ثم إعادتهم إلى الحياة الأبدية بعد الحياة الأولى.

أمر الله سبحانه المؤمنات والمؤمنين بحفظ فروجهم ليكون التساكن بين الزوجين اطمئنانا مبنيا على الثقة، ولتكون العفة فضيلة أساسية في خلق الرجل والمرأة ودعامة اجتماعية لدينهما. أثنى سبحانه على الحافظين فروجهم والحافظات في سياق متكامل أعز فيه سبحانه المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات. كل هذه المزايا القلبية جعلها سبحانه في سورة الأحزاب فَرْشا للثناء على الحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات الذين أعدّ لهم سبحانه مغفِرة وأجرا عظيما.

ما المودة والرحمة الجسديان العاطفيان بين الأزواج المؤمنين شأن منفصل عن الدين. الزواج والرحمة والمودة مُدْغمَة في الإيمان إدغام الجسد في الروح. أو هُو إدْغام الروح في الجسد؟

نهانا الله سبحانه عن تلويث ديننا بالقبيحة العظمى: الزنى. قال عز وجل: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾.[1] ومدح سبحانه مريم ابنة عمران التي أحْصنت فرجها فنفخ فيها سبحانه من روحه كما نفخ في آدم عليه وعليها السلام. المحصنات عِفَّةً قبلَ الزواج لهن من الطهارة نصيب مَرْيَمي. والمحصنات بعد الزواج العفيفات عن غير أزواجهن هن معين الطهارة في مجتمع اليوم، وصَبِيبُ السلامة والخلق وشرف النسب للأجيال اللاحقة.

وقد اعتبر الشرع من أعظم الخبائث أن يكدر مكدر ما بين الزوجين من صفاء، وأن يفْسد ما بينهما من صلاح. من يفعل ذلك لِص في الأعراض يستحق من مزيد الوِزْر ما بين شناعة التلصص على المال والمتاع وشناعة اللصوصية في الأنفس والعواطف والمودة والرحمة.

روى مسلم وغيره عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن إبليس يَضع عرشَه على الماء، ثم يبعث سراياه. فأدناهم منه منزلة أعظمُهم فتنة. يجيء أحدهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا. فيقول: ما صنعتَ شيئا! ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته! فَيُدنيه منه ويقول: نَعَمْ أنت! فيلتزمه**». يلتزمه: يعانقه.

وروى أبو داود والنسائي عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: «**ليس منا من خبَّبَ امرأة على زوجها، أو عبدا على سيده**».

زواجر قارعة للدفاع عن حصن الزوجية لكيلا يعدُوَ عليه عادٍ من خارج. ذلك له صلاح تكميلي ومنَعة. أما صلاحه من حيثُ المتانَة الإيمانية ومن حيث تمام الرحمة والمودة بالرضى المتبادل بين الزوجين عاطفة وجسما فمَردُّه إلى صلاح

(1) سورة الإسراء، 32.

النيات وإسعاد الغريزة. وذلك من فعل الزوجين ومسؤوليتهما. لا تُسمع الشكوى من خراب الحصن إن كان ساكناه لم يصونا ركائز بنائه من داخل.

معاول من داخل البناء تهدد الحصن. هي هَيجان الشهوة يخرب جدرانه، وفساد النية يَهدِم حُرمته. للإمام الغزالي في هذه النقطة كلام جميل يقول فيه: «اعلم أن هذه الشهوة (شهوة الفرج) هي أغلب الشهوات على الإنسان، وأعصاها عند الهيجان على العقل. إلا أن مقتضاها قبيح يُستحيَى منه، ويُخشى من اقتحامه. وامتناع الناس عن مقتضاها إما لعجز أو لخوف أو لحياء أو لمحَافظة على جسمه».

قلت: رحمك الله يا أبا حامد! لو عشت لترى كيف تطور العقل بمسلمته الدوابية حتى أصبح الهيجان فضيلة، واقتحام «المقتضى الشَّهَوي» حقا من حقوق الإنسان لا ينبغي لخوف ولا لحياء أن يعرقل حريته. أما المحافظة على الجسم، ومقاومة الوباء الذي سلطه الله على الفاسقين والفاسقات من معاصرينا، فلا تَنطِقْ ناطقة بهذه التقاليد البالية المتخلفة التي تسمى عفة. ما لِلْعفة وللفِروسات!

قال الإمام: «إن من ترك الزنى اندفع عنه إثمه بأي سبب كان تَرْكُه. وإنما الفضل والثواب الجزيل في تركه خوفا من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب، لاسيما عند صدق الشهوة. وهذه درجة الصديقين».

في حديث عند الشيخين قص رسول الله صلى الله عليه وسلم قصة ثلاثة نفر أَوَوْا إلى غار، فانحدرت عليهم صخرة أطبقت باب الغار عليهم. تشفع أول الثلاثة ببر والديه ففرج الله عليهم شيئا من الصخرة، واستشفع الثالث بأمانته على أموال الناس فانفرجت الصخرة بعد أن دعا الثاني قال: «اللهم كانت لي ابنة عم، كانت أحب الناس إلي. فأردْتها على نفسها، وامتنعت منّي. حتى أَلَمَّتْ بها سَنَةٌ من السنين (عام مجاعة) فجاءتني، فأعْطيْتها عشرين ومائة دينار على أن تُخَلِّيَ بيني وبين نفسها، ففعَلَتْ. حتى إذا قَدَرتُ عليها قالت: لاَ أحِلُّ لَكَ أن تفُضَّ الخاتَم إلا بحقه. فتحرجت من الوقوع عليها. فانْصَرَفْتُ عنها وهي أحب الناس إلي،

وتركتُ الذهب الذي أعطيتها. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه».

عفة تكاد تكون يوسفية صديقية. رفعتها النية وابتغاء وجه الله. لو كان المانع عجزا أو خوفا من الناس أو حفظا للصحة لكانت دابة عجزت عن دابة.

هذا مكان النية والباعث الإيماني في إصلاح العلاقة الزوجية إصلاحا يصونها في الدنيا عن الهلك والفتك ويدخر فضلها وثوابها لآخرة الزوجين العَفَّيْن. تحدث الغرباء في الدين الجاهلون فيه عن واقعية الإسلام في الشؤون الجسدية بين الزوجين، الواقعية مَفهوم محايد أرضي. نتحدث نحن عن فِقْه الإحصان والعفة وما أحل الله للزوجين من متاع جزاء معجلا لعفتهما، ومساعدا أساسيا لعفتهما.

قال العلامة ابن الحاج في كتابه «المدخل»: «وهو (أي الزوج) مخيَّر في فعل ذلك (أي الجماع) أولَ الليل أو آخره. لكن أولَ الليل أولى لأن وقت الغسل يبقى زمنه متسعا، بخلاف آخر الليل، فإنه قد يضيق عليه، وقد يؤول إلى تفويت الصبح في جماعة أو إلى إخراج الصلاة عن وقتها المختار».

قلت: في واقعية جسمية نحن غريزية أم في عبادة متكاملة؟ «**في بُضْعِ أحدكم صدقة**» قالها المصطفى المعلم صلى الله عليه وسلم.

قال ابن الحاج رحمه الله: «وينبَغي له إذا عزم على الجماع بأهله أن يتحرّز مما يفعله بعض العوام وهو منهي عنه. وهو أن يأتِي زوجته وهي على غفلة. بل حتى يلاعِبها ويمازِحَها بما هو مباح، مثل الجَسَّة والقُبلة وما شاكل ذلك. حتى إذا رأى أنها قد انبعثت لما هو يريد منها، وانشرحت لذلك، وأقبلت عليه، فحينئذ يأتيها».

قال: «وحكمة الشرع في ذلك بينة: وذلك أن المرأة تحب من الرجل ما يحب منها. فإذا أتاها على غفلة قد يقضي هو حاجته، وتبقى هي. فقد يشوش عليها ذلك. وقد لا يَنْصانُ دِينُها. فإذا فعل ذلك تيسر لها الأمر وانصان دينُها. ثم إذا أتاها

يمتثل السنة في ذلك وهي أن يقول ما جاء في الحديث: بسم الله. اللهم جنبنا الشيطانَ، وجنب الشيطانَ ما رزقتنا».

قال رحمه الله: «وينبغي له إذا قضى وَطَرَه أن لا يَعْجَلَ بالقيام، لأن ذلك مما يشوش عليها، بل يبقى هنيهة حتى يعلم أنها قد قضت حاجتها. والمقصود مراعاة أمرها، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوصي بهن ويحض على الإحسان إليهن. وهذا موضع لا يمكن الإحسان إليها من غيره».

قلت: من كمال فقه المؤمنة أن تقتني كتابا مما يضعه الأطباء والعلماء في الموضوع.

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

لا تُخرجوهن من بيوتهن

﴿وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ﴾.[1] الآية من سورة الطلاق نزلت في المطلقات وحقهن في السكنى والنفقة أثناء العدة. وفي السورة بعد هذه الآية آية أخرى فيها: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنّ﴾.[2]

أخذ الفقيه حكم الطلاق وما يجب للمطلقة من حقوق أثناء العدة. فسر إضافة البيوت إلى النساء بأنها إسكان لا إضافة تمليك، ثم نفض يده من القضية. وحكم القاضي للمطلقة بسكنى موقتة ونفقةٍ يقتِّرُها القانون تقتيرا. ونفض يده من القضية.

هذا وجه سافر من وجوه الفقه المنحبس الذي لم يعتبر في أخذ الأحكام إلا ما اعتبره الفقهاء الأقدمون وما حكم به القضاة الأولون، في زمن غير هذا الزمان، ومكان غير هذا المكان، وأحوال غير ما يَتقَلّب به الليل والنهار من أسواءٍ وأدواءٍ اجتماعية اقتصادية كلها تنزل على الزوجة المطلقة لتُلقِي بها في أسفل سُلَّم البؤس والتشرد.

الحاكم الإسلامي غدا القريب بحول الله سيواجه آلاما من أهمها سكنى المطلقات، وإيواء الأزواج والبنين والبنات. فماذا يجد الحاكم المسلم في كتاب الله وسنة رسوله مما يعطي الإضافة في «بيوتهن» مدلولا أعمَّ وأرفق بالمرأة من الحكم الشرعي المجرد الذي أعطى المطلقة حدا أدنى واجبا من السكنى الموقتة والنفقة اللازمة أثناء العدة؟ نستعمل كلمة «إسلامي» تارة، وكلمة «مسلم» أخرى في هذه الفترات الانتقالية التي اشتبه فيها «المسلم» اللاييكي الذي يحكم بغير ما أنزل الله، وتَشَبَّهَ.

(1) سورة الطلاق، 1.
(2) سورة الطلاق، 6.

في الفقرة السابقة تحدثنا عن البيت المسلم كيف تُشَيّد أركان بنائه الإنساني العاطفي، وكيف يتساكن الزوجان في كنف المحبة والمودة والرحمة. وذكرنا شروط السكون القلبية الإيمانية، وشروط المعاشرة والملابسة، وذكرنا شروط تحصين بيت الزوجية من مقتحمات العدوان الخارجي ومُفسدات النفوس ونزغات الشيطان.

كل ذلك لا يقِرُّ له قَرار، ولا يتصور له وجود واستمرار، إن لم تكن الماديات معتبرة «حَق» اعتبار. الماديات أساسا سقف وجدران. البيت الإسلامي المنشود ما هو قصيدة شعرية متمايِسة بجمال تأليفها في سماء الأحلام. البيت السّكني هو الأرض التي لا مَنْبِت للبيت السكون إلا فيها.

هل السكون والمودة والرحمة بين الأزواج مقصد شرعي؟ هل هي منة من الله عز وجل على عباده تكمل في فضاء مجرد أثيري؟ هل هي وعدٌ مُرْجَأ إلى جنة الآخرة، أم هي مطلب في الدنيا المكتظة بدواعي ظلم الضعيف، وأثقال المعاش وضروراته؟

هل المشردة التي لامأوى لها ولا أمان على غدها تجد متسعا لتتأمل في آيات الله فيكمُلَ إيمانها؟ هل المشردة التي لا مأوى لها تُربِّي نشأ صالحـًا أو قِطَطـًا مشردة مثلها؟

نطعم المؤمنات مثاليات ووعظيات إن رسمنا أفُق المطلوب المقصود في روح القرآن وكلمة الإسلام للمرأة دون أن نرسم خريطة المسافات بين وضعية النساء في مجتمع الفتنة والتخلف والفقر والتظالم والكراهية وبين وضعية يكون فيها عنصر الاستِقْرار في البيت المسلم -وهي الزوج الأم- متمتعا بوسائل الاستقرار المادي وفي مقدمتها السكنى.

ضمن الإضافة في «بيوتهن» يَكْمُن حق المرأة في الأمن السَّكني. وضمن حكم توقيت السكنى والنفقة للمعتدة يكمن أمن النساء في المجتمع المسلم السّوِيِّ. ذلك أن الإسلامَ أقَرَّ مروءة التضامن والتكافل بين الأقارب، وألح في

ذلك إلحاحا، وأوصى به إيصاء في مثل قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُواْ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾.[1] فالمرأة في المجتمع الإسلامي السوي مكفولة بحقوق على الأب والزوج والأخ، ثم سائر ذوي القربى.

وفصل الله سبحانه في كتابه المبين أمن السكنى والمأوى والملجأ في سورة النور المتضمنة لكثير من أحكام البيت وآدابه. قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.[2]

سياق متكامل تقرأ فيه آيات الله وما أوجب من حق وأمر به من بر. نفهم ديننا نُتفا ممزقة إن غفلنا عن المقاصد العليا للشريعة وأخذنا الأحكام منفصلة بعضها من بعض، مستقلة كأنها جزُرٌ منعزلة لا وصل بينها.

لا مجال لمراجعة حكم الله النهائي في حق المطلقات وسكناهن ونفقتهن، إنما المراجعة في مُلاءمة واقعنا الكلي لأمر الله الكلي. حينئذ تأخذ الأحكام المفردَةُ مكانها وأهميتها ونسبيتها في دعم المقاصد الكلية. انتقضت عرا التضامن بين البنات والخالات والعمات منذ القرون الفاضلة التي كانت المسلمة تغشى بلا حرج، وتأكل بلا حرج، وتلجأ بلا حرج إلى تلك البيوت القرآنية التي كررها الله سبحانه تسع مرات في سورة النور، وأردفها بإمكانية الأكل من عند ما نملك مفاتحه، ومن عند الصديق.

إمكانيات وضمانات انعدمت واندثر كثير منها إلا بقايا في المجتمعات الريفية البدوية القريبة، لا تزال، من الفطرة.

كيف يُعَوّض الحاكم المسلم غدا، الراعي لمقاصد شريعة الله، ما انحل من روابط بين البنات والخالات والعمات؟

(1) سورة النساء، 36.

(2) سورة النور، 59.

إن المثَال الرائع الذي يُخَيَّل إلى بعض الإسلاميين أنه البديل القريب ليس إلا مثالا، نصل إلى تحقيقه إن شاء الله يوما، لكنه ليس البديل الجاهز ولا القريب. هذا المثال يتصور أن للمسلمة الحق في تقاضي راتب يكافِئُ أمومتها لتتفرغ لتربية أطفالها. لها الحق نعم، لكن أين الإمكانات؟

لكيْ تتكِئَ المودة والرحمة الزوجية على مقومات مادية ضامنة، ولكي تأمن المرأة زوجا ومطلقة على غدها وغد أبنائها لا بديلَ في الأفق القريب عن تمكينها من استقلالها الاقتصادي. يعني هذا أنها تشتغل خارج بيتها تخطيطا في ملفات الحاكم الإسلامي كما هي تشتغل فعلا في واقع المجتمع المخلوط الممزق الأواصر، القاسي على المرأة، الذي يتكفل بإدارته الإسلاميون غدا القريب إن شاء الله.

تخطيط واعٍ بأن تحويل علاقات الناس من تدابر وتنافر وأنانية وكراهية إلى مثال الجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر ليس مما تهب به الريح على جناح الارتجال. تخطيط يضَع نُصْب عينيه أن التضامن بين البنات والخالات والعمات وسائر البيوتات ليس مما يفرزه الفقر، وأن الرخاء والتنمية والإعمار مطالب أساسية للنهوض بماديات المرأة والرجل ومعنوياتهما. لا تنبُت الفضائل في رمال الفقر والعوَز والبؤس المادي.

ريثما يُلجِمُ الفقه الإسلامي المسؤول عن تطبيق الشريعة في منظور مقاصدها العليا الطلاق ومزاجية الرجل باللجام الشرعي للحد من عوامل تشرد المرأة عن بيتها، لا مناص من أن تعاني المرأة في العقود الأولى من الحكم الإسلامي معاناتها اليوم. معاناتها اليوم ناتجة عن ضرورات المعاش وفشُوّ الفقر، واللجام الشرعي يحد من المعاناة، لا يُعدمها. هذا اللجام هو التمتيع بإحسان عند الطلاق. نعود إلى عرضه إن شاء الله في الفصل المقبل.

معاناة المرأة الكاسبة ضرورةً من بين الفقيرات الأميات ساكنات أكواخ القصدير شبيهة نوعيا لا كيفيا بمعاناة المشتغلات من الطبقة الوسطى والأعلى منها. تمزق بين البيت والمعمل أو المكتب أو المدرسة، وضياع الأطفال.

هذا يُبعدنا، لا يقربنا، من المثال الذي خاطب الله عز وجل به نساء النبيء أمهات المؤمنين في قوله الحكيم: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.[1] ويبعدنا بعدا أقصى من الاستقرار القلبي الإيماني الذي قيل عنه في القرآن الكريم لأمهات المؤمنين: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾.[2]

أمر الله عز وجل بالأرحام أن توصل. ويلعن سبحانه المفسدين في الأرض الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل. لهم اللعنة ولهم سوء الدار والـمُنْقَلب في الآخرة بما أضاعوا من حسن الصلات في الدنيا.

إن كان من شأن القاضي والمفتي المقلد أن ينفض يده من هم المشرَّداتِ عن بيوتهن، والمُعْدِماتِ ما لهن بيوت، فإن الحاكم المسلم حقَّ الإسلام غدا من واجبه أن يعمل وهو سلطان على تحقيق ما بشر به في أمس الدعوة من مثاليات القرآن. يعمل ويُقارب. وما للسطان الحاكم سلطان على القلوب يلينها حتى تصل الأرحام ولا ترى حرجا في إيواء بنت الأخ والأخت والقريب والصديق. ذلك إلى الله الرحمن الرحيم، يقذف الرحمة في صدر من يشاء من عباده. وللدعوة والتربية الشأن الأول في ذلك بعد رحمته تعالى. وحقوق المرأة في بيت ومأوىً هي الأصل تضمنه الدولة، والتكافل وصلة الرحم شاطئ أمان.

يوسع الإسلام هذا الشاطئ ليقتطع من أرض الجِوار مِساحة تُلحقها بأرض القرابة. في سورة النساء وصية مؤكدة بالإحسان للجار ذي القربى والجار الجُنُب والصاحب بالجنب. وفي حديث نبوي رواه الشيخان وأبو داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظَننت أنه سيورثه**». كان الصحابة رضي الله عنهم يُهدون للجار لحق جواره وإن كان كافرا. روى أبو داود والترمذي أن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ذبح شاة وأهدى جاره اليهودي. ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكد الوصية للمؤمنات ربات البيوت أن لا يدعن الجارة في الأمر

(1) سورة الأحزاب، 33.
(2) سورة الأحزاب، 34.

الجليل والصغير. قال صلى الله عليه وسلم: «**يا نساء المؤمنات! لا تحقِرَنّ جارةٌ لجارتها ولو فِرْسِنَ شاة**». رواه الشيخان والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه. الفِرْسِن ظلف رجل الشاة، عبارةً عن إسداء المعروف لجارة من كثير أو قليل. وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر قال: «**يا أبا ذر! إِذا طبخْت مَرَقة فأكثر ماءها، وتعاهَدْ جيرانك منها**». رواه مسلم.

خير الأقارب عند الله أوصلهم لرحمه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره. روى الترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن عَمرو المحسن إلى جاره اليهودي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**خير الأصحاب عنْدَ الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرُهم لجاره**».

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

حضرة الحافظية

كلف الله سبحانه الرجال بمهمة القوامة، والنساء بمهمة الحافظية في قوله جل وعلا: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ﴾.[1]

في الفصل الـمُقبل إن شاء الله نتحدث عن القوامة. ونبدأ هنا في استكشاف وظيفة المرأة من خلال هذه الآية الكريمة، ومن خلال التكليف العام الشامل للزوجين الرجل والمرأة في خطابه تعالى العام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. في الخطاب العربي يُغَلّب التذكير في الحديث عن الجمع.

أول ما نتبين من وظيفة المرأة في الآية الكريمة أنها حافظة للغيب. كلمتان توحي إحداهما بمفهومها أن هناك ما يضيع إن لم تحفظه، وتوحي الثانية بأن هناك غيبا وحضورا. لهذا وضعنا للفقرة عنوان «حضرة الحافظية» إشارة للمفهومين الأساسيين في المسألة.

الحفظ استمرار واستقرار هما قطب السكون في الحياة الزوجية وحياة المجتمع. النساء بفطرتهن يحفظن استمرار الجنس البشري بما هن محضن للأجنة، وحضن للتربية، ومطعمات، وكاسيات ومدبرات لضرورات معاش الأسرة. هن المحضن لأجسام الأنام، والراعيات لحياتهم، والوصلة الفطرية بين أطراف البشرية، والواسطة بين جيل وجيل.

قرأنا في الفقرة السابقة ما ينغص سكون المرأة بالخصاص في ادياتها، وفي الفقرة قبلها قرأنا ما لا يكون بدونه استقرار من تواد وتحاب وتواصل. هنا ننظر إن شاء الله في الأهداف والمقاصد والوظيفة، لتعرف المؤمناتُ ما هو الحفظ وما هو الضياع، وليعرفن ما هو الغيب الذي إن حفظنه بما حفظ الله كن من الصالحات القانتات، ونلن بذلك رضى الله عز وجل.

---

(1) سورة النساء، 34.

حِفظ إذاً وغيب. الحفظ وُجْد، والضياع تلف. ما هو أثمن شيء في حياة الأمة استحق أن ينَبه الله تعالى عليه في كتابه الحكيم وينيط المرابطة عليه بشطر الإنسانية، بشطر الأمة، بشطر البيت المسلم؟ لا شك أنها مهمة كبيرة تلك التي تَعْدِلُ بين قوامة الرجل وحافظية المرأة ليحمل الرجل والمرأة عبئها. هذه المهمة هي عبادة الله تعالى، تلك العبادة المعلولة بخوف العقاب الأخروي ورجاء الجنة ورضى المولى وقربه. هي رحلة الرجل والمرأة في دنياهما، ومن دنياهما، وعبر دنياهما إلى ما يرجوان من صلاح آخرتهما.

في أداء هذه المهمة، وفي التعاون على تمام الرحلة وسلامتها، يتكامل حضور أحد الرفيقين وغيابهما. حضوره هو الفطريّ في مجالات الكسب والمدافعة والسعي على العيال يغيبه عن مجالات إن لم تحفظها المرأة ضاعت.

قبل أن ننظر في مجالات غيابه وحضورها نقف عند كلمات قرآنية هي المفتاح والدليل إلى توزيع المهام وتكاملها وشمولها. قال تعالى: ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ﴾.[1] ما حفظ الله. ما هنا سواء اعتبرناها موصولية أو مصدرية تؤدينا إلى قراءة: بما حفظ الله، أي بحفظ الله، بالذي حفظ الله. أي أن حافظية المرأة هي تحمل ما كلفها به الشرع، وما حفظه الله من آياته العاصمة للشرع: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.[2]

حافظيتها إذا لا تقصُر على حفظ حقوق الزوج بل تشمل كل حقوق الله المكلفة بها الزوج. حافظية الصالحات القانتات في المجتمع المسلم لا تقتصر على شُغل بيوتهن وإرضاء أزواجهن، بل تنطلق أولا من إرضاء الله عز وجل وترجع إليه.

نأخذ من حديث نبوي شريف إشارة الانطلاق. يقف المفسر والفقيه والمحدث عند نص الحديث ودلالته المباشرة. ونتخذه نحن مفتاحا لفهم أشمل. روى ابن جرير الطبري بسنده إلى أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**خير**

(1) سورة النساء، 34.
(2) سورة الحجر، 9.

النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالِكَ».

في الحديث الشريف تتميز ملامح الحافظية، ويظهر لفظها، في نطاق الحياة الزوجية. استقرار البيت المسلم الذي ينظر فيه الزوج إلى زوجه فتسره. يعني ذلك أنه يحبها ويسكن إليها، لا أن شرطها أن تكون فاتنة الجمال الجسدي. ذلك يذبل ويبقى جمال الخلق وكمال الحافظية. البيت المسلم الذي يمارس فيه الزوج «درجة» قائد السفينة، هو هناك مع خرائطه، ومخططات الإبحار، ومواجهة أهوال الموج، وهي حافظة لما به تتغذى السفينة وتتحرك من دواليب خفية ووَقود وصيانة. تطيع الربان إذا أمرها، وتحفظ غيبه في نفسها وماله.

وها نحن على مدرجة استكمال مهام الحافظية، ولجنا بفضل المفتاح النبوي الباب، فنقرأ على لائحة أولويات الحافظية حفظ الأنساب، ويقرر أولويته قوله صلى الله عليه وسلم: «**من ادَّعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا**». الحديث أخرجه الشيخان عن الإمام علي كرم الله وجهه. وفي حديث متفق عليه من رواية سيدنا سعد بن أبي وقاص يقول صلى الله عليه وسلم: «**من ادّعى أبا في الإسلام غيرَ أبيه، وهو يعلم أنه غيرُ أبيه، فالجنة عليه حرام**».

أنفس ما تحفظه نساء الأمة أنساب الأمة. لأن لفيفا من اللقطاء لا يسمى أمة، إذ لا جامع بين مخلوقات فيه منفصمة الروابط. لهذا استحق اللعنة وحرمت عليه الجنة من استهان بحُرمة النسب، فطعن بذلك في ولاء القرابة، وتلصص على بر القرابة، وزوَّرَ صلات الأرحام. وكلها روابط مقدسة، الحفاظ عليها، والعفة، وحفظ الفروج، والتحصن من فاحشة الزنى، واجب مقدس في مقدمة واجبات الحافظية.

«**إذا غاب حفظته في نفسها وماله**». في نفسها عفة وشرف. في ماله تدبير للنفقة واقتصاد. وها هي المرأة دخلت على مقاصد الشريعة العليا من باب واسع.

ويعبِّر فقيه المقاصد الإمام الشاطبي رحمه الله بكلمة «حفظ» عن واجب المسلم والمسلمة، وعن واجب الأمة، في تحقيق ما كلفوا به. ضروريات خمس قرأنا منها ثلاثا. قَرأنا حافظية المرأة على النسب وعلى نفسها، وهما متلازمان. ثم حافظيتها على مال زوجها. بقيت ضروريتان مما عند إمام فقه المقاصد: حفظ الدين، وحفظ العقل. هل ينحفظ شيء من أمانات النساء إن لم يكن إيمانهن باعثا، وعقلهن مدبرا؟

وهكذا نقرأ الحافظية بمفتاح الفهم النبوي، فنجدها شاملة، مسؤولية لا تنحبس في جدران بيت الزوجية، وفي هموم المعاش اليومي. الدين الذي هو رأس المقاصد وغاية الغايات، يُرْضَع من ثدي الأمهات الصالحات القانتات الحافظات. وتعهُّدُهن لجسوم الأطفال ونباتها وغذائها وصحتها كتعهدهن للعقل الناشئ، يأمرن بالحسن، ويزجرن عن القبيح، ويجبن عن الأسئلة، ويلقِّنَّ اللغة.

ويتحدث فقيه المقاصد الإمام رحمه الله عن الحاجيات «التي يُفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة». من زاويتنا لا من زاوية الأصولي الكبير نلمَحُ ما يمكن للصالحات القانتات الكاملات عقلا ودينا أن يساهمن به في التوسعة ورفع الحرج والمشقة. يعني أن الجانب العاطفي الإنساني الإحساني البرّي الذي فطرت المرأة عليه مقصِد سام من مقاصد الدين.

ينظر الأصولي الإمام إلى رخص العبادات والعادات ليستدل على سَعة الدين ورفع الحرج، وينظر إلى تفاصيل الأحكام ليُرِيَ كيف تحيط الشريعة حياة المسلمين بسياج من التسهيلات تضمن المصالح الحياتية، وتنظمها، وتخدُم الضروريات الخمس. ونقرأ نحن من زاويتنا ما يمكن للصالحات القانتات أن يُمَهّدْنه من وَعْرٍ في الحياة، وما يمكن أن يخدُمن به من جانب لباقتهن ما لا تحققه قوة الرجل وخشونته.

ويتحدث الأصولي الإمام عن مقاصد الشريعة التحسينية فنتبعه عندما يُعرفها بأنها «الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب الأحوال المدَنّسات، التي

تأنفها العقول الراجحات. ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق». نلتقي معه ونتبعه لأن الصالحات القانتات أَرَقّ من عرف الأليف، وميز الحسن والأحسن، وأوْرث العادات الحسنة، وترفع عن المدنَّسات الملوِّثات، وأنِفَ مما تأنفُ منه العقول الراجحات.

نودع أستاذ الفقهاء العظيم. ونلتفت إلى همومنا الحالية والمستقبلية، وحاجة المسلمين إلى اجتهاد يُشرك الصالحات القانتات في الجهاد العام للأمة، جهادا يخرجها من قمقُم قعيدة البيت الأمية غير المسؤولة، ومن بؤس الكادحة المكدودة الكاسبة قهرا وحاجة ويتما من كفالة الأقارب المشتتين بين بادية وحاضرة، ومن عناية أزواج يرمون في الشارع من بلغت الأربعين ليجددوا الفراش.

يجتهد الفقيه الأصولي فيجد في زمانه ومكانه وأحواله أشياء يجب الاحتفاظ بها ضرورة. كان دين يرضى عنه المسلمون، وأنفس يُدافع عنها حكام مسلمون، ونسل مصون لعفة المؤمنات وعموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،ولو في حدود. وكان الوضع المالي في تلك العصور الزاهرة على كل حال وضعا متكافئا، يؤتي الناس الزكاة، ويتكافل الأقرباء. وكان العقل المسلم في مأمن من غزو عقل أعتى منه وأقوى. كان العقل الأروبي الذي نراه طاغيا في زماننا في سبات عميق.

نحتاج إلى اجتهاد مشفوع بجهاد يبْصر الأمور في شمولها، ويستنبط الأحكام من أصولها. من لنا بفقه يستفيد من ذخائر أئمتنا دون أن يقف معها، وينحبس في أفقها، ويقلد طرائقها في التفريع وتفريع التفريع إلى أن يغيب عن المنظر المشهد الكلي والأهداف الكلية، والغاية النهائية!

من لنا بفقه واجتهاد وجهاد يتتلمذ مباشرة لاجتهاد الصحابة رضي الله عنهم، وخاصة اجتهادِ الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم! «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فلَهُ أجران. وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر». حديث عند البخاري. الحاكم السلطان يجتهد لأفق مفتوح، ولأهداف شاملة، ومن موقع مسؤولية، واستجابة لحاجات أب الأسرة وعائلها. وكذلك

كان اجتهاد الخلفاء الراشدين. فلما تقاتل السلطان والقرآن، صُرِف المفتي والقاضي من المجال العام السياسي، فتقلص الفقه تحت رادعين اثنين: ضغطِ السلطان الحاكم بأمره، وبُعْد المفتي والقاضي عن المشهد العام. لهذا تقلصت الفتوى الخاصة بالمرأة مع التقلص العام والانحباس. وتلك محافظة على الموروث وتقليد، هما مما يثقل كاهل النساء ويعرقلهن عن ممارسة حافظيتهن كاملة. والحمد لله رب العالمين.

«ولا تقربوا الزنى»

الغناء الماجن حُداءُ الزنى. والنظرة المتلصصة الوقِحة رسول إبليس، والاختلاط دخول في حوزة الفتنة، والخلوة طامة.

وقد نهى الله عز وجل عباده وإماءه عن القرب من الزنى، إذ من حام حولَ الحِمى يوشك أن يقع فيه. واستباحة شيء من هذه المقاربات الآثمة تَوَرُّطٌ وخطوٌ نحو الفاحشة. فما السبيل الأقرب إلى درء هذه المفاسد الـمُقرِّبة من الزنى لنسُد الثغرات التي تُفضي بالرجل والمرأة إلى مسلسل «نظرة فابتسامة إلخ»؟

إن اللقاء بين الرجال والنساء على العهد النبوي مع البراءة والعفة والصون كان عماده الخشية من الله تعالى، وأدبَه غض البصر، وكماله صفاء القلوب، والشاغل عن الإسفاف فيه الجهاد الدائم للنفس والعدو.

ويمضي ذلك العهد الشريف الذي لم يكن بأي حال ملائكيا، لكن الفاحشة كانت شذوذا محاصرا بجند التعبئة العامة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. مضى العهد الحي اليقِظ، واختلطت الأقوام، ومسلمات الفتوح وجواريها، فانحدر الوازِع الإيماني. ولم تستقرّ العلاقة بين الرجال والنساء في حدود العفة والصون إلا على سَدِّ الجدران والأبواب، خلف الجدران النساء سجينات، ومن ورائها الرجال طلقاء.

ما كان من براءة وحرية على عهد النبوة تحول سوءَ ظن وحبسا. في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت حتى المرأة المعتدة من طلاق أو موتِ بَعْل تتنفس نسائم الحرية مع أن فرضها وواجبها أن لا تخرج من بيتها. أمسكها القرآن وأطلقتها السنة. عند الإمام مسلم حديث فاطمة بنت قيس التي أذن لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج من بيتها لما اشتكت إليه خوفها أن يقتحم عليها بيتها. خافت أن يدخل عليها من يُسمعها كلاما بذيئا. وعند البخاري

الإمام عن عائشة رضي الله عنها أن بيتها كان موحشا. وعند مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَذِن في الخروج لخالة جابر المطلقة لكي تشتغل في جِداد نخلها، أي قطافِه.

يقول الفقيه القاضي أبو بكر بن العربي: «وجاء من هذا أن لزوم البيت للمعتدة شرع لازم، وأن الخروج للحدَث والبِذَاءِ والحاجة إلى المعاش وخوف العورة من المسكن (أي الخوف من تعرض البيت للسطْو) جائز بالسنة. أما الخروج لخوف البِذَاء والتوحش والحاجة إلى المعاش فيكون انتقالا محضا (أي انتقالا من بيت لبيت). وأما الخروج للتصرف في الحاجات فيكون بالنهار دون الليل، إذ لا سبيل لها إلى المبيت عن منزلها. وإنما تخرج بالإسفار (الصباح الباكر) وترجع قبل الإغطاش (الظلام) وتمكّن فَحمة الليل».

هذا هو الفقه الذي كتبه الفقيه المالكي في أول القرن السادس. وهو فقه متمسك بأذيال الكتاب والسنة. فقه أعطى المرأة في أقصى أحوالها الشرعية تشديدا على المكث في البيت حق الخروج من الإسفار بشرط الرجوع قبل تمكن «فحمة الليل».

هذا الفقه المستنير بنور الشريعة هل حَكَم الواقِعَ أم الواقِعُ أقصاه وأبعده لتسود العادة والعُرف وسوء الظن بالمرأة وسجنها وهي أمية خلف جدران مضاعفة؟

الواقع يعطينا القاضي المالكي لَقْطة عنه في كتابه «أحكام القرآن» فيقول: «ولقد دخلتُ نيِّفًا على ألف قرية من برية، فما رأيت أصون عيالا ولا أعفَّ نساء من نساء نابلس التي رُمي فيها الخليل عليه السلام في النار. فإني أقمت فيها أشهرا، فما رأيت امرأة في طريق، نهارا، إلا يوم الجمعة. فإنهن يخرجن إليها حتى يمتلئَ المسجد منهن. فإذا قُضِيت الصلاة وانقلبن إلى منازلهن لم تقع عيني على واحدة منهن إلى الجمعة الأخرى. وسائرُ القُرى تُرى نساؤُها متبرجات بزينة وعُطلة، منصرفات في كل فتن وعُضْلة (داهية). وقد رأيت بالمسجد الأقصى عفائف ما خرجن من معتكَفهن حتى استشهدن فيه».

لم يذكر القاضي رحمه الله السنة التي زار فيها الشام ورأى استشهاد العفائف في المسجد الأقصى. والعصر كان عصر اضطراب وسيف وإحراق وملوك يثور بعضها على بعض من ترك وديلم وقبائل عجم. أم كانت هجمة من هجمات الفرنج الصليبيين؟ التحقيق في ذلك خارج عن نطاقنا.

لا ندري بأي معيار حكم قاضينا على نيِّف وألف قرية بأن نساءها «متبرجات بزينة وعطلة، منصرفات في كل فتن وعضلة». الذي نقرأه ما بين فتوى الفقيه المتمسك بأذيال الشريعة ومشاهدة الحاج الزائر المنزعج من القرى المتبرجة المعجب أشد الإعجاب بعفائف نابلس والقدس هو أن الواقع السائب لا يرى له الفقيه المشاهد علاجا إلا إغلاق الأبواب من الجمعة إلى الجمعة.

واقع القرى المتبرجة أفزع الفقيه فلم يجد في الإمكان صلاحا للمرأة إلاَّ في سَجن المرأة، ولا ضمانا لعفتها إلا تغييبها عن الأنظار. وهكذا لا حاجة لغض بصر، ولا مدخل بين الرجال والنساء لرُسُل الشيطان.

ويتذكر فقيهنا رحمه الله الأمر الأول على عهد النبوة وفعل الصحابيات، فيُجادِل الروافض الذين قالوا عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «إنها خالفت أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، وخرجت تقود الجيوش، وتقتحم مآزق الحرب والضرب (في واقعة الجمل) فيما لم يفرض عليها ولا يجوز لها».

قال رحمه الله: «وقال علماؤنا رحمة الله عليهم: إن عائشة كانت نذرت الحج قبلَ الفتنة، فلم ترَ التخلف عن نذرها. ولو خرجت عن تلك الثائرة (على الإمام علي) لكان صوابا لها.

«وأما خروجها إلى حرب الجمل، فما خرجت لحرب، ولكن تعلق الناس بها، وشَكَوْا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة، وتهارُج الناس. ورجَوْا بركتها في الإصلاح، وطمِعوا في الاستحياء منها إذا وقفت إلى الخلف وظنت هي كذلك. فخرجت مقتديَةً بالله في قوله: ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ

أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾.[1] وبقوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾.[2]

قال رحمه الله: «والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر أو أنثى، حرٍّ أو عبدٍ. فلم يرد الله بسابق قضائه ونافِذِ حكمه أن يقع إصلاح. ولكن جَرَتْ مُطاعنات وجراحات حتى كاد يفنَى الفريقان. فعمد بعضهم إلى الجمل (الذي كان يحمل عائشة رضي الله عنها) فعرقَبَهُ. فلما سقط الجمل لجنبه أدرك محمد بن أبي بكر عائشة، فاحتملها إلى البصرة. وخرجت في ثلاثين امرأة، قَرَنهُن عَلِيٌّ بها، حتى أوصلوها إلى المدينة بَرَّةً تقية مجتهدة، مصيبة ثابتَة فيما تأولت، مأجورةً فيما تأولت وفعلت، إذْ كل مجتهد في الأحكام مصيب». انتهى المقصود من كلامه رحمه الله.

نزلنا من عالية الـمَصَبِّ. من المنبع النبوي الصحابي الذي كانت المرأة فيه عالمة مجتهدة مصلحة بين الناس متحركة فاعلة برة تقية مباركة. نزلنا إلى نصف المنحدر في عصر أبي بكر القاضي الذي أعجبه شوارع نابلس التي لا تُرى فيها امرأة ولا يسمع لها فيها حس. نصف المنحدر كان فيه معيار البِر والفجور، ومعيار العفة والغرور لزوم المرأة بيتها إلا أيام الجمع. وفي الألف قرية ونيِّف التي زارها القاضي متهتكات لا يُرى لهن صلاح إلا بالقعود كما قعدت متنسكات الشام. في تلك القرى لم يعوض بناء الجدران ما تقوض من راسخ بناء الإيمان. في تلك القرى زينة بلا حشمة، وعطلة بلا شغل، وفتن وعضلة. لا شغل للحرائر في بيوت تلك العهود لأن من يجررن الرحى حتى تَدْمَى أيديهن، ويكنُسن حتى تَغْبَرّ ثيابهن لم يكنّ فاطمة بنت النبي وأسماءَ بنت أبي بكر. إنما كنّ وَخْشاً من الإماء المعذبات في الأرض.

ونُحضر شاهدا آخر غيورا ليصورَ لنا مشاهد من سافلة الـمَصبّ في عصرنا، عصر قاسم أمين وبورقيبة والثَورة الجنسية والعهر المكشوف. كان في منتصف

(1) سورة النساء، 113.
(2) سورة الحجرات، 9.

الانحدار عِفّة تُقَدّر وتعجب. كان نهي النفس عن الهوى ونهي الآخرين عن المنكر فضيلة أساسية وحقا وواجِبا لَم يُحرِزْه السيف المتسلط ما دام المنكر المنهي عنه لا يقرب من حِمَى السلطان.

نستشهد مجاهدا من أدباء عصرنا وروادهم مصطفى صادق الرافعي رحمه الله الذي يصف المتبرجات في كتابه «وحي القلم» فيقول: «إن للثياب أخلاقًا تتغير بتغيُّرها. فالتي تُفْرِغ الثوب على أعضائها إِفراغ الهندسة، وتُلبس وجهها ألوان التصوير، لا تفعل ذلك إلا وهي قد تغير فهمها للفضائل، فتغيرت بذلك فضائلها، وتحولت من آيات دينية إلى آيات شعرية. وروح المسجد غيرُ روح الحانة، وهذه غيرُ روح المراقص، وهذه غيرُ روح المخدع (...).

وأين أخلاق الثياب العصرية في امرأة اليوم من تلك الأخلاق التي كانت لها من الحجاب! تبدلت بمشاعر الطاعة، والصبر، والاستقرار، والعناية بالنسل، والتفرغ لإسعاد أهلها وذوِيها مشاعرَ أخرى: أولها كراهية الدار والطاعة والنسل، وحسبك من شرٍّ هذا أولُه وأخفه!»

ويقول رحمه الله: «كان الحجاب معنىً لصعوبة المرأة واعتزازها، فصار الشارع معنىً لسهولتها ورُخْصِها. وكان مع تحقق الصعوبة أو توهمها أخلاق وطباع في الرجل، فصار مع توهم السهولة أو تحققها أخلاق وطباع أخرى على العكس من تلك.

«وتخَنَّثَ الشباب والرجال ضروبا من التخنُّث بهذا الاختلاط وهذا الابتذال. وتحللت فيهم طباع الغيرة فكان هذا سريعا في تغيير نظرتهم إلى النساء، وسريعا في إفساد اعتقادهم، وفي نقض احترامهم. فأقبلوا بالجسم على المرأة وأعرضوا عنها بالقلب. وأخذوها بمعنى الأنوثة، وتركوها بمعنى الأمومة. ومن هذا قل طُلابُ الزواج، وكثُر رُوّاد الخنا». انتهى المقصود.

ماذا نرى إن تتبعنا الخط الانحداري في تدهور شأن المرأة؟ نرى الانحلال من ذاك الانجماع الأول. نساء الإسلام وفي مقدمتهن أمهات المؤمنين كنّ في

خندق جهادي واحد مع رجال الإسلام. في منتصف المنحدر حزبان: نساء أفضل وأروع أحوالهن عفة الجدران، ورجال أتقياء يثلج صدورهم مشاهدة نابلس وقد أصبحت قَفْراً من كل ما يجرح الطرف من عورات. وتنزل قرون لنشهد مع الرافعي روح الحانة والمرقص والخنا قد طردت روح المسجد من الساحة. نحن بحمد الله في بداية الصعود من الحضيض. فكيف السبيل إلى التمام؟

شغل بلا عطلة

قعيدة البيت ناسكة المسجد في الجمع التي كانت تثلج صدر الفقيه السائح ماذا كان يملأ وقتها ويشغل فراغها؟ ما وظيفتها في الحياة بصفتها مسلمة تنتمي إلى خير أمة أخرجت للناس؟ إسعاد أهلها وذويها من فرائض فطرتها وأمومتها، لكن ماذا تقدم من خدمة لأمتها؟ أن تغشى المسجد وتسمع الوعظ شيء حسن، مطر رحمة يحيي القلوب وينعش الإيمان من جمعة لجمعة. لكن أين هي من مجالس العلم ومدارس التفقه في الدين؟ أين هي من المشاركة الفعالة في الحياة الاجتماعية وفي الجهاد وفي الاقتصاد كما كانت الصحابيات يشاركن؟

في كتاب الله وسنة الرسول كلِّفت المؤمنات بأمانة الحافظية، ويَنحدر الزمن بالمرأة فإذا هي أمانة تحفظها الجدران. وتمر القرون من انحطاط لانحطاط ومن ضَعف لِضَعف حتى تغزُوَنا الجاهلية غزوتها الشاملة ويحتل ديارنا الاستعمار الأوربي، فيجد المسلمة مقهورةً مغلقةً عنها أبواب العلم، مُوصَدةً عليها أبواب البيت. ويجد الرجل لا يتصور للمرأة ولا يريد لها ومنها إلا عفة وِقائية فلسفتها سوء الظن وضامنها القُفل. ولا يَلبث الاحتكاك بالغرب وثقافته ونسائه العاريات الكاسيات في عواصم المسلمين أن يخرج المسلمة من البيت بمباركة أمثال قاسم أمين وإمامة أمثال بورقيبة. ويلقيَ بها في الشارع متهتكة أشد ما كان التهتك.

فما السبيل اليومَ لكشف الغُمة عن الأمة في شأن المسلمة؟ كيف نخرجها من سجن الجهل والأمية والعطلة والفراغ والزينة التبرجية والفتن والعضلة؟ إن جعلنا مثلنا الأعلى ناسكات نابْلُس كما شاهدهن الفقيه منذ ثمانية قرون فإنما نعمل على شَلِّ شطر الأمة، وبتر جزء متكامل من جسم خير أمة أخرجت للناس. جزءٍ كامل في ذاته لولا البِلَى الذي أصاب الإيمان في قلب الرجل والمرأة، فلم تنفعهما خطبة الجمعة، ولم تحي فيهما ولم تجدد معاني الحياة والمشاركة

والتعاون البريء في ميادين الجهاد والاقتصاد كما كانت التربية النبوية صنعت بالمؤمنين والمؤمنات.

حبْس المرأة تعطيل، وتجهيلها تمكين لأعدى عدو -وهو الجهل- من مقوماتنا. على المدى القريب تسمع المرأة ويسمع الرجل نداء الضرورة الحياتية، ونداء استقلال المرأة الاقتصادي لتأمَنَ غوائل الرجل في مجتمع الكراهية الذي كادت تنفصم فيه عُرَا التكامل والتراحم والتلاحم بين ذوي القربى والنسب والدين. وعلى المدَى الإصلاحيِّ لا بد أن نهيِّئ البيئة المناسبة، ونبرمج التربية الملائمة لتضطلع المرأة المسلمة بما يكلفها به نداء الضرورات الكسبية، وما يدعوها إليه نداء سعادتها الأخروية، مندمجاً كل ذلك متكاملا.

والنموذج الصحابي هو القبلة لا العفة الوقائية العاطلة.

نستعرض مشاهد من حياة الصحابيات رضي الله عنهن. ونستفيد من كتاب «تحرير المرأة» للأستاذ أبي شقة، فقد قرب فيه الشُّقَّة جزاه الله خيرا. ولا غنى للمؤمنات عن الاطلاع على حياة الصحابيات لتطمئن قلوبهن وعقولهن إلى أن النموذج الذي ينبغي أن يحتذى هو ذاك الذي رعته تربية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشارك فيه بنفسه، وحضرته أمهات المؤمنين. ليس النموذج الفقيه المتشدد الذي بقي حائرا بين نصوص محررة واضحة وبين واقع الألف قرية التي سادتها الزينة والعطلة والفتن والعُضلة. حار الفقه، فتشدد، وسد الذرائع، وأغلق الأبواب، وحجّر على العقول، وغَم القلوب، وأمات في الأجيال الناشئة في حضن السجينات ما أحيته أمهات الجيل الأول في الفاتحين المجاهدين. مجاهدات ربين مجاهدين. ولا تربي السجينات إلا صورة من عطالتهن.

أم سُلَيْم زوج أبي طلحة جاءت بابنها أنس وهو طفل ليخدُم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكان بعدُ أَنَسـاً الذي تعلم في المدرسة المحمدية، وعلَّم الأمة بما رواه من أحاديث جزءا مهما من دينها. كان النبي صلى الله عليه وسلم يحْفَظ لأم سُلَيم فضْلَها أن أَخْدَمته ابنها. فكان إذا مر بجنَبَات بيتها دخل عليها فسلم

عليها. (رواه البخاري). ويقول أنس: «تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل بأهله. فصنعت أمي أم سُليم حِيساً (جبن مصنوع بسمن وتمر) فجعلته في تَوْرٍ (إناء من حجر) فقالت: يا أنس! اذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقُل له: بعثَت بهذا إليك أمي، وهي تُقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله!» (رواه مسلم). واستضافت أم سليم رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتها ومعه سبعون أو ثمانون رجلا، فأتتهم بالخبز ففتَّته وعَصَرتْ عُكتها (إناء من جلد)، تخدُمُ ضيفها لا ترى في ذلك حرجا، ويقر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي دواوين الحديث كثير من أخبار المؤمنات وخدمتهن لضيفهن الكريم وأصحابه.

ويخبر أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغْزُو بأم سُليم ونِسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى. (رواه مسلم). ويخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه قائلا: «**رأيْتُني دخلت الجنة فإذا أنا بالرُّمَيْصَاءِ امرأةِ أبي طلحة**». (رواه الشيخان). الرميصاء بصيغة التصغير هي العُمَيْشاء. هل هذه الكلمة من فِيهِ الشريف صلى الله عليه وسلم عَيْب وتحقير وتصغير؟ كلا! بل الكلمة بصيغتها التصغيرية ودلالتها اللغوية كأنها تقول: هذه المرأة قليلة الحظ من جمال الجسم انظروا أين أوصلها إيمانها!

ونقف مع شخصية أخرى هي أسماء بنت عميس رضي الله عنها، من ذوات الهجرتين. هاجرت مع زوجها إلى الحبشة ثم إلى المدينة. دخلت أسماء على حفصة أم المؤمنين زائرة، فدخل عمر بن الخطاب على ابنته حفصة وعندها أسماء. فسأل: مَنْ هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس. قال عمر: الحبشية هذه! البحريةُ هذه! قالت أسماء: نعم! قال عمر: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم! وجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقالت له أسماء: يا نبيّ الله! إن عمر قال كذا وكذا! سألها النبي صلى الله عليه وسلم: **ما قُلتِ له؟** قالت: قلت له كذا وكذا! قال: **ليس بأحق بي منكم. وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهلَ السفينة هجرتان.** قالت أسماء بعد ذلك: فَلَقَد

رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني أرسالاً. (أفواجا) يسألوني عن هذا الحديث... (رواه الشيخان).

هل كن منعزلات حبيسات بيوت تلك الأمهات العظيمات؟ هل كان المجتمع معسكرين، رجال هنا ونساء مغيبات؟ يأتونها أرسالاً يتعلمون. جمعهم العلم بعد أن جمعتهم السفينة، وجمعتهم الهجرة، وجمعهم الإيمان.

ماذا قالت أسماء لعمر حينما تعزز عليها بالأسبقية والأحقية؟ قالت غاضبة: كلا والله! كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم. وكنا في دار البُعَداءِ البُغَضاء بالحبشة. وذلك في الله وفي رسول الله. وايْمُ الله! لاَ أطعَم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ونحن كنا نؤْذَى ونخاف. وسأذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم وأسألُه. والله لا أكذِب ولا أزيغُ ولا أزيد عليه...

قال الفقيه المتشدد، ولا دليل معه: صوت المرأة عورة! المرأة المثالية إذا هي الحجر الصامت، لا يغضب ولا يرفع الصوت! أم تُرى أن أسماء حين غضبت على عمر كانت تهمس وتضع قطنا في فمها لكيلا يُعْرف صوتُها كما يفتي بذلك بعض بُلَهاء الوُعّاظ!

أسماء بنت عميس المهاجرة المجادلة الغاضبة كيف كانت في بيتها وإسعاد ذويها؟ عاطلةً كانت عالَةً مُعَطلةً يُطعمها غيرها؟ قال ابن هشام في السيرة بسند ابن اسحاق إلى أسماء قالت: «لما أصيب جعفر (بن أبي طالب زوجها) وأصحابه، دخلَ عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد دبغْتُ أربعين مَنّا (رِطلا)، وعجنت عجيني، وغَسَلْتُ بَنِيَّ ودهنتهم ونظفتهم. قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ائتِيني بِبَنِي جعفر. قالت: فأتيتُه بهم، فتشَمَّمَهم وذَرَفَتْ عيناه (دمَعَتْ). فقلت: يا رسول الله! بأَبِي أنتَ وأُمي! ما يُبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم، أصيبوا هذا اليوم. (وهي معجزة أن يطلع على ذلك يومه وهم في غزوة مُؤْتَةَ في الشام). قالت: فقمت أصيح! واجتمعت إليّ النساء.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله فقال: لا تُغْفِلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاما، فإنهم قَدْ شُغِلوا بأمر صاحبهم».

هل صاحت! ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع ويرفُقُ ويواسي. أم أرعَد وأبرق وزمجر؟

وتزوج أبو بكر أسماء بنت عميس بعد ذلك، فيروي مسلم أن نَفَراً من بني هاشم دخلوا عليها فدخل أبو بكر الصديق ووجدهم. زيارة وبراءة.

ونقرأ عن أسماءَ أخرى، وهي أسماء بنت أبي بكر أخت عائشة أم المؤمنين. قالت: «كنت أنقُل النَّوَى من أرض الزبير (زوجِها) التي أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسي، وهي مِنِّي على ثُلُثَيْ فَرْسَخ (نحو كيلومترين). فجئت يوما والنوى على رأسي. فلقيتُ رسول الله صلى اللّه عليه وسلم ومعه نفَر من الأنصار. فدعاني لِيَحْمِلني خلفه. فاستحييت أن أسير مع الرجال...» الحديث رواه الشيخان.

مشتغلة لاَ عاطلة. النّوَى علَف فرس الفارس المجاهد الزبير رضي الله عنه. والمسافة بعيدة. ورفق رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواضعه حاضران. والحياء شعبة من الإيمان، منعها الحياء من رفقة الرجال والركوب خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم. ما منعها الشرع.

نقرأ عن أسماء الصديقية رضي الله عنها حرصها على العلم بعد أن قرأنا حرصها على جمع النوى لعلَفِ فرس الجهاد، وبعد أن قرأنا حياءها الذي صانها عما لا تصون عنه الجدران. قالت الصديقية: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا (بعد صلاة الكسوف) فذكر فتنة القبر الذي يُفتَتَن فيه المرء. فلما ذكر ذلك ضجّ المسلمون ضجّة حالت بيني وبين أن أفهم آخر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما سكت ضجيجهم قلت لرجل قريب مني: أيْ! بارك الله فيك، ماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر كلامه؟ قال الرجل: قال: قد أوحِيَ إلِيّ أنكم في القبور قريبا من

فتنة الدجال... الحديث رواه البخاري إلى كلمة «ضجة» وروى النسائي والإسماعيلي بقيته.

وروى الشيخان أن أم الفضل بنت الحارث كان عندها ناس تَمَارَوْا يَوْم عرفة في صوم النبي صلى الله عليه وسلم. فالعلم كان مطلبا مشتركا، تسأل المؤمنة جارها في المسجد، ويتناقش المسلمون في بيت المسلمة. بيتها مدرسة.

وتفتح أم شريك بيتها للأضياف والإحسان. قال النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمةَ بنت قيس وهي في عدة طلاقها: انتقلي إلى أم شريك –وأم شريك امرأة غنية من الأنصار عظيمة النفقة في سبيل الله ينزل عليها الضيفان– فقالت فاطمة: سأفعل! فقال: لا تفعلي! إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان. وفي رواية: يأتيها المهاجرون والأنصار.

ما خلَّفَ الرجالَ والنساءَ عن الإسلام وأحكام الإسلام وآداب الإسلام وسعة الإسلام إلا الجهل بتاريخ الإسلام وتقليد المتشددين بغير حق في الإسلام.

هَوَسُ الاختلاط

كان المسلمون الذين تتجاور المؤمنة والمؤمن في مساجدهم، وتسأله عن مفردة من مفردات العلم، قوما نزل عليهم قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾.[1] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[2]، وبعث فيهم سبحانه النبيَّ الأمي يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. كانوا من صفاء نفوسهم وزكاتها وخوفهم من الله عز جل وَوَجَل قلوبهم إذا ذُكر يضجون فزعا وحضورا قلبيا مع حقائق الموت وما بعده إذا أنذروا بعذاب القبر.

كان ذلك المجتمع الذي يفِد فيه الرجال أرْسالا على بيت امرأة ليسمعوا منها، وليتلقَّوا العلم عنها مجتمعا يتآمر فيه الرجال والنساء بالمعروف ويتناهون عن المنكر. لم يكن مجتمعا ملعونا تشيع فيه الفاحشة فيسكت العلماء ويتملصون من واجبهم. في ذلك المجتمع كانت تغضَب المؤمنة، وتحتج، وترفع شكواها إلى المقام العالي إن زعم أحد أنه أولى بالفضل منها، وأنها أحط منه درجة في الإيمان والجهاد.

كانت روح المسجد لا روح المراقص والحانات والشواطئ مَعَارِضِ اللحوم الأنثوية هي السائدة. فَخَوْفـًا من أن يستعمل الإباحيون والإباحيات ما كان من لقاء وتعارف وتزاور ومذاكرة بين الصحابة رضي الله عنهم والصحابيات استعمالا مضلِّلا نُسرع إلى التأكيد أن اجتماع المؤمنين والمؤمنات في ذلك القرن الخَيِّرِ عالَمٌ آخر غير العالَم الذي يَتخذه الإباحيون مرجعا، ويتبنون فلسفته مذهبا. البَوْن شاسع بين جاهلية وإسلام. الإسلام هو ذاك الذي نقرأه في السيرة النبوية حيا، والجاهلية المعاصرة هي النموذج الأتم لما تنحط بالإنسان غرائزه لَمّا طوى صفحة البحث عن معنى وجوده، وجَهِل الله، وكفر به، وبالدار الآخرة.

(1) سورة الأعلى، 14.

(2) سورة الشمس، 9.

ما مقارنة اللقاء بين المؤمنين والمؤمنات في قرن النور مع لقاء الفواسق والفاسقين في هَوَس الاختلاط الإباحي إلا كمقارنة بهائم ترعى الأخضر واليابس مع الملائكة، كاد طُهْرُ تلك القلوب أن يُلحِق الصحابيات بالملائكة. كانت الملائكة تسلم على أحدهم، وينزل جبريل عليه السلام بالتحية من عند الله لأمتِه أم المؤمنين خديجة.

شتان ما بين مؤمنات تغذت عقولهن وقلوبهن بالقرآن، وتزكت نفوسهن بتربية من يتنزل عليه القرآن، وما بين من ابتلعتهن الفلسفة الدوابية! هذه الفلسفة تقول: إن البنات يُغَرْغِر في ضميرهن الكبت ومركبات النقص بسبب انعزالهن عن الأولاد. تأتيهن الصحة النفسية، والعافية السكولوجية، والعفوية والبراءة، إن اختلطن برُفقائهن.

فلسفة دوابية زاحفة تحتل ديار المسلمين موقعا موقعا. أصبح ذلك الهوَس واقعا. أصبح الاختلاط أمرا مألوفا لا تنفر منه إلا النفوس المتخلفة عن العصر المتشبثة بشيء عتيق اسمه الدين. في المؤسسات التعليمية والإدارية والاقتصادية اختلاط ينتج عنه هبوط في مردودية التعليم والإنتاج، وفي صحة العلاقات الاجتماعيَّة. نتَجَ الاختلاط عن تدَنٍّ في الأخلاق وانكسافٍ في الدين، ونتج عنه اشتغال الرجال بالنساء، واشتغال النساء بالرجال. فلا الدنيا أفلحنا فيها ولا الآخرة نرجوها.

تبخر الحياء الفطري بعد اندثار الوازع الديني. فالغرائز تقود القِيَم. والمستمسكات بدينهن كالقابضات على الجمر في وسائل النقل والحافلات المكتظة والقطارات. جوٌّ تشعر فيه بالارتياح تلك التي جرَّدها من الدين ومن الحياء جو الفساد العام، فهي في تماسٍّ جسمها مع جسوم الرجال كالسمكة تنتعش في الماء. حظٌّ في شأنها، وإهْدارٌ لكرامتها وخنق لحريتها أن تعزلها أو تحدثها عن حياء وحِشمة.

إن نداء تحرير المرأة التحرير الدوابيّ يعبِّئُ النسوة لأن معه شاهدين اثنين، وحُجتين اثنتين. أولاهما البؤس الذي تعاني منه المرأة في بلاد المسلمين والظلم

الذي يجب تغييره بالنضال الحزبي النقابي النسوي المنضوي تحت لواء عالمية المرأة المناضلة قبل كل دين، ودون أي دين، ورغم كل دين. الشاهد الثاني والحجة المعبئة ضد الدين هي تزمت فقهاء الحَصْرِ والسَّجْن في البيت، والتجميد في الفكر، والتنكُّر للعصر.

وللنضال النسوي، والتبرج والاختلاط، زعيمات لا يفصل في فلسفتهن وسلوكهن فاصل بين السياسة والأخلاق. فضيلة واحدة هي أم الفضائل. حرية المرأة في امتلاك جسمها، تفعل به وفيه ما تشاء. فهي تعتني بعالم بدنها، وتنفق مالها لتزيين ساقيها، وتصفيف شعرها عند أشهر حلاق مختلط، واصطفاء آخر الموضات، ومنافسة الرفيقة في المكتب، والزميلة في المهنة، والجارة والقريبة. نضال، وحرية، ورغَدُ عيش، وثقافة أمريكانية، والإسلام العدُوُّ.

أما الكاسبة البائسة الأمية -أرملةً ومطلقةً وعانساً- فهمها في تحسين أوضاعها المعيشية، كأحقر ما تكون المعيشة. بوائس خادمات في بيت المتبرجة المترفة، يقدمن للضيفان المختلطين أنواع الحلال والحرام، ويتعلمن من مشاهد الانحلال، وكوامن الفحشاء، ما يأتي على إسلامهن الموروث، وما يقضي على بقايا الحياء وحواجز العفة مما تربين عليه في حضن الأم النازحة من البادية، ومما حافظت عليه الجدة الفلاّحة. وهكذا يسري فساد الاختلاط وهوسه من طبقة اجتماعية إلى طبقة. المترفات والمترفون يَحْسُونه خَمْرة رائقة، والبائسات يتجرَّعنَه علقما انتحاريا.

يوضع السؤال على المتحجبات المتعففات، ويُستغرَب مظهَرُهن، ويُسخَرُ من عقليتهن المتخلفة. تسأل وتستغرب وتسخر المشغوفة بجسمها ومظهرها، المجنون بها الرجل لَمَّا جننته، المفتونُ بها لَمَّا فتنته، ولَمَّا نضَبَ في شرايين نفسيتها ونفسيته الإيمان، ولما تغرب هو عن المسجد، وتغربت عنها هي روح المسجد. بعُدَت الشُّقّة النفسية بين مجانين الاختلاط ومجنوناته، وبين الأوّاباتِ والأوابين الذين كانوا يضجون في المسجد فزعا إذا ذكروا بعذاب القبر.

مختلطات ومختلطون، مجنونات هوَس البدَن وشيطان الزنى ومجنونون، أبهى ما تكون عند نفسها وعندهم المرأة حين تنزع عن نفسها ثيابها ملعونة بلعنة الله على شاطئ البحر. هناك يعرِض الشيطان بضاعته: عَرايا وعُراة في وسطهم خيط لا يستر مما ثَمّ شيئا. أية عُضلة هذه يا فقيهنا الجليل! وبأي عارض أو سد من خرسانة نسُد هذه الذَّريعة!

ما تعَرّت النساء عن الفضيلة وعن ثياب الحِشمة والحياء ما تعريْن في هذا الزمن. وما صدق عليهن قول رسول الله، وما كن أكثر استحقاقا لما توعدهن به في قوله صلى الله عليه وسلم: «صنفان من أهل النار لَمْ أرَهما. قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس. ونساء كاسيات عاريات مُميلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسهُن كأسنمة البُخْتِ (نوع من الجمال) المائلة. لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها. وإن ريحها لَتُوجد من مسيرة كذا وكذا». أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قمة التحضر والحرية الاختلاط في الشواطئ، لاَ أعلى منه في سلم الترقي الإباحي إلا الخَلْوَة بين المرأة والرجل. حُريتها وقوة شخصيتها وما تواضَع عليه المجتمع الراقي تُخْرِسُ الزوج إن دخل فوجد «الصديق» في جلسة مسؤولة مع المَدام. متخلف يغَارُ على قرينته!

أخزى ما يكون الاختلاط، إن كان في الخزي دركات، حين يخلو رجل بامرأة. وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك نهيا مشددا فقال: «لا يخلُوَنّ أحدُكم بامرأة إلا مع مَحْرَم». فقام رجل فقال: يا رسول الله! إن امرأتي خرجت حاجّةً، وإني اكتُتِبْتُ في غزاة جَيش كذا وكذا. قال: «ارجع فحُجَّ مع امرأتك». رواه الشيخان عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. ورَويا عن عُقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إياكم والدخولَ على النساء!». (أي في خلوة وفي غياب ثالث أو ثالثة) فقال رجل من الأنصار. أفَرَأيتَ الحَمْوَ؟ قال: «الحَمْوُ الموت» (الحموُ قريب من أقرباء الزوج) يُستأمَن ويألف البيت فيخاف أن يدخل الشيطان فينزَغَ.

أما ذو الـمَحْرَم المذكور في الحديث الأول الذي يجوز أن تخلُو به المرأة فهو من حرم الله عليها الزواج منه كالأخ والعم والخال، لا ابن العم وابن الخالة أليف البيت.

نختم هذه الفقرة بنُتَفٍ من نثر الرافعي رحمه الله، نثرٍ ينضَح غيرة وشهامة.

قال رحمه الله: «إذا قال رجل لامرأة قد فتنته أو وقعت في نفسه «أحبك»، أو قالتها امرأة لرجل وقع من نفسها أو استهامَها، ففي هذه الكلمة الناعمة اللطيفة كل معاني الوَقاحة الجنسية، وكل السخرية بالمحبوب، سُخريّةً بإجلال وتعظيم... وهي كلمة شاعر في تقديس الجمال والإعجاب به، غَير أنها هي بعينها كلمة الجزار الذي يرى الخروف في جماله اللحمي الدُّهني، فيقول: «سمين». لهذا يمنع الدين خلوة الرجل بالمرأة، ويحرم إظهار الفتنة من الجنس للجنس، ويفصل بمعاني الحجاب بين السالب والموجب، ثم يضع المؤمنين والمؤمنات في حجاب آخر من الأمر بغض البصر. إذ لا يكفي حجاب واحد».

ويقول رحمه الله: «وما هو الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة للمرأة، وإعلاءُ سِعْرِها في الاجتماع، وصونُها من التّبذل الممقوت (...)، والارتفاعُ بها أن تكونَ سِلعةً بائرة يُنادَى عليها في مدارج الطرق والأسواق. العيون الكحيلة! الخدود الوردية! الشفاه الياقوتية! الشعور اللؤلؤية! الأعطاف المرتجة! النهود الـ... أوَلَيْس فتياتُنا قد انتهين من الكساد إلى هذه الغاية؟ وأصبحن إن لم يُنادِينَ على أنفُسهن بمثل هذا فإنَّهن لا يظهرن في الطرق إلا لتنادي أجسامهن بمثل هذا».

ويقول رحمه الله في كتابه هذا الشيق الرَّيِّق «وحي القلم»: «لكأنّما وَاللهِ قد تَمَدَّد على سِيفِ (شاطئ) البحر في إسكندرية مارد من شياطين ما بين الرجل والمرأة، يخْدَع الناسَ عن جهنَّمَ بتبريد معانيها... وقد امتلأ به الزمان والمكان. فهو يُرعِشُ ذلك الرمل بذلك الهواءَ رَعشة أعصاب حية. ويرسل في الجو نَفْخاتٍ من جُرأة الخمر في شاربها: ثارَ فعربد. ويطلع الشمس للأعين في منظر حسناء عُريانةٍ ألقت ثيابها وحياءها معا. ويُرخى الليلَ ليغطِّيَ به المخازِيَ التي خجِل النهار أن تكون فيه».

«ولَعمري إن لم يكن هو هذا الماردَ، ما أحسبه إلا الشيطان الخبيثَ الذي ابتدع فكرة عرض الآثام مكشوفةً في أجسامها تحت عين التقي والفاجر، لتعمل عملها في الطباع والأخلاق. فسوّل للنساء والرجال أن ذلك الشاطئ علاج الملل من الحر والتعب. حتى إذا اجتمعوا، فتقاربوا، فتشابكوا، سوّل لهم الأخرى: إنّ الشاطئ هو كذلك علاج الملل من الفضيلة والدين». رحم الله الرافعي ورحمنا معه رحمة واسعة.

روح المسجد

المسجد مركز حياة المسلمين الاجتماعية والسياسية. مركز حياتهم الروحية قبل كل شيء. مكان استراتيجي فيه تعقد العقود مع الله تعالى توبةً وعَزْما صالحا، ومنه تنطلق الحركة الجهادية، وفيه يذكر الله ويُتلقى العلم بالله وبشريعة الله. فيه الصلوات الخمس جماعة يكاد حضورها يكون فرضا على الرجال، لا يتخلف منهم عن الجماعات إلا شبه المنافقين. فيه الجمعة وخطبتها. فيه اللقاء الطارئ والمشورة. وإليه يعود الفضل في تربية روح الخشوع والتقوى والأخوة والتعاون والولاية بين المؤمنين والانتماء إليهم.

هل تدخل المؤمنات في جامعة المسجد مع إخوانهن المؤمنين، أم هن فيه ضيفات ناسكات هامشيات، يحضرن الجُمَع ثم يرجعن إلى بيوتهن ليَقبعن فيها. تُلْغَى شخصيتهن، ويشطب على رقمهن في عالم الأحياء من الجمعة إلى الجمعة، ويحاصَرْنَ في علاقات التفاهة؟

تبشر الصحوة الإسلامية المباركة أن نَجْمَ الهَوَس الفاسق يخبو بإذن الله قريبا، وأن شمسَ الإسلام البازغَ قَرْنُها يَعُم نورها بإذنه تعالى قريبا، وأن الأيام القريبة تتمخض بقَدَرِهِ سبحانه عن مجتمع الفضيلة والرخاء والقوة قريبا. فما مكان المرأة في المسجد وفي معاني المسجد وتربية المسجد، وما حظها من الاسترواح برَوْح المسجد ورُوحه يومَ يطهر الله المسجدَ من الإسلام الرسمي والخطيب الموظف والواعظ البارد والإمام الجاهل؟

من الناس من يتذرَّع بالغَيرة الكاذبة أو الجاهلة ليُمسك المؤمنات عن المشاركة الكاملة في حياة المسجد. من مخلفات هذه الغيرة البدعية أن فصلوا المسجد عن مصلى النساء، وخصصوا لهن حيزا منعزلا ضيقا يترجِمُ عن نيات هذه الغيرة الـمُحدثة في سَجن المرأة في المسجد كما هي مسجونة في البيت.

هل كان مسجدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنشَقا مفصولة فيه المؤمنات عن المؤمنين؟ هل كن فيه ضيفات راحلات أم نزِيلاتٍ مكرّمَات متعلمات؟

لَرسول الله صلى الله عليه وسلم أغير من كل غيور على الدين وهو القائل: «**إذا استأذنكم نساؤكم بالليل إلى المسجد فأذنوا لهن**». رواه الشيخان عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما. سيدنا عبد الله بن عمر معروف من بين الصحابة بتسننه وتَحَرِّيه. روى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنّكُم إليها**». فسَمعه بلال بن عبد الله فقال: والله لنمْنَعَهُن! فأقبل عليه عبد الله بن عمر فسبّه سبا سيئا ما سمعه الراوي سبه مثله قط، وقال: أُخبرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول: والله لَنمنَعَهُنّ؟! روى هذا مسلم. وبلال الذي تلقى السب هو ابن عبد الله بن عمر نفسه. فانظر كيف أدبوا أبناءهم. قال ابن دقيق العيد الفقيه الجليل رحمه الله: «وأُخِذَ من إنكار عبد الله بن عمر على ولده وسبِّه إياه تأديب المعترض على السنن برأيه، وعلى العالم بهواه».

كان المؤمنات الصحابيات يحضرن صلاة الفجر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: «كُنّ نساء المؤمنات يشهدن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر مُتَلَفّعاتٍ بمروطِهِنّ (متلففات في غِطائهن)، ثم ينقَلِبْنَ (يرجعن) إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة، لا يعرفُهُنّ أحد من الغَلَسِ (ظلمة آخر الليل)». رواه الشيخان.

وكنّ نساء المؤمنات يحضرن صلاة العشاء بصبيانهن والليل في أوج سلطانه. قالت أمنا عائشة رضي الله عنها: «أعْتَمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعتَمَةِ (تأخرَ عن الخروج لصلاة العِشاء، وهي صلاة العتمة وقد أظلم الليل)، حتى ناداه عمر: نام النساء والصبيان! فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**ما ينتظرها أحد غيرُكم من أهل الأرض**. ولا يُصَلَّى يومئذٍ إلا بالمدينة. وكانوا يصلون العتمة فيما بين أن يغيب الشفَقُ إلى ثلث الليل الأول». رواه البخاري ومسلم.

يحضرن المؤمنات بصبيانهن. لم يكن ضيفات عابراتٍ يفسدن الصلاة بحضورهن وضجيج صبيانهن. من حسن حظ الصبي في ذلك العصر المبارك أن الأمهاتِ الفقيرات لم تكن لهن خادمة تحرس الصبيان، فيفتح الصبي عيْنيه على السنة حية. ويَعطِف رسول الله صلى الله عليه وسلم -وهو أعلم بحق الله- على بكاء الصبيان في الصلاة وعلى انشغال الأمهات فَيخفف الصلاة. لا يطرد الأمهات والصبيان. قال سيدنا أنس خادم رسول الله الأمين: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع بكاء الصبي مع أمه وهو في الصلاة، فيقرأ بالسورة الخفيفة». وقال الرسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إني لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلَها، فأسمعُ بكاء الصبي. فأتجَوّز في صلاتي مما أعلم من شدة وَجْد أمه من بكائه**». روى الحديثين الشيخان والترمذي والنسائي.

لله وِجدانُ أم وشفقتُها على صبيها تلين قلب نبي الله، فيُغير ذلك الوِجدان الفطري نية نبي الله، ويُخفف الصلاةَ رحمةً من الله بالأم والصبي، وسنَّةً لنعلم أن للأمهات المؤمنات مكانهن في المسجد وحقهن فيه، لا يجادل في ذلك إلا معترض على السنة جاهل بها، مُفْتٍ برأيه!

ويحضُرْنَ المؤمنات الجُمُعة، يواظبن عليها فيتعلمن من الخطبة الأسبوعية التي سنتها أن تكون مدرسة لا حفلة خطابية لتمجيد الحاكم. قالت أمّ هشام بنت حارثة بن النعمان: «لقد كان تَنُّورنا وتَنُّور رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدا سنتين أو سنةً وبعضَ سنةٍ. وما أخذتُ (ق والقرآن المجيد) إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقرأها كلّ جمعة على المنبر إذا خطب». رواه مسلم. التنور فُرن الخبز. فأم هشام جارة تشترك مع أمهات المؤمنين في التنور.

يحضرن المؤمنات الصلوات الخمس فيتعلمن الخشوع، ويحضرن الجمعة وخطبتها فيأخذن القرآن، ويصلين على الجنازة فيتذكرن الموت وما بعد الموت.

ويصلِّين صلاة الكسوف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي طويلة شديدة، حتى إنه يُغشى على بعض المصليات والمصلين من طول القيام في حرارة

الجزيرة العربية، وربما من شدة تأثير الخشوع. قالت سيدتنا أسماء الصديقية: «أطال رسول الله صلى الله عليه وسلم جدا حتى تجلاَّني الغَشْيُ. وإلى جنبِي قِربَةٌ فيها ماء. ففتحتها وجعلت أصب منها على رأسي». رواه مسلم. وفي رواية له قالت: «فجعلت أنظر إلى المرأة أسَنَّ مني، وإلى الأخرى هي أسقَمُ مني». كن شاباتٍ ومُسنات، تنظر إحداهن إلى الأخرى فتتجلَّدُ وتتعلمُ الصبر مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه.

رُوحُ المسجد ما هي حضور في مواعد، وأداء لركوع وسجود. إنما روح المسجد الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر. في صلاة الكسوف رأى الصحابة رجالا ونساء رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأخر حتى ينتهي إلى صفوف النساء، ويتقدم مرة أخرى. فلما فرغ من الصلاة أخبرهم قائلا: «**ما مِن شيء توعدونَه إلاَّ قد رأيته في صلاتي هذه. لقد جيء بالنار، وذلكم حين رأيتموني تأخرت مخافةَ أن يصيبني من لَفْحها. وحتى رأيت صاحِب المِحْجَنِ** (عَصاً معقوفة) **يجر قُصْبَه في النار** (أمعاءه). **كان يسرق الحاج بمحجنه، فإن فَطِنَ له قال: إنما تعلَّق بِمِحْجني! وإن غَفل عنه ذهب به. وحتى رأيت فيها صاحبة الهرة التي ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خَشاش الأرض حتى ماتت جوعا. ثم جيءَ بالجنة. وذلكم حين رأيتموني تقدمت حتى قمتُ في مقامي. ولقد مددْتُ يدي وأنا أريد أن أتناول من ثمرها لتنظروا إليه. ثم بدا لي أن لا أفعلَ. فما من شيء تُوعدونه إلا قد رأيته في صلاتي هذه**». رواه مسلم.

أخبرهم صلى الله عليه وسلم بما أرِيَ من آيات الله. رأي العين. وصدقوا هم ورأوا بأعين قلوبهم. فالآخرة عندهم والجنة والنار يقين، والمعذبون والمنعمون نماذج. ما علموا من نبي الله صلى الله عليه وسلم إلا الصدق. التقى صدقه بتصديقهم، فآمنوا بالغيب. وتنْفتح قلوبهم في كل صلاة وخطبة وتعليم لتتلقى شحنة من الإيمان من منبع الإيمان. وتسري من قلب طاهر لقلب طاهر آيات الصدق ما بين رجال مؤمنين ونساء مؤمنات فتلتئم البيئة الروحية الجامعة المسجدية.

حب الله ورسوله جمعهن وجمعهم. وما جدران المسجد إلا وِعاء يبقى فارغا لولا روح حب الله ورسوله، وروح الوَلايَة في الله ورسوله. روى البزار بسند صحيح كما قال الحافظ الهيثمي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أُتِيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقيل له: «هذه الأنصار رجالها ونساؤها في المسجد يبكون». قال: «**وما يُبكيها؟**» قال: يخافون أن تموتَ. قال: فخرج فجلس على منبره متعطفا بثوب، طارحـًا طرفيه على منكبيه، عاصبـًا رأسَه بعصابة. فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**أما بعد أيها الناس، فإن الناس يكثرون وتَقِلُّ الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام. فمن وَلِيَ شيئا من أمرهم فليَقْبَل من محسنهم، ولْيَتجاوز عن مسيئهم**».

حب الأنصار من الإيمان، والوَلاية في الله بين المؤمنين والمؤمنات يأمرون رجالا ونساء بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسولَه. ذلكنّ أخواتِ الإيمان ما تعلمت الصحابيات في مسجد رسول الله من سنة رسول الله ومما أنزِل على رسول الله. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه مهاجرات ومهاجرين أنصاريين وأنصاريات.

كان المسجد مُصلاَّهن أحيانا كثيرة لا يُخْلينه. إن تعذر على الواحدة حضوره، واطمأنت الأخرى إلى أن صلاتها في قعر بيتها مقبولة عند الله، حضرت الأخريات يطلبن العلم ويجددن الإيمان، صفا بِصف مع الرجال.

أمرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يمسَسْن طِيبا إذا شهدت إحداهن صلاة العِشاء كما جاء عند مسلم من حديث زينب الثقَفِيّة رضي الله عنها. ذلك لكي يخسأ الشيطان فلا يجد منفذا من شم أنف ولا تلصص عين.

وعلمهن صلى الله عليه وسلم أن يرصصن صفوفهن خلف صفوف الرجال، أدبـًا وحشمة واتقاء لفتنة مصلين رجال، من شأن الرجال أن يَفتنهم النظر أكثر مما يفتن النساء. روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خيرُ صفوف الرجال أولها وشرها

آخرها. وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها». للصلاة والاصطفاف أدب، وللانصراف أدب.

روى البخاري والنسائي وأبو داود عن أم سَلَمَة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمكث في مكانه يسيرا (أي بعد الصلاة). قالت: فنَرَى -والله أعلم- لكي ينصرف النساء قبل أن يُدركهن الرجال». في رواية: «إن النساء في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كُن إذا سلمن من المكتوبة (الصلاة المفروضة) قمن».

وتشارك المؤمنات المأمومات الإمام في ضبط الصلاة من حيث ركعاتها وسجداتها واليقظة إلى حركاتها. يذكرنه إن نسي كما يذكره الرجال. فرضهن في ذلك كفرض الرجال، إلا أنهن لا يتكلمن. روى الشيخان عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: «**ما لي رأيتكم أكثرتم التصفيق! من نابَه** (وقع له) **في صلاته شيء فليُسَبِّحْ. فإنه إذَا سبّح التُفِتَ إليه. وإنما التصفيق للنساء**». وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحجاب إذْنٌ ورمز

تعبر بحجابها وزيها عن أشواق إسلامية وروح المسجد لما تتمكن في طواياها. فرّت من الهوَس والاختلاط، لكن لم تمر بمجالس الإيمان لترُوحَ روْح الإيمان. وأخرى سترت شعرها وأطراف بدنها حياء فطريا وتقليدا. وأخرى أعجبها زي المتحجبات يُنَوِّعنه فيكون زينةً من الزينة. وأخرى وجدت راحة ضميرها، وحسبت أن صلحها مع الله يتلخص في ستر أجزاء من جسمها.

فاللباس الإسلامي المحتشم رمز في نفس اللابسة لما يعتلج في ضميرها وما يختصم، وهو في عين المراقب السياسي مقياس لقوة المد الإسلامي.

أما في أصل الشرع فالحجاب إذنٌ صريح للمرأة المسلمة بالخروج من بيتها لحوائجها وصلاتها وكسبها ومشاركتها العامة في الحياة. إذ لولا ضرورة الخروج، ومشروعية الخروج، لما كانت هناك حاجة لتوصية المرأة المسلمة بستر زينتها وصَوْن جسدها. إنما الصوْن وواجب السّتْر اتقاءٌ للأنظار الأجنبيّة خارج بيتها أساسا.

إن كان الستر واجبا تعصي المسلمة ربها بكشف ما لا ينبغي كشفه وكان رمزا للتوبة والشجاعة في مقاومة السلطة التي تلاحق المتحجبات، ورمزا للصمود أمام مقاومة الأسرة وضغوط المجتمع التقليدي في مرحلة ما قبل ظهور الصحوة وانتصارها، فإن التركيز على الحجاب، واعتباره هو الدين، ورمي المسلمات اللاتي لما يُتَحْ لهن الستر بأنهن فاسقات، لمن مثبطات الدعوة، ومُضِلاّتِ الفهم.

قد يكون الحجاب والزي أحبولة منافقة تروِّج بها الفتاة البائرة الحائرة لنفسها، ظاهرة بمظهر الطهر. أي خفاءٍ وراء ذلك الظهور؟ من أية جذور باطنية يتغذى المظهر؟

حجابٌ أحبولةٌ وحجاب سجن. من الوعاظ من يأخذ بأشد ما في مذاهب الفقه من شدائد، فالحجاب عنده نقاب وقُفاز ولون أسود وقطنة في الفم قبل أن تتكلم

المرأة فتؤذي العالم بصوتها العورة. ويوَدّ الواعظ لو تلبس المرأة جِلدا سميكا أو تتخذ لباسا من الصفيح والقصدير إمعانا في الشدة وتحريجا بغير دَليل شرعي في دين ما جعل الله فيه من حرج.

في هذه الوهلة العجلَى نعرض أحكام الستر. وعلى المؤمنات أن يرجعن لدراسة أبي شقة العلمية فقد خصص جزءا كاملا من نَيِّفٍ وثلاثمائة صفحة للمسألة. والمؤمنة حق الإيمان من تتورع لكيلا تقلد واعظا شاذّا سمعت شريطا من أشرطته الملتهبة حماسا وصدقا. ما نقصهُ الإخلاص في دين الله، لكن نقصه الفقه في دين الله. والمؤمنة إن كشفت ما أمرها الشرع بستره توشك أن تصنّف مع أهل النار الكاسيات العاريات. وهي إن ساهمت في ترويج الفقه الشاذ عارضت سنة رسول الله، وساعدت على جعل الحرج في الدين، فكذبت كلمات ربها وكتابه.

مجتهد القرن الثامن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أخذ بأشد آراء الإمام أحمد. أخذ برأي مروي عن شيخ المحدثين العظيم لا يبيح فيه للمرأة أن تكشف من جسمها للأجنبي ولو الظفر. وهو رأي شاذ مخالف لما عليه جمهور علماء الأمة.

لاَ ننقص من قيمة المجتهد الإمام أحمد، ولا من علم شيخ الإسلام. نعوذ بالله أن نطعن في أئمة المسلمين. لكن الأئمة العظام رضي الله عنهم تلامذة صغارٌ متواضعون أمام سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: «إذا صح الحديث فاضربوا بقولي عُرضَ الحائط!». وقال عن سلَفِهِ الإمام الأعظم أبي حنيفة: الناس عالَة في الفقه على أبي حنيفة. أبو حنيفة مقَدَّمُ الفقهاء الأئمة استفتاه رجل فأفتاه. فسأله الرجل: أهذا الذي قلتَه هو الحق الذي لا باطِلَ معه؟ فيجيبه أبو حنيفة رضي الله عنه في تواضع العلماء: وما يدريك! لعله الباطل الذي لا حق معه! وبكى الإمام مالك رحمه الله في مرض موته لما بلغه أن الناس تستشهد بآرائه وأقواله، مع أنها اجتهاد قد يرجع عنه.

المجتهد مع الدليل لا مع هواه. فهو ينظر في الأدلة التي صحت عنده ليستنبط أحكاما تُصلِحُ حال الأمة. فاجتهاده توفيق بين الدليل ومقاصد الشريعة. يختلف رأي مجتهد عن رأي مجتهد، ويخالف المجتهد قوله الأول إن ظهر له أجود منه. ويجتهد الفقهاء داخل المذهب فيَكون الرأي الراجح والمرجوح، والضعيف في المذهب، وقول المتقدمين، وقول المتأخرين، والصحيح في المذهب، والمشهور، والمنصور، والمعمول به. الخ.

لهذا فمن يعتبر رأي فقيه هو الرأي الواحد الصواب جاهل بما هو الفقه. والمتشددون في عصرنا يعتمدون على أقوال وآراء الإمام أحمد رضي الله عنه. فإذا أكدها واختار منها مجتهد القرن الثامن شيخ الإسلام أصبحت الكلمة النهائية في الدين. والعجيب أن آراء الإمام أحمد لم تُدَوّن في حياته لأنه يكره ذلك. وروى عنه الناس من بعده آراءً متضاربة تعكِس سير اجتهاده وتحوُّلَه من رأي إلى رأي في فترات حياته وتقدمه في فهم روح الشريعة. كان يريد رحمه الله أن يرجع الناس إلى الأصول. لذلك ترك للأمة «المسند» هذا الكتاب الجامع العظيم.

وترك وصيتَه ودلالته على النهج القويم في قوله: «إنما كانوا (يعني من أدركهم من العلماء) يحفظون ويكتبون السنن. فأما هذه المسائل تُدَوّن وتُكتب في الدفاتر فلست أعرف فيها شيئا. وإنما هو رأي لعله قد يدعه غدا، ينتقل عنه إلى غيره».

هذه كلمات عن تاريخ انحباس الفقه وانغلاقه وتشدده.

نسمع الآن إلى مجتهد القرن الخامس ابن حزم الظاهري رحمه الله يضع أصبعنا على الدّليل، ويعرض فهمه للدليل. قال رحمه الله في «المحلى»: «وأما المرأة فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾[1]. إلى قوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[2]. فأمَرَهن الله تعالى بالضرب بالخمار على

(1) سورة النور، 31.
(2) سورة النور، 31.

الجيوب. وهذا نص على ستر العورة والعنق والصدر. وفيه نص على إباحة كشف الوجه. لا يمكن غير ذلك».

ويأتي ابن حزم بحديث البخاري عن ابن عباس: «أنه شهد العيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه عليه السلام خطب بعد أن صلى. ثم أتى النساء ومعه بلال. فوعظهن وذكّرهن وأمَرهن أن يتصدقن. فرأيتُهن (يقول ابن عباس) يُهوين بأيديهن يقذفنه في ثوب بلال». قال ابن حزم: «فهذا ابن عباس بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى أيديهن. فصح أن اليد من المرأة والوجه ليسا عورة. وما عداهما ففُرِض عليها سَتْره».

ويأتي ابن حزم بدليل ثان هو قصة الفضل بن عباس الذي أرْدَفَه رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، فأتته امرأة من قبيلة خثعم تستفتيه. قال ابن عباس راوي الحديث: «فأخذ الفضل يلتفت إليها، وكانت امرأة حسناء، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحوِّلُ وجه الفضل إلى الشِّقِّ الآخر». قال ابن حزم: «فلو كان الوجه عورة يلْزم سَتْره لَما أقرها عليه السلام على كشفه بحضرة الناس، ولأمَرَها أن تُسبِلَ عليه من فوق. ولو كان وجهها مُغَطّىً ما عرف ابن عباس (يعني الفضل أخا عبد الله بن عباس راوي الحديث) أحسناءُ هي أم شوهاء. فصح كل ما قلناه يقينا. والحمد لله كثيرا».

ونتخطى من القرن الخامس إلى القرن الثاني عشر، متجاوزين اجتهاد المتشددين، لنرى كيف يلتقي المجتهد الشوكاني رحمه الله مع ابن حزم. يقول في «نيل الأوطار»: «النبي إنما فعل ذلك (أي عندما أخذ يحوِّل وجه الفضل عن النظر إلى الخثعمية) لمخافة الفتنة. لِما أخرجه الترمذي وصححه من حديث علي، وفيه: «فقال العباس (والد الفضل عم النبي صلى الله عليه وسلم). لوْيتَ عنق ابن عمك!» فقال (أي النبي صلى الله عليه وسلم): **رأيت شابا وشابة فلم آمَنْ عليهما الفتنة**».

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: «وقد استنبَط منه (من الحديث السابق) ابنُ القطان جواز النظر عند أمن الفتنة حيث لم يأمرها بتغطية وجهها. فلو لم يفهم

العباس أن النظر جائز ما سأل. ولو لم يكن ما فهمه جائزا ما أقره (النبي صلى الله عليه وسلم) عليه. وهذا الحديث أيضا يصلح للاستدلال به على اختصاص آية الحجاب السابقة (قوله تعالى عن نساء النبي: فاسألوهن من وراء حجاب) بزوجات النبي صلى الله عليه وسلم. لأن قصة الفضل في حجة الوداع (في السنة العاشرة) وآية الحجاب في نكاح زينبَ في السنة الخامسة من الهجرة».

ويروي الشوكاني عن القاضي عياض الإمام المحدث المالكي قوله حِكايةً لأقوال العلماء: «إنه لا يلزمها ستر وجهها في طريقها. وعلى الرجال غض البصر».

ويلخص الشوكاني مسألة حجاب المرأة المسلمة فيقول: «والحاصل أن المرأة تُبدي من مواضع الزينة ما تدعو الحاجة إليه عند مزاولة الأشياء والبيع والشراء والشهادة».

ونجد حتى في قرن سد الذرائع قرنِ ابن تيمية، وعند أقرب الناس إليه تلميذِه وصاحبِه الحافظ ابن كثير الشافعي المذهب، ما يخالف اختيار ابن تيمية مخالفة تامة. قال في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.[1] ما يلي: «ويُحتَمَلُ أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير «ما ظهر منها» بالوجه والكفين. وهذا هو المشهور عند الجمهور».

ويأتي ابن كثير بالحديث الذي رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن أختها أسماء دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رِقاق، فأعرض عنها وقال: «**يا أسماء! إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا**» وأشار إلى وجهه وكفيه. حديث يُستأنَس به لأن بعض المحدثين يطعَنون فيه بأنه مُرسل، لم يسمع خالد بن دُريك عن عائشة. على أن للحديث ما يقويه.

ونجد الفهم المشهور عند الجمهور عند المالكي أبي بكر بن العربي قال في «أحكام القرآن»: «والصحيح أنها من كل وجه (أي الزينة المباحُ إِظهارها) هي التي في الوجه والكفين. وإنها هي التي تظهر في الصلاة وفي الإحرام عبادة، وهي التي تظهر عادة».

(1) سورة النور، 31.

ويخالف الجمهورَ الحنابلَةُ المتأخرون فيقولون إِن عورة الصلاة غيرُ عورة النظر. ولا دليل يقوم بذلك. كما يخالِف الجمهورَ الدعاةُ إلى النقاب والقُفّاز اعتمادا على حديث نهى فيه النبي صلى الله عليه وسلم النساء عن لبس النقاب والقفاز أثناء الإحرام. وليس مفهوم هذا النهي إقرارُ لبسهما في غير الحج. ويعتمدون على حديث ابن ماجة الذي تَقول فيه أمنا عائشة: «لما قَدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهو عَروس بصفية بِنتِ حُيَيٍّ، جئن نساء الأنصار فأخبرن عنها. قالت: فتنكَّرتُ وتنقَّبْت فذهبت. فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عينَيَّ فعرفني. قالت: فالتفتُّ فأسرعت المشي فأدركني».

غارت أم المؤمنين من ضرتها الجديدة، وتنكرت بالنقاب. كيف أصبح لباس بعض نساء العرب يتنكرن فيه ويتجملن به وينهى عن لبسه المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحج سنة ثابتة؟

نختم بكلمة الإمام النووي المحدث الفقيه الشافعي المذهب قال: «المشهور من مذهبنا أن عورة الحرة جميع بدنها إلا الوجه والكفين. وبهذا كله قال مالك وطائفة. وهي رواية عن أحمد... وممنْ قال عورة الحرة جميع بدنها إلا وجهها وكفيها الأوزاعي وأبو ثور. وقال أبو حنيفة والثوري والـمُزني: قدماها أيضا ليسا بعورة. وقال أحمد: جميع بدنها إلا وجهها فقط».

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

آداب اللقاء

أشَدُّ غيرة على دين الله من رسول الله لا يكون، وأعلم منه بروح الشريعة وحكمة الله جل وعلا لا يكون. فلنكف عن تقليد اجتهادات تقطعنا عن المرجع الوحيد المعصوم، ولنقلد رسول الله صلى الله عليه وسلم في علاجه لقضية المرأة. تلك الغيرة التي آلت بالناس إلى أن يحبسوا المرأة فلا يكون لها إلا خرجتان في حياتها: واحدة من بيت أبيها إلى بيت زوجها والثانية منه إلى قبرها غيرة مَرَضية بدعية آثمة. والمجتهد الذي منع المرأة المسلمة من إظهار ظُفرها، والذي اختار قوله، والذين يقلدونه في زماننا ما وجدوا من وسيلة لصد تيار الفتنة إلا سد الأبواب على المرأة. بحث المجتهد في الدليل الشرعي عمّا يسند هومه ويحقق أهدافه الإصلاحية. هو قدّر الهدف، واختار الوسيلة، وأفتى في نطاق ما أتيح له من حيِّزٍ، وفي حدود مكانه وزمانه وأحواله.

وشرع الله وسنة رسول الله خالدان.

هؤلاء التائبات العائدات من انحلال الهوَس، وهؤلاء اللاتي لا يزلن في إباقِهِنّ وغفلتهن عن ربهن، هل يجدن في دين الله وفي سنة رسول الله سَعَةً لاستيعاب ضرورات الحياة اليومية التي تفرض على المسلمات الكدح في المعامل، والاشتغال في الإدارة، ولقاء الزملاء الرجال في محافل التَعَلّم والتعليم، ومزاولة المِهَن التي يلتقي فيها الرجال بالنساء كالمستشفيات والمحاكم وسائر المؤسسات الاجتماعية؟ هل يجدن سَعَة في الإسلام أم يكون الفقه القاصر للإسلام عائقا عن تصريف حياة الأمة في دائرة الشرع، فيسقُطَ مشروع الحكم الإسلامي لأن التقليد والحرفية والظاهريّة والعَمَى عن حقائق العصر عطلت العقول وأربكت الإرادات؟

هل نكون مسلمات إن قلدنا أئمة عظاما أوصونا أن نضرب بأقوالهم عُرض الحائط إن صح الحديث. أم نبقى بُلَهاء مبتدعين في دين الله ننصُر مذهب فلان وفلان ونخذل سنة رسول الله؟

في الناس رجال ونساء كالأوابِدِ الشاردة، بعضهم شرد عن دين الله كفرا وفسوقا، وبعضهم شرد جهلا وتعصبا من حيث يظن أنه ناصر السنة. أوابد كفرتْ، وأوابدُ كفَّرَت، وبدّعت.

وفي الناس والحمد لله مؤمنات اشتَدّ على هواهن ونفوسهن نَكيرُهن. وشغَل بالَهن آناء الليل وأطراف النهار مصيرُهن. مع المؤمنات حديثنا نعرض معهن ونستعرض مشاهد من الآداب الرفيعة للقاء بين المؤمنين والمؤمنات من خلال فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإقراره.

قبل نزول الحجاب الخاص بأمهات المؤمنين، والذي سنعرِض له في الفقرة المقبلة بحول الله، كان أمهات المؤمنين كعامة النساء، منطلقاتٍ يجالسن الرجال بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم ويؤاكلنهم ويحادثنهم.

كان الرجال والنساء تأدبوا بآداب القرآن الذي يُثني الله عز وجل فيه على أب العرب إسماعيل عليه السلام الذي ربّى أهله وأمرهم ونهاهم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾.[1]

كان المؤمنات والمؤمنون المتجالسون المتآكلون يعيشون مع الوحي يوميا، وكان ذكر الآخرة والجنة والنار، وما فيهما ومن فيهما، ومجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومجالس الإيمان بين مؤمن ومؤمن وبين مؤمنة ومؤمنات، قد غرست في القلوب وهذبت في النفوس مخافة الله الذي ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.[2] وكان الستر والحجاب الشرعي أدبا ظاهرا خلْفَه التقوى.

كان غض البصر فضيلة راسخة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبا، ومصافحة الرجال للنساء ممنوعة. وكان الزواج المبكر عادة عند العرب زكاها الإسلام.

(1) سورة مريم، 54-55.
(2) سورة غافر، 19.

كل هذا حاصَر الغرائز في نطاق ضيق. وقد رأينا الفقرة السابقة كيف تعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الفضل بن عباس في آخر سنة من سِنِي النبوءة. نورد هنا قصته كما أوردها الشيخان لدلالتها البالغة. عن ابن عباس (أخ الفضل) قال: «أرْدَفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الفضل بن عباس يوم النحر خلفه على عَجُز راحلته. وكان الفضل رَجُلا وَضيئا (جميلا). فوقف النبي صلى الله عليه وسلم للنّاس يفتيهم. وأقبلت امرأة من خثعم وضيئةٌ تستفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم. طفق الفضل ينظر إليها وأعجبه حسنها. فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم والفضل ينظر إليها، فأخْلَفَ بيده، فأخذ بذَقَنِ الفضل، فعدَل وجهه عن النظر إليها».

أمين الله على دينه هل تشنّج وأزبد وأرعَد وهو كان في موقف يفتي فيه الناس. أي كان مشهد الفضل وافتتانه بالجمال، وما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم به على ملإٍ من الناس. فكان المشهد وفعل الرسول وعلاجه للموقف فتوى فعلية مجسدة في آخر عمره الشريف صلى الله عليه وسلم.

وكانت الفتوى العملية مستمرة طول ثلاث وعشرين سنة. تثبت أن المرأة المسلمة شخص كامل الحق في المجتمع ما لزمت ولزم الرجال الآداب الشرعية. وليس هناك نص واحد في كتاب الله ولا فتوى قولية من رسول الله تمنع المسلمات والمسلمين من اللقاء والتعامل والتّحادث والتعاون.

حتى غير المسلمين، وهم مظِنّة الفسق، كانوا يغشَوْنَ بيوت النبي ويروْن أمهات المؤمنين قبل نزول الحجاب الخاص بهن. روى الشيخان عن أمنا عائشة رضي الله عنها قالت: «دخل رهْط (جماعة) من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليك! ففهِمتُها (السام: الموت) فقلت: عليكم السام واللعنة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **مهلا يا عائشة! فإن الله يحب الرفق في الأمر كله**. فقلت: يا رسول الله! أوَلَمْ تسمعْ ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **فقد قلت: وعليكم**».

وتشارك أمهات المؤمنين يحْملن حَظهن من الجهاد والرد على الكفار كما سمعنا. ويوَاسين المريض كما نقرأ في رواية البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لـمَّا قدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وُعك (أصابتهما الحُمّى) أبو بكر وبلال. قالت فدخلتُ عليهما فقلت: يا أبَتِ كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجِدُك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحُمّى يقول:

كل امـرئٍ مُصَبَّحٌ في أهْلِـه والمـوت أدنَـى مـن شِـراك نعلـهِ

«وكان بلال إذا أُقْلِعَ عنه (كفّت عنه الحمى) يرفع عقيرَتَه (صوته) ويقول:

ألا ليـت شِـعري هـل أبيتَـنَّ ليلـة بِــوادٍ وحولـي إذخِـرٌ وجَليـل[1]
وهــل أرِدَنْ يــوما مياه مَجَنَّــةٍ[2] وهـل يَبْدُوَنْ لِي شـامَةٌ وطَفيلُ[3]

قلت: حنين إلى الوطن وشعر وأدب ترويه العالمة بلغة العرب وأشعارها وأيامها. قالت: فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرتُه فقال: **اللهم حبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشدَّ، وصحِّحْها وباركْ لنا في صاعها ومُدِّها، وانقُل حُماها فاجعلها في الجُحفة**».

وكُنَّ أمهات المؤمنين يَستَضِفْن ويصحبن رسول الله صلى الله عليه وسلم في استضافاته. روى مسلم عن أنس أن جارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فارِسِيّاً كان طيِّبَ الـمَرَق. فصنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم (طعاما)، ثم جاء يدعوه، فقال: «**وهذه**؟ لعائشة. فقال: **لا!** فقال رسول صلى الله عليه وسلم. **لا!** ثم عاد يدعوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **وهذه**؟ قال: **لا!** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لا!** ثم عاد يدعوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **وهذه**؟ قال: نعم! في الثالثة. فقاما يتدافعان (يمشي الواحد منهما إِثْرَ الآخر) حتى أتيا منزله».

(1) إذخِرٌ وجَليل: نباتان بمكة.
(2) مَجَنَّة: موضع بمكة.
(3) شامَةٌ وطَفيلٌ: جبلان بمكة.

نترك للمؤمنات والمؤمنين أن يستخرجوا من هذا الحديث وأمثالِه الكثيرة دروس الرفق والسعة واللطف والأدب.

مرق طيب وضيافة. وتجيء ساعة الجِد والأزْمة والقتال فتشارك المؤمنات مشَمِّراتٍ. عن أنس قال: لما كان يومُ أُحُد انهزم الناس عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم. قال: «ولقد رأيتُ عائشة بنتَ أبي بكر وأمَّ سُلَيْم وإنهما لمشمِّرتان أرَى خدَمَ (خلاخيل) سوقهما، تَنْقِزان القِرَبَ (تنقلانها بسرعة) على متونهما، تُفْرِغانه (أي الماء) في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتُفرغانه في أفواه القوم». رواه الشيخان.

وبعد أن نزل الحجاب الخاص بأمهات المؤمنين الذي فرض عليهن أن لا يكلمن الناس إلا من وراء حجاب، استمرت مشاركتهن في حياة المسلمين.

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما جاءَ النبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَتلُ ابْنِ حارثة وجعفر وابن رواحة (في غزوة مُؤْتة) جلس يُعْرَفُ فيه الحزن. وأنا أنظر من صائِر الباب (شق الباب). فأتاه رجل فقال: إن نساء جعفر، وذكر من بُكائهن. فأمره أن ينهاهن، فذهب. ثم أتاه الثانيَةَ لم يُطِعْنَه، فقال: **انْهَهُنَّ!** فأتاه الثالثةَ قال: والله غَلَبْننا يا رسول الله! فزَعمتْ أنه قال: **احْثُ في أفواههن التراب!** فقلت: أرغَمَ الله أنفَكَ! لم تفعل ما أمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم تترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من العَناء!».

وتخرج أم سلَمة أم المؤمنين من حجرتها إلى المسجد لتتعلم. قالت: «كنت أسمع الناس يذكُرون الحوض، ولم أسمعْ ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما كان يوما من ذلك والجارية تمشُطني، فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **أيها الناس!** فقلت للجارية. استأخِرِي عني! قالت: إِنما دعا الرجال ولم يدعُ النساء! فقلت: إني من الناس! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **إني لكم فَرَطٌ على الحوض** (أي أسبقكم هناك وأهيِّئُ لكم) **فإِيَّايَ! لا يأْتِيَنَّ أحدُكم فَيُذَبَّ عني كما يُذَب البعير الضال! فأقول: فيم هذا؟ فيُقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك! فَأقول: سُحقا!**». رواه مسلم.

علم تعلمنه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكن يعلمن الناس دينهم في حياته وبعد وفاته. روى الشيخان عن أنس أن ثلاثة رهط من الصحابة جاءوا إلى بيوت أزواج النبي يسألون عن عبادته صلى الله عليه وسلم. الحديث. وكان تعليمهن بعد وفاته صلى الله عليه وسلم مبذولا للرجال والنساء على السواء، وإن كانت أحكام الشريعة فيما يخص النساء أكثر ما يردُ عليهن السؤال عنه.

يأتيهن النساء من بعده استمرارا لحدبه صلى الله عليه وسلم عليهن. كان يدخل عليهن يسأل عن أحوالهن ويعلمهن. دخل على أمِّ بِشْر الأنصارية فسألها: «**من غرس هذا النخل؟ مُسلم أم كافر؟ فلما أخبرته أن غارسه مسلم قال: لا يغرس مسلم غرسا ولا يزرع زرعا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيءٌ إلا كانت له صدقة**». رواه مسلم عن جابر. وروى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم دخل على ضُباعةَ بنتِ الزبير فعلمها كيف تحج وهي وَجِعَةٌ تشترط في بيتها وتقول: «اللهم مَحَلِّي حيث حبستني!». ورويا أيضا عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم دخل على أم سِنان الأنصارية يسألها لِمَ لَمْ تحجّ مع الناس حجة الوداع.

عنايته صلى الله عليه وسلم بهن ورفقه وحِرصه على تعليمهن ووصيته بالإحسان إليهن من المعلوم المشهور. ولله عاقبة الأمور.

خدمة البيت

من واجب المرأة وحقها أن تخلُو في بيتها ساعات من نهار أو ليل لتتفرغ لخدمة ذويها وإسعادهم بمعْزِلٍ عن المشَوِّشات والمعوِّقات. لا يتم السكون والمودة والرحمة في البيت إذا كان وقت المرأة لا يحترم، وإذا كانت المشقات والخدمة في البيت لا يتعاون على حملها الرجل والمرأة.

وقد شرع الله عز وجل أدب الخلوة الزوجية في أدب الوقت في قوله عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1].

من علامات تربية الأطفال والبالغين تربية حسنة احترامهم لوقت الناس، وحياة الناس الخاصة. ويُثْقِلُ بعضهم ويتطفل ويدخل الفوضى والتنغيص في أوقات الناس وبرامجهم، فيؤذي ويُقْذِي. فإذا كان البيت بيت دعوة وكان الوافدون عليه أرسالاً تعذر على أهل البيت أن يتساكنوا المساكنة الطيبة. نعم بيت المؤمنة ينبغي أن يتسع ويتَّسِعَ خاطرها للواردين على الدعوة، لكن في حدود ينبغي أن تعرف.

لهذا أنزل الله عز وجل الحجاب الخاص بأمهات المؤمنين. أستغفر الله من هذا التعليل الجزئي، ولربنا العليم الحكيم حكمة فيما يَشْرَع لا سبيل لنا إليها.

كانت نساء الإسلام يُكثِرْن الدخول على رسول الله صلى الله عليه وسلم. روى الشيخان عن سعد بن أبي وقاص أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما وعنده نساء من قريش «يكلمنه ويَستكثرنه

(1) سورة النور، 58.

عالية أصواتهن» ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك. فانقبضن من عمر وابْتدرن الحجاب. وقلن لعمر لما عاتبهن على عدم هيبتهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أنتَ أفظّ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم!

كان عمر يريد لبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الحُرْمة والهيبة. روى البخاري عن أنس أن عمر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله! يدخل عليك البَرُّ والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب. فأنزل الله تعالى آية الحجاب في صبيحة عُرس أمنا زينب رضي الله عنها في قصة رواها الشيخان نأخذ من مسلم إحدى رواياته.

عن أنس رضي الله عنه قال: «تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل بأهله (أمنا زينب). قال: فصنَعَت أمي أمّ سُلَيْم حَيْساً (حلوى من تمر وسمن وأقِط)، فجعلته في تَوْرٍ. إناء كالقِدر. فقالت: يا أنس! اذهب به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقُلْ. بعثَتْ بهذا إليكَ أمي، وهي تُقْرِئُك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل! فقال (النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه بالتّور): **ضعه.** ثم قال **اذهب فادعُ فلانا وفلانا وفلانا ومَن لقِيتَ. قال: فدعوتُ مَن سمَّى ومَنْ لقيتُ.** قال (الراوي عن أنس): قلت لأنس: عدَدَ كَمْ كانوا؟ قال: زُهاء ثلاثمائة. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **يا أنس، هاتِ التور**. قال: فدخلوا حتى امتلأت الصُّفة والحجرة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لِيتحلّقْ عشرةٌ عشرةٌ، وليأكل كل إنسان مما يليه.** قال: فأكلوا حتى شبِعوا. قال: فخرجَتْ طائفة، ودخلت طائفة، حتى أكلوا كلّهم. فقال لي: يا أنس، **ارفَعْ**. فرفعت، فما أدري حينَ وضعتُ كان أكثرَ أم حين رفعتُ.

قال: وجلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس، وزجتُه مُوَلِّيَةٌ وجهها إلى الحائط. فثَقُلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على نِسائه ثم رجع. فلما رأوا (أي الثُّقلاء) رسول الله صلى الله عليه وسلم قد

رجع، ظنوا أنهم قد ثقُلوا عليه. قال: فابتدروا الباب، فخرجوا كلهم. وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أرْخى السِّتْر. ودخل وأنا جالس في الحجرة. فلم يلبث إلا يسيرا حتى خرج علي وأنزلت هذه الآيات. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأهن على الناس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.[1] إلى آخر الآية قال أنس: أنا أحدَث الناس عهدا بهذه الآيات.

يعني أنه أول من حضر نزولها وقراءة النبي صلى الله عليه وسلم لها. وتقرأ المؤمنات من سورة الأحزاب ما يخص أمهات المؤمنين من خطاب وآداب ابتداء من الآية 28. وآية حجاب أمهات المؤمنين الذي فرض عليهن وعلى المؤمنين أن لا يُسألْن ولا يُكلمن إلا من وراء حجاب في الآية 53 من سورة الأحزاب. وإن دراسة هذا السياق من الأحزاب كدراسة سورة النور وحفظها لمما يتأكد على طالبات العلم بدينهن.

في رواية للبخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع يده على حَيْسة أمّ سليم وتكلم بما شاء الله. دعاء وبركة، وإناء صغير يأكل منه ثلاثمائة رجل حتى يشبَعُوا ثم يبقى ملآن. هذه معجزة من معجزاته الكثيرة صلى الله عليه وسلم. لم يؤمنوا ولم يؤمنّ الصحابة والصحابيات رضي الله عنهم ذلك الإيمان اليقيني إلا بعون من الله تعالى وتأييد تمثل من بين ما تمثل في حدوث هذه المعجزات التي صحبت حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صحبت حياة الرسل من قبله. ما الإقناع العقلي وحدهُ أخضعهم وأقنعهم. بل أقنعهم خرق النواميس الحسية وهم يشهدون وينظرون ويأكلون ويشربون.

معجزاته صلى الله عليه وسلم تتقدمها معجزة القرآن الخالدة. ومع نزول آياته البينات التي أفحمت فصاحة العرب وأعجزتها، كانت الآيات الكونية الكثيرة تُفحم عقولهم. معجزة انشقاق القمر، معجزات الإخبار بالغيب مما وقع ويقع، ومما في الدنيا والجنة والنار، وتكليم الجمادات والنباتات إيّاه، وتسليم

(1) الأحزاب، 53.

الأحجار عليه، وإتيان النخلة إليه لما سأله الأعرابي ذلك دليلا على نبوته، وسمْعُ الصحابة الجذع الذي كان يخطبُ عليه يحِن ويئِن لما استبدلوا به منبرا، وزيادة الطعام والشراب، ونبع الماء من بين الأصابع الشريفة، وإجابة الدعاء، ونزول المطر بدعائه، وكف الأعداء عنه. وقبل كل شيء معجزة شخصيته وكمال خلقه وصدقه وأمانته.

كانت المعجزة مكوِّنًا مألوفا في حياة الصحابة. كانت المعجزة مظهرا ودليلا على أنه بشر لا كالبشر. ويتِمُّ كمالُ النبي بكمال الخلُق البشري. من قِمة التميز بالخوارق والعلم الغادق إلى التواضع والبساطة واللطف. عند البخاري أن الأَسْوَدَ، أحد التابعين، سأل عائشة رضي الله عنها ما كان يصنع النبي صلى الله عليه وسلم في بيته. فقالت: «كان يكون في مهنة أهله، تعني خدمة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة». المَهنة لغةً «الحِذق بالخدمة والعمل». وفي شمائل الترمذي تروي عمرة عن عائشة قالت: «ما كان إلا بشرا من البشر، يفْلي ثوبه، ويحلُبُ شاته، ويخدم نفسه». وعند الإمام أحمد وابن حبان من رواية عروةَ عنها أنه صلى الله عليه وسلم يخيط ثوبه، ويَخْصِفُ نعله. زاد ابن حبان: ويُرَقِّع دَلْوَه. وزاد الحاكم في الإكليل: ولا رأيته ضرب بيده امرأة أو خادما.

من يستطيع أن يُخْجِلَ الأزواج الأنانيين، خاصة في عصرنا والمرأة موزعة الأوقات مكدودة؟ في البوادي شظف العيش، وجلب الماء، والأشغال الزراعية زيادة على مَهنة البيت. وفي مدن الإسمنت والسُّكنى المتأزمة، والقساوة، تعاني المرأة موظفة أو عاملة كادحة أو مثقلة بالذرية عناء مضاعفا. من يقرأ على الرجال سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته وفي مهنة أهله حتى تذوب الأنانيات، وحتى يعتبر المؤمنُ أنه شرف عظيم لهُ وسُنة تكمل دينه أن يضع يده في شؤون البيت ليساعد؟ لكنَّ مَن نقَصَتْ قيمته عند نفسه وفي حقيقة الأمر ينتفخ في البيت ويهين الزوج في البيت.

تصبر الزوجُ على خذلان الأناني المستكبر في بيتها، أو تشكو إلى القاضي. استنبط فقهاؤنا الأعلام رضي الله عنهم أحكاما ليضعوا في فَمِ الأناني من

الأزواج لجام الإلزام، لَمَّا لم تُمْلِ عليه رجولته التواضُع والبذل ومساعدة الضعيفة المغلوبة. اتفق فقهاء المذاهب على أن الزوج الموسر تلزمه نفقة خادم لزوجه كما تلزمه نفقتها ونفقة أولادها. عَدُّوا ذلك معاشرة بالمعروف من قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1]. وهذا فقه الإمام البخاري الذي أورَدَ حديث عائشة في أماكن منها «كتاب النفقات» من صحيحه.

حُكم الإلزام بنفقة خادم على الموسر من الأزواج رادع يفصل النزاعات. متى وصل الحال بالزوجين إلى المحكمة والقاضي فقد تُوُدّع من المطلوب. والأصل أن تخدم المرأة بيتها حاملةً من مشقة ذلك مثل ما يحمل الرجل من مشقة الكد خارج البيت. حافظية. وقِوامة تتآلف القلوب فيما بينها على الرفق والتراحم والتعاون.

لما شكت فاطمة الزهراء رضي الله عنها إلى أبيها سوء الحال من معاناة الرحى وجلب الماء حتى مَجِلت اليد وأثر حبل القربة في النحر الشريف واغبرت الثياب من الكنس لم يُسعفها بخادم، ولا سأل عليا عليه السلام نفقة خادم، وهو كرم الله وجهه كان من أفقر المهاجرين. إنما علمها وعلمه التسبيح وقال لها: «**اتقي الله يا فاطمة، وأدي فريضة ربك، واعملي عمل أهلِكِ**». رواه الشيخان والترمذي وأبو داود عن علي بن طالب رضي الله عنه.

وصية رسول الله صلى اله عليه وسلم لأحبِّ أهله إليه فاطمة نصيحة إلى كل مؤمنة أنْ لا ترهِق الأناني في بيتها بالمطالب، بل تُخجِله بالتفاني في خدمة بيتها و«عمل أهلها».

وهذه سيدة عظيمة من الصحابيات، أسماء بنت أبي بكر، تصف مهنتها في عمل أهلها وخدمة بيتها. نورد طرفا من حديث رواه الشيخان عنها. قالت: «تزوّجني الزُّبيْرُ وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غيرَ فرَسه، فكنت أعلِفُ فرسَه وأكفيه مؤونته (أي مشقتَه) وأسوسُه. وأدُق النوَى لناضحه (جمل يُجْلب عليه الماء) فأعلفه، وأستقي الماء، وأخرِزُ غربَهُ (أرَقِّع الدلو)، وأعجن.

(1) سورة النساء، 19.

ولم أكن أحْسِن أَخْبزُ. فكانت تخبز لي جارات من الأنصار، وكن نسوة صدق. قالت: وكنت أنقُل النوى».

رجالُ العِلْيَة من الصحابة ونساؤها كانوا في جهاد. فرس الزبير كان ثالث ثلاثة أفراس في غزوة بدر. وكان لقلة الخيل وشرفها تسمَّى الخيل بأسماء كما يسمى الأبناء. اسم الفرس الذي علفته وساسته الصديقية وحملت مَؤونته عن زوجها «اليعسوب».

وتخدم أمهات المؤمنين بيوتهن وضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يرين في ذلك إلا واجبا وشرفا. يروي مسلم عن جابر أنّه أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى بعض حُجَر نسائه فدخل عليها الحجاب، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**هل من غَداء؟**» فقالوا: نعم. فأتِي بثلاثة أقْرِصَةٍ، فَوُضِعْنَ على نبِيٍّ (على شيء مرتفِع). فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قُرصا فوضعه بين يديه وأخذ قرصا آخر فوضعه بين يدي ضيفه، وكسر الثالث نصفين، أعطى الضيف نصفا وأخذ نصفا. ثم قال: «**هل من أُدْم؟**». فلم يكن عند أم المؤمنين إلا خَلّ ائتدم به رجلان ممن مَنّ الله عليهما، لِيتعلم مَن بعدهُما طرْح الكُلَفِ.

وفي «كتاب النكاح» من صحيح البخاري: «باب قيام المرأة والرجال في العُرْس وخدمتهم بالنفس». أورد فيه عرس أبي أَسَيْد وأُمّ أسيد.. حفلة حضرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، خدمتهم العروسُ نفسُها، صنعت الطعام وقرَّبَتْه إليهم. وأتحفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بتَمْراتٍ بَلَّتْها وقدمتها إليه في تَوْرٍ مصنوع من حجارة.

ذلك كان من سعدها وسعادتها. وتلك كانت سُنة البساطة والتواضع والخدمة. والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثامن

المؤمنة زوجا وأما

- سمع الله قولها
- الميثاق الغليظ
- اختيار الزوج
- زواج عقل أو زواج حب
- خاتم من حديد
- مُدَّان من شعير
- تعدد الزوجات
- القِوامة والوصية
- الرجل الخشن
- «الجنة عند رجلها»

سمع الله قولها

زواج المرأة تمام رشدها، وبيت الزوجية حصنها وبُرجها. إن خرجت من حُرمة آدابه، أو هجمت على الزواج وهي جاهلة بما لها وعليها من جانبي الشرع والطبع، من جانبي الخُلُق والتخلق، وإنْ هي لم تصبر وتصابر وتحمِلْ نصيبها من مجهود التآلف والملاءمة، ولا قامت بواجبها في الحافظية على الشمْل أن ينتثر، غامَرَتْ بحياتها. وإن هي أساءت اختيار الزوج، أو تنَمَّسَ لها قبل الزواج ثم أذاقها بعده من الجور ما لا يُحتمل، تحول بيتها إلى سجن وعذاب، لا استقرار فيه ولا استمرار.

ندخل مستعينين بالله العلي العظيم إلى هذا الفصل من خصوص قضية امْرأة ظلمها زوجها، فاشتكت إلى رسول الله، فسمع شكواها الله. ذلك لنعْقِل عن الله أن القضية التي سمع فيها رب العباد جل شأنه شكوى المظلومة ما هي بالقضية التافهة.

ابْتأسَتْ قضية المرأة وانتكست منذ عهد التنزيل، فإحياء أصداء ذلك الاستماع الإلهي في نفوس الأزواج من شأنه أن يثير فيهم خوف الله تعالى، فينصروا قضية المرأة أولَ ما ينصرونها زوجا وأما. في قصة المظلومة التي نقرأ عنها أول السورة التي سُمِّيت بنازلتها، سورة «المجادِلة»، اللوم للزوج والتقريع والتوبيخ. وكفارة الظهار عقاب لكل رجل تدفعه نزوة غضبه إلى القول المنكر والزور المُزَوّر.

أما التالون للقرآن والتاليات بقلوب حاضرة وَجِلَةٍ، فالدرس إليهم من قصة المجادلة، واسمُها خَوْلَةُ بنت ثعلبة، يتجاوز النازلة النوعية ليذكرهم بحق الزوج على زوجها، وحرمتها عند ربها، فيوقرها وينصفها ضِعفين، إلا أن يكون هو من معدِنٍ خسيس أو تكون هي لئيمة الطبع، معكوسة الفطرة.

رَوى البخاري والنسائي عن أمنا عائشة رضي الله عنها قالت: «الحمد لله الذي وَسِع سمْعُه الأصوات. لقد جاءت المجادِلة خوْلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمته في جانب البيت. وما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.[1] إلى آخر الآية.

في رواية لابن أبي حاتم عن عائشة: «تبارك الذي أوعى سمعُه كلّ شيء. إني لأسمع كلام خولة بنتِ ثَعْلَبة، ويَخْفى عليَّ بعضُه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي تقول: يا رسول الله! أكل مالي، وأفنى شبابي، ونَثَرْتُ له بطني (ولدت له أولادا). حتى إذا كبِرتْ سنّي ظاهر مني. اللهم إني أشكو إليك». قالت عائشة: فما بَرِحَتْ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾.

كان سماع الله عز وجل شكواها، وإشكاؤها وعقاب الزوج الجائر، درسا استوعبه الصحابة. روى ابن أبي حاتم بسنده أن عمر بن الخطاب، في خلافته، لقِيتْه امرأة يُقال لها خولة بنت ثعلبةَ، وهو يسير في الناس. فاستوقفته فوقف لها، ودنا منها، وأصغَى إليها رأسَه، ووضع يديه على منكِبها، حتى قضت حاجتها وانصرفت. فقال رجل: «يا أمير المؤمنين! حبَسْتَ رِجالات قريش على هذه العجوز! قال عمر: وَيْحك! وتدري مَنْ هذه؟ قال: لا! قال هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة بنت ثعلبة! واللهِ لو لم تنصرفْ عني إلى الليل ما انصرفْت عنها حتى تقضيَ حاجتها! إلا أن تحضُر صلاةٌ فأُصليَها ثم أرجعَ إليها حتى تقضي حاجتها».

في رواية أن عمر مر عليها على حمار والناس معه، فاستوقفته طويلا ووعظته، وقالت: يا عمر! قد كنت تُدعى عُمَيْراً ثم قيل لك: عمر، ثم قيل لك: أمير المؤمنين. فاتق الله يا عمر! فإنه مَن أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب.

(1) سورة المجادلة، 1.

من أي شيء نعجَبُ في أزمنتنا هته التي تأله فيها الحكام وتفرعنوا، وأهينت المرأة وازدُرِيَ بها؟ أمن تواضع عمر وحلمه وعدله، أم من شجاعة عجوز مؤمنة؟

وما لَهن لا يكُنَّ صريحات في الحق، وما لهم لا يكونُ منهم أمثال عمر وقد ربتهم النبوءة ورباهم الوحي؟

أم عِمارة -تلك التي ثبَتت في أحد لما انهزم كثير من الرجال وقاتلت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيفها- أتَتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له كما يروي ذلك عنها الترمذي بسند حسن: «ما أرى كلَّ شيء إلا للرجال! وما أرى النساء يُذكرن بشيء! قالت: فنزلت الآية: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾.[2]

عربية تعلم بسليقتها أن لسان العرب الذي أنزل به القرآن يغلب صيغة المذكر إذا كان الجمع المخاطب أو الـمُخْبَر عنه رجالا ونساء.. (يأيها الذين آمنوا). بلسان العرب خطاب جامع. لكنها لشجاعتها في الحق طلبت مزيدَ بيان واحتجت. أكُنَّ نساءُ الإسلام نكِراتٍ جامدات!

كلا، ولا كان المسلمون والمؤمنون من الجَوْر كما كان زوج خولة الذي قال لها قولة الزور والمنكر: أنتِ عَليّ كظهر أمي! كلمة جاهلية من رواسب ماض مظلم. ولا كان الغضب يملكهم، بل كانوا من الطمأنينة والرفق على حَذْوِ المربي المعصوم صلى الله عليه وسلم.

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه، فأرسلت إليه إحدى أمهات المؤمنين بصَحْفَةٍ (إناء) فيها طعام. فضربت التي النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها يد الخادِم، فسقطت الصحفة

(2) سورة الأحزاب، 35.

فانفلقت. فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فِلَقَ الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: **غارَتْ أمُّكم!** ثم حبس الخادمَ حتى أُتِيَ بصحفة من عند التي هو في بيتها. فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كُسِرَتْ صحفتها، وأمسَك المكسورة في بيت التي كُسِرت فيه».

رجعنا من الاستماع الإلهي حين رُفِعت قضية المرأة إلى مجالي القُدُس، ونزلنا مع قضيتها إلى عاديات الحياة اليومية. ربنا جل وعلا وبخ ظالمها وعاقبه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم تلطَّفَ لضَعفها وغيرتها، فعالج بالحكمة. ذلك لنتعلم أن كبير الأمر وصغيرَه من أهم ما شمِلَتْه عناية الله ورسوله: زواجها وطلاقها ومعاناتها وعواطفها وصوابها وخطأها.

لا إله إلا الله محمد رسول الله، صلى الله على النبي الرؤوف الرحيم.

«**غارت أمكم!**». أي زوج يملك نفسه ويكفها عن الغضب وربة البيت تكسر عليه الأواني أمام أضيافه! ما حظه من الإيمان ومن السنة ذلك الجبار الذي ترتعد الجدران وتنكمش القطة لدخوله؟

كما نزل الوحي بإنصاف مظلومة، نزل أيضا بحل مشكلة مُعَلَّقَة. كانت زينب بنت جحش القرشية تزوجت زيْد بن حارثة الذي تبناه صلى الله عليه وسلم فكان يُسمّى زيد بن محمد، على عادة العرب في أدعيائهم. كرهت القرشية زيدا، وأراد الله عز وجل أن يشرِّع للمسلمين، فطلق زيد زينبَ، وزوَّج الله عز وجل زينبَ من حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم. امرأة يزوجها ربها، ويختار لها الزوج، وينزل في ذلك وحيا. لذلك كانت زينب التي قرأنا عن وليمتها في الفصل السابق تفتخر على أمهات المؤمنين.

وما لَها لا تفتخر! روى البخاري والترمذي والنسائي عن أَنَس الخادم الأمين قال: «جاء زيد بن حارثة يشكو. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اتق الله! وأمْسِك عليك زوجك! قال أنس: لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية. قال: وكانت تفتخر على أزواج

رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول: زوّجكنّ أهاليكُنّ، وزوَّجَني الله من فوق سبع سماوات».

الآية التي تحدث عنها أنس هي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[1]. بعدها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾.[2]

يمسك الملاعين من المستشرقين وتلامذتهم الملحدين بهذه الآية، فزعموا أن محمداً صلى الله عليه وسلم عشِقَ زيْنَب وأخفى عشقها وتظاهر بالنصيحة لزيد. ما قَدَروا الله حق قدره وما قدَرُوا قدَر النبوَة والرسالة والعصمة. وإنما أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أخفاه خشية مقالات العُرْف العربيِّ الذي كان ينكر زواج الأب بمطلقة ابنه -يعدون التبني نسبا- وقد أعلمه الله قبل طلاق زينب أن زيْنَب ستكون له زوجاً. وهذا ما رواه ابن أبي حاتم عن سيدنا الحسن البصري.

خُزعْبلات يروجها المستشرقون في الجناب النبوي، وأخرى اختلقها المختلقون ووضعها الوضاعون وكذبها الكذابون من كل ما يحط من قدر المرأة ويعتقلها ويحبسها في الريبة وسوء الظن. وسادت الأعراف الفاسدة تستشهد بأحاديث كاذبة ليتبارى الرجال أيهم أشد شكيمة على المرأة، وأقوى فحولة ورجولة وغيرةً مرضيّةً.

من ذلك الحديث الموضوع على لسان فاطمة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم سألها عن أفضل أحوال المرأة فقالت: أفضل النساء من لا ترى أحدا ولا يراها أحد. ويفتري الوضاعون فيزعمون أنه ضمها إلى صدره استحسانا لقولها وقال: ذرية بعضها من بعض. ومن ذلك كذبة: «شاوروهن وخالفوهن»

(1) سورة الأحزاب، 37.
(2) سورة الأحزاب، 37.

التي يكذبها فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين شاور أم سلمة زوجه في صلح الحديبية واتبع رأيها فحل مشكلة حيرت المسلمين. ومن ذلك كذبة: «لا تسكنوهن الغُرَفَ ولا تعلموهن الكتابة». وفِرْية «نعم الخَتَنُ (أي الصهر) القبر». وهي دعوة جاهلية لوأد النساء. ومن ذلك خرافة: «دفن البنات من المكرمات»، وهذه أشد من سابقتها وأعتى وأخزى.

ومن ذلك قذف المسلمات جميعا في الحديث الموضوع: «يُدعى الناس يومَ القيامة بأمهاتهم سَتْرا من الله عز وجل عليهم». ومن ذلك تسفيه المرأة وتجهيلها والاستهانة بها في اختراع: «طاعة المرأة ندامة». ومثله: «هلكت الرجال حين أطاعت النساء». وهو حديث يخرجه الناس عن سياقه ويطلقونه إطلاقا. وإنما الحديث جاء بسند ضعيف في قصة سَرِيّة من المسلمين ظَفِرُوا بخيل للمشركين تقودها امرأة. هلك المشركون حين أطاعوا مشركة في حرب المسلمين. فما بال المسلمة إن دعت إلى خير؟

ومن الخزعبلات وتحويل المرأة التي يسمع الله شكواها ويرفُق بها رسوله إلى تفاهة يلهو بها الرجل قولهم المكذوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم: «النساء لُعَب فتخيَّروا». وقولهم: «إنما النساء لُعَبٌ، فمَن اتخذ لُعبة فليُحْسنها».

قد يكون من أخفِّ هذه الموضوعات ضررا ونكاية بالمرأة حديث «زيّنوا مجالس نسائكم بالمغزل». الشغل شرف وفضيلة وإن كان الحديث موضوعا. لكن أبشع الموضوعات، وأقربها إلى رأي الكنيسة التي تعتبر المرأة شيطانا ورجسا قولهم المكذوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لولا النساءُ لعُبد الله حقا حقا». نعوذ بالله من خِزي الله وعذابِ الله جزاء من كذب على رسول الله.

الميثاق الغليظ

سمع الله جل وعلا شكوى المجادلة في زوجها لأن بغي الرجل على المرأة وخيانتها له خرق لعهد وثيق. الزواج الإسلامي ليس فقط عقدا بين ذكر وأنثى لإرضاء الفطرة، ولا هو استجابة للغريزة الراسخة في الإنسان فَحَسْبُ. بل هو عهد وطيد غليظ. بهذا وصفه الله عز وجل في الزجر عن رجوع الرجل في صداق المرأة وأكله بالباطل فقال: ﴿**وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً**﴾[1]. الإفضاء وصلة بين جسمين أعطاها القرآن حُرمتها، والميثاق عهد بين ذِمتين. فتَلاءم الاعتباران، الجسدي والنفسي القلبي، ليكوِّنا الوَثاق ويمتِّناه.

في لُغة العرب تدل كلمة «وثق» على السكون والاعتماد على شيء مَكين مأمون. والميثاق «عقد مؤكد بيمينٍ وعهد». ليس من شرط صحة الزواج الإسلامي أن تحلفَ له ويَحلِف لها، لكن مجرد القَبُول والرضى والإشهاد يتضمن العهد واليمين والأمانة. في صحيح مسلم عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في خُطبة حجة الوداع: «**استوصوا بالنساء خيرا. فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله**».

كلمة الله وأمانته وعهده وشريعته في الزواج هي: ﴿**إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾.[2] كَذا فسر «الميثاق الغليظ» المذكور في آية أخذ الصداق كلٌّ من ابن عباس وعِكرمة ومجاهد وأبو العالية والحسَن البصري وقتادة ويحيى بن أبي كثير والضحاك والسدي. ليس في ديننا وشريعتنا أعلى مصدرا من القرآن الكريم، فالإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان هما ضابطا الوفاء بالعهد وأداء الأمانة. يُمسِكُ بمعروف أو يطلق مرتكبا أبغض

(1) سورة النساء، 21.

(2) سورة البقرة، 227.

الحلال إلى الله، لا جناح عليه ما لم يظلم في الإمساك بالمعروف شرعا وطبعا وإنسانية ومروءةً مِن احترام المرأة وأداء حقوقها، وما لم يظلم في التسريح مبادئ الإحسان ورعاية الفضل الذي كان بينهما والعِشرة. ليس في ديننا ما يشبه الزواج الكاثوليكي الذي يحرم فيه الكهنة الذين استخفّوا بالمرأة وعدوها شيطانا فَصْمَ عقد زواجهم.

لمكان هذا الاختيار المتروك للزوجين قال الله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾.[1] هو ميثاق بين رجل وامرأة يبقيان عليه بشرط المعروف أو ينقضانه بشرط الإحسان. مَا نسب سبحانه الميثاق إلى نفسه، إِذ ميثاقه أبدي ملزم، من نقضه تعرض لغضب الله. وقد ذُكر في القرآن «الميثاق الغليظ» ثلاث مرات، إِحداهن ميثاق الزواج.

في القرآن الكريم ميثاق غليظ أخذه الله عز وجل من النبيئين. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقاً غَلِيظاً لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾[2]. محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم عليهم السلام هم أولو العزم من الرسل. فالميثاق الذي أخذه الله على سائر أنبيائه لم يوصف بالغلظ لفرق ما بين مقام أولي العزم وغيرهم من رسل الله وأنبيائه عليهم السلام.

وفَّى رسل الله بميثاق الله، وصدقوا في أداء ما عليهم من حقوقه فنالوا رضى الله. وخان الفسقَة الكفرة من بني إسرائيل ميثاقهم مع الله فلعنهم الله. قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقاً غَلِيظاً. فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقَّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إلاَّ قَلِيلاً . وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ

---

(1) سورة النساء، 21.
(2) سورة الأحزاب،7-8.

إلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً . بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾.[3] وفي آية أخرى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.[4]

ذلك جزاءُ من نقض عهدا غليظا أبرمه مع الله رب العباد. ويلحقُ بذلك النقض الفظيع الخائن، على درجة بشرية، خيانة عقد الزواج يبرمه العباد فيما بينهم، تشهد عليهم فيه كلمة الله، وتقتضيهم الوفاءَ به أمانة الله، كما يشهد عليهم فيه العدول من المؤمنين.

أُنيط بعقد الزواج في الإسلام معان جليلة ومقاصدُ نبيلة. فهو محترم شرعا، مشَجّع عليه، مرغوبٌ فيه، معتمدٌ عليه، يَربطُهُ الصدق والوفاء والعفة والمعروف والإحسان. يَرعى مقتضياته ويحمل مسؤولياته الزوج الرجل بقوامته، والزوج المرأة بحافظيتها. لكل منهما وعليه نصيب من آثار العقد وتكليفاته.

مقصِد سامٍ للزواج الإسلامي، حيث جعله الله سياجا صحِّيا واقيا من المفاسد، يصون في عش الزوجية الدافئ الفطرة التي فطر الله الناسَ عليها، لا تبديل لخلق الله.

تلك هي المبادئ والشريعة والقرآن.

فما الطريق لنسمُوَ بالزواج من واقع الهوس والاختلاط الإباحي المستهين بالقيم والفطرة والدين إلى مسؤولية جادة يُعتمد عليها؟ «التطبيع الجنسي» هو الكلمة التقدمية الحضارية في عصر الدوابية. المخاللة واتخاذ الأخدان دليل على حرية المرأة وانطلاقها من الأسر وامتلاكها لجسمها. «الاندماج الجنسي» ديموقراطية المجتمع المدني الحداثَوي. ونحن على درب الانحدار الفظيع الذي تعرفه مجتمعاتنا المفتونة التي يَسفك الحكام فيها دماء المؤمنين، ويهتكون أعراض المؤمنات. لأن المؤمنات والمؤمنين يرجعون إلى كلمة الله ويدعون النساء والرجال إلى حفظ أمانة الله.

(3) سورة النساء، 153-157.
(4) سورة المائدة، 14.

في أُفُق الحكم الإسلامي -القريب بإذن الله- لا بد من قطع دابر الهوس الاختلاطي في المدارس والإدارات والمؤسسات الاقتصادية ووسائل النقل المخجلة. ثم -و«ثُم» اعتبارية لا زمانية- ترتفع التربية بالرجل والمرأة، وييسر الله من فضله الوسائل المادية، حتى يَعافَ المجتمع هذا السقوط الحيواني، ويستبدل به الطهارة والنظافة.

الزواج الإسلامي نقيض للعلاقات السائبة غير المسؤولة ولا المقيدة بضابط شرعي أو خُلُقي. زواج الناس -حيثُ بقي شيء يُسمَّى زواجا- يَأْتَدِم بالمشاعر والعواطف، ويتصوَّنُ بالوفاء والعفة، ويتخوف من الوباء والخبائث، وكل أولئك مروآت لا يزيدها الإسلام إلا تكريما. لكن زواج المؤمنات والمؤمنين يُسبِغ عليه جلال الميثاق الغليظ قدسية، وتجلله الأمانة الإلهية، وتعظم من شأن تبعاته الكلمة. إن حفظت المرأة وقام الرجل بأعباء الميثاق الغليظ اكتست كل أعمالهما، وما يتبادلان من معروف، وما يتباذلان من عطاء، صبغة العبادة والتقرب إلى الله عز وجل.

في كل صباح ومساء يقضيانهما في ألفة ومحبة يُكتب لهما صدقة: في أي دين تكون المساكنة بين الزوجين عبادة؟ في الإسلام، وفي الإسلام الذي لا دين بالحق سواه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يصبِحُ على كل سُلاَمَى** (مفاصل الأصابع) **أحَدِكم صدقة: فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويُجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضّحَى**». أخرجه مسلم وأبو داود عن أبي ذر رضي الله عنه. وفي رواية لأبي داود. «**وبَضعَةُ أهله صدقة**». أي أن في اجتماعهما في الفراش صدقة. هما في بهجة الجسد والثواب يكتب لهما. والحمد لله رب العالمين.

تبارك الله! كيف ارتفع قدر الزواج فأشبه ميثاقُه ميثاق النبيئين! وكيف لحقت المعاشرة الزوجية بأصناف العبادات من ذكر وتسبيح وجهاد! الحمد لله رب العالمين.

لِعِزَّةِ الزواج الإسلامي ونفاسة معانيه ينبغي للمؤمنين والمؤمنات أن يستشيروا ويتحَرّوا قبل الاختيار لكي يجعلوا في جانبهم لا ضِدّهم كل شروط نجاح الزواج. ربَما يُقْدِمُ على الزواج بلاَ رَوِيَّةٍ، وبعاطفة هاجمة، الأغرارُ من الشابات. أما من لدغَهَا حَرُّ الخيبة وتحطَّم عماد بيتها فهي أحرص الناس على أن لا تُعيد التجربة الفاشلة.

طُلِّقَتْ فاطمة بنت قيس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما انقضت عِدتها جاءته تخبره أن معاوية بن أبي سفيان وأبا الجَهم خطباها، وتستشيره في أيهما أصلح لها. فقال رسول صلى الله عليه وسلم. «**أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه. وأما معاوية فصُعلوك لا مال له. انكحي أسامة بن زَيد**. فكرهته. ثم قال: **انكحي أسامة!** فنكحته، فجعل الله فيه خيرا. واغتبطت به». رواه مسلم.

أبو جهم عنيف يضرب، ومعاوية فقير للغاية. وأُسامة شاب أسودُ كان حِبَّ رسول الله وابنا لزيد بن حارثة. ربما كرهته لِسواد بَشرته. لكنها سعِدتْ به واغتبطت لـمّا أطاعت قول الناصح الأمين صلى الله عليه وسلم.

أحل الله عز وجل نكاح نساء أهل الكتاب في قوله عز من قائل: ﴿**وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ**﴾.[1] وتزوج بعض الصحابة رضي الله عنهم بكتابيات مِمَّن تأكدوا من أنهن محصنات، أي عفيفات. وكُنّ من أهل الكتاب متديناتٍ بدينهن. ومع ذلك كره الزواج من النصرانيات سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قائلا: «لاَ أعلم شركا أعظم من أن تقول إن ربها عيسى، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ**﴾.[2]

اجتهاد صحابي في عصر كانت فيه النصرانيات نصرانيات. فما بالك بعصرنا وقد تحلل القوم من كل دين، وتعَذّر، بل استحال، أن تجد منهن «محصنات» عفيفات. فهل يُناط الميثاق الغليظ بكوافر الزمن؟ إذا اختل الشرط بطل المشروط.

(1) سورة المائدة، 6.

(2) سورة البقرة، 219.

أجاب مصطفى صادق الرافعي رحمه الله عن السؤال فنصح قومه قائلا: «يا إخواني المصريين! أَسْدِي إليكم هذه النصيحة (...): إياكم إياكم أن تَغْتَرّوا بمعاني المرأة، تحسبونَها معانيَ الزوجة. وفرقوا بين الزوجة بخصائصها، وبين المرأة بمعانيها. فإن في كل زوجة امرأة، ولكن ليس في كل امرأة زوجة. واعلم أن المرأة في أنوثتها وفتونها النسائية كهذا السحاب الملَوّن في الشفَقِ حين يبدو: له وقت محدود، ثم يُمسَخُ مسخا. ولكن الزوجة في نسائيتها الاجتماعية كالشمس: قد يحجُبُها ذلك السحاب، بَيْدَ أنّ البقاء لها وحدها، والاعتبار لها وحدها، ولها وحدها الوقت كلّه.

«لا تتزوجوا يا إخواني المصريين بأجنبية: إن أجنبية يتزوج بها مصري هي مُسَدَّس جرائِمَ فيه سِتُّ قذائف: الأولى بَوار امرأة مصرية، وضَياعها بضياع حقها في هذا الزوج. وتلك جريمة وطنية. فهذه واحدة. والثانية إقحامُ الأخلاق الأجنبية عن طباعنا وفضائلنا في هذا الاجتماع الشرقي، وتوهينُه بها، وصَدْعُه. وهي جريمة أخلاقية. والثالثة دَسُّ العروق الزائغة في دمائنا ونسلنا. وهي جريمة اجتماعية. والرابعة التمكين للأجنبي في بيت من بيوتنا، يملكه ويحكمه، ويُصَرِّفُهُ على ما شاءَ. وهي جريمة سياسية». قلت: إلى هنا خطابه لقومه وفي مصر أقباط نصارى.

قال: «والخامسة للمسلم منا إيثارُه غيرَ أخته المسلمة. ثم تحكيمه الهوى في الدين، ما يعجبه وما لا يعجبه. ثم إلقاؤهُ السُّمَّ الدينيَّ في ذريته المقبلة. ثم صيرورته خِزْياً لأجداده الفاتحين الذين كانوا يَأخذونهن سبايا، ويجعلونهن في المنزلة الثانية أو الثالثة بعد الزوجة، فأخذته هي رقيقا لها، وصار معها في المنزلة الثانية أو الثالثة بعد عشيقها. وهذه جريمة دينية».

قال رحمه الله: «والسادسة بعد ذلك كله أن هذا المسكين يُؤْثر أسفله على أعلاه... ولا يبالي في ذلك خمس جرائم فظيعة. وهذه السادسة جريمة إنسانية».

رحم الله الرافعيَّ وألحقنا به مسلمين. والحمد لله رب العالمين.

اختيار الزوج

ما الذي يميز الصالح من الأزواج وغير الملائم في أعراف الناس؟ الزواج عند الناس رباط يؤمّن العلاقات الجنسية ويحفظها -ولا يَحفظ- من غائلة الأخطار الوبائية والقلاقل والبغاء. فالزوج الصالح ذو المال والمنصب والجمال والقوة.

أما الزواج الإسلامي فتلك الأهداف مقصودة فيه، لكن فوق ذلك معانٍ أخرى تسمو به ليكون الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات، يجمع شملهم الطهر والإيمان والإحسان والرحمة والمودة في الدنيا لِتسْعَدَ رحلتهم إلى الآخرة حيث يُقال: ﴿**ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ**﴾.[1]

فاختيار الزوج الصالح في الإسلام له معايير مشروعة، وتستخير المؤمنة ربها وتستشير المأمونين والمأمونات على النصيحة. والزواج في الإسلام تكليف شرعي أنيط بذوي قُربى من لا زوج لها وبالأمة في قوله عز وجل: ﴿**وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ**﴾[2]. فالسعي في ذلك ومساعدة الباحثة والباحث عن زوج من فضائل الأعمال.

أما المصطَفَيْن من عباد الله المبلغين رسالاته فإنه عز وجل يختار لهم أزواجا كما أخبرنا في كتابه العزيز حين خاطب محمدا صلى الله عليه وسلم وخاطبنا بقوله: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً**﴾.[3] زينب أم المؤمنين رضي الله عنها جعلها الله زوجا لحبيبه محمد بوحي يُتْلى. وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها جاءته البشرى بها في وحي المنام، وهو حق. روى البخاري عنها رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرها قائلا: «**أُريتُكِ في المنام يجيءُ بكِ الملَكُ في سَرَقَةٍ (قطعة) من حرير. فقال لي: هذه**

(1) سورة الزخرف، 70.
(2) سورة االنور، 32.
(3) سورة الرعد، 38.

امرأتك. فكشَفْتُ عن وجهكِ الثوبَ، فإذا أنتِ هي. فقلت: إن يكن هذا من عِنْد الله يُمضه».

ولحكمةٍ يعلمها سبحانه، كشف لنا عن بعضها، تزوّج نوحٌ ولوطٌ عليهما السلام امرأتين خائنتين. فضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط، كما ضرب مثلا للذين آمنوا مريم ابنة عمران وامرأة فرعون. من حكمة ذلك أن نعلم أن نفسا يوم القيامة لا تُغني عن نفس شيئا لقرابة قُربى ولا لقرابة زواج. ولنعلم أن صلاح الزوج لا يطعَنُ فيه خبث قرينها أو قرينته. عليهما أن يتحريا في الاختيار تحريا دقيقا، ثم مسؤولية الاستقامة والاعوجاج تقع على الذمة الفردية.

مسؤولية الزوج المرأة والزوج الرجل عن صلاح حالهما ومآلهما كاملة. وخائن الميثاق الغليظ منهما يرجع بغيه عليه وحده، وترجع عليه خيانته. قيل للمرأتين الخائنتين: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾.[1]

لا تغني نفس عن نفس من الله شيئا لزواج ولا لقربى. أوحى الله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾،[2] فجمع بطون قريش وخطب فيهم فكان مما قال: «**يا معشر قريْش! اشترُوا أنفسكم! لاَ أغني عنكم من الله شيئا! يا بني عبد مناف! لا أغني عنكم من الله شيئا! يا عباسُ بنَ عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئا! يا صفِيّةُ عمّة رسول الله صلي الله عليه وسلم! لا أغني عنكِ من الله شيئا! ويا فاطمة بنت محمد! سَليني ما شئتِ من مالي! لا أغني عنك من الله شيئا!**». الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

التزويج مسؤولية، واختيار. وهو أيضا فضيلة ندب إليها الشرع. «**النكاح سُنَّتي فمن أحب فطرتي فليستن بسنتي**». حديث نبوي رواه أبو يَعْلَى بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما. «**يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءَة** (النكاح) **فليتزوج، فإنه أغَضّ للبصر وأحصن للفرج**». حديث نبوي متفق عليه عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه.

---

(1) سورة التحريم، 10.
(2) سورة الشعراء، 214.

سنة الزواج وفطرته تُيَسرها الشريعة، لا تعسرها. تيسر المهور ونفقات العرس كما سنرى إن شاء الله. وتيسر فُرص الاختيار. في العصر النبوي الفاضل طُلِّقَتْ سُبَيعَةُ بنتُ الحارث وهي حامل، فلما وضعت وانتهت عِدتها «تجملَتْ للخُطاب. فدخل عليها أبو السنابل بن بَعْكَك فقال لها: ما لي أراكِ تجمَّلْت للخطاب تُرَجّين الزواجَ؟». رواه الشيخان. لا حرجَ إذاً في تسهيل لقاء الباحث عن الزواج والباحثة، في حدود لا تقْدَح في أعراض الأسرِ، ولا تصطدم بالأعراف الفاسدة المتناقضة: عُرفٌ تقليدي تُكَبِّلُهُ غيرةٌ ممزوجٌ فيها الخيْرُ والحذر وسوء الظن، وعرفٌ إِباحي هوَسِي اختلاطي. وإنها خطوات متدرجة حتى نتربى على سلامة الطوية ونبل المقصد وطهارة القلوب لتسودَ فينا السنة المطهرة.

في كتاب النكاح عند الإمام البخاري رحمه الله «باب عرض المرأة نفسَها على الرجل الصالح». ذكر فيه خبر المرأة التي جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض عليه نفسها. قالت: «يا رسول الله! أَلَكَ بي حاجة؟». روى هذا الحديث أنس بن مالك بعد زمان النبوَّة، فسمعته ابنة له نشأت في جو آخرَ غير جوِّ المدينة في عهدها الزاهر، فقالت: «ما أقلَّ حياءها! واسوأتاه!» فقال أنس رضي الله عنه لابنته: «هي خير منكِ! رغبت في النبي صلى الله عليه وسلم فعرضت عليه نفسها».

ما أسْرَع ما ساد العُرفُ فأنكر الناس السنة! بعد جيل واحد صاحت البنت واسوأتاه! فِراراً من السنة. فكيف ونحن عن ذلك العهد عشراتُ أجيال!

بعد هذا الباب باب عنوانه «باب عرض الإنسان ابْنته أو أخته على أهل الخير». ذكر فيه المحدث الفقيه البخاريُّ كيف عرضَ عمر بن الخطاب ابنته حفصَة على عثمان ثم على أبي بكر فامتَنعا، حتى خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصبحت إحدى أمهات المؤمنين. سبقت لها بذلك السعادة. قال أبو بكر بعد ذلك لعمر: «فإنه لم يمنعني أن أرجِعَ إليك فيما عرضتَ عليَّ إلا أنِّي كنت علمتُ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها. فلم أكُن لأُفشِيَ سِرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولو تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبِلتُها».

هكذا رأينا أن المرأة المسلمة تجملت للخطاب، ودخل عليها مسلم ينظر. باحثة وباحث جمعتهما البراءة والطهر. كلاهما يختار وتتسع الشريعة لهما، وتُوَسع عليهما في ذلك. ورأينا المرأة تعرض نفسها مباشرة على «الرجل الصالح» كما هو فقه البخاري رحمه الله. ورأينا المؤمن يعرض بنته على رِجال صالحين.

لا تنكر السنة من هذه الأوجه الثلاثة لتيسير فرص الاختيار شيئا. فإن أنكرها العُرف فالعُرف فاسد لا السنة. تزحف السنة على العرف التقليدي والعرف الإباحي لتزيلهما من مواقعهما. تزحف بمقدار وبخُطىً حكيمة. فالأمَدُ طويل بيننا وبين عصر الطهر والكمال، والأعراف هجَّامة، وقد سمعنا صيحة «واسوأتاه!» صرخت بها في وجه السنة بنت واحد من أكابر أهل السنة ورُواتها.

من التيسير الجماعي لِتَرائي الباحثين عن الزواج والباحثات اغتنام سنة خروج الرجال والنساء والأطفال إلى المُصَلَّى، في مَحْفِل عظمة الأمة في عيديها. نَصّ الحديث على خروج العواتق من الخُدور. وهن الفتيات المَصونات، يخرجن ذلك اليومَ، وتخرج الحُيّض. ما لبث العُرف بعد عهد النبوة أن زحف، فأمسك الناس عواتقهم عن الخروج، حتى صححت أم عطية الصحابية المسار، فأخبرت الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بإخراج العواتق من الخدور. روى ذلك البخاري، وعلق عليه الحافظ ابن حجر رحمه الله قال: «العواتق جمع عاتق. وهي من بلغت الحلم أو قاربت أو استحقت التزويج». وقال: «كانوا يمنعون العواتق من الخروج لِما حدث بعد العصر الأول من فساد. ولم تلاحظ الصحابية (أم عطية) ذلك، بل رأت استمرار الحكم على ما كان عليه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم». نعم، فسد أهل الزمان بعد العصر النبوي، والدُّعَّار ومقتنصو النظر الحرام في عصرنا أفحش نياتٍ وأقذَر طَوِيّاتٍ. هذا يعطينا قياسا لبعد المسافة، وضرورة التدرج، لتعود السنة إلى مقام السيادة بصلاح غالب أهل الزمان، لا يُثبِّطْ عزائمنا على إعادتها فساد الفاسدين من أهل الزمان.

بعد النظر في ظروف الاختيار ومسؤلياته وتكليفاته، نستمع إلى الوصايا النبوية تعطينا معايير الصلاح والأهلية. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الدنيا متاع،**

وخير متاعها المرأة الصالحة». رواه مسلم والنسائي عن عبد الله بن عمرو. المتاع انتِفاعٌ إلى مدة. هو صحبة بين الزوجين يمتد زمنها ما امتدَّ الوفاء بعقد الميثاق الغليظ وشرطيه: ﴿**إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾.[1]

وإذ تختلف معايير الناس في تقدير الصلاحية التي نطق بها الحديث، فيختار بعضهم الجمال، ويختار بعضهن المال والجاه، ويختار آخرون المصاهرة مع كبراء المجتمع، تأتينا النصيحة النبوية لترشدنا وتساعدنا وتفتح أعيننا على الصلاح الباقي، والصلاح الأنفع اجتماعيا ودينيا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحَسبها، ولجَمالها، ولدينها. فاظفَرْ بذات الدين تَرِبَتْ يداك**». متفق عليه من حديث أبي هريرة. كلمة «تربت يداك» استغراب وتعجب ممن يفضل على ذات الدين اعتبارات أخرى.

قال سيدنا جابر بن عبد الله في حديث متفق عليه: «تزوجت، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ما تزوجت**؟ قلت: ثيبا. فقال: **ما لَكَ وللعذارَى ولِعابِها!**». هذا حظ النفس في الزواج لا يهمله الشرع، وتحث السنة على ابتغائه، لكن في إطار الصلاحية الدينية.

ثم بعد حظ النفسِ يَزين صلاحية الدين، يأتي حق الأمة، وذُخر المستقبل. جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إني أصيبُ امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد. أفأتزوجها؟ قال: **لا!** ثم أتاه الثانية فنهاه. ثم أتاه الثالثة فقال: **تزوجوا الوَدود الولود، فإني مكاثِر بكم الأمم**». أخرجه أبو داود والنسائي عن معقِل بن يَسار رضي الله عنه. نرجع إن شاء الله لنبحث عن نوع الذرية الصالحة التي يصح أن يُكاثر بها نبينا الأمم يوم القيامة.

في الفقرة المقبلة إن شاء الله نبحث قضية الولي وشرطيته في التزويج. ونقدم هنا بابين من أبواب البخاري في «كتاب النكاح» من صحيحه. قال رحمه الله: «باب لا يُنكِح الأب وغيرُه البِكر والثيبَ إلا برضاها». معناه أن المرأة لا تُكْرِهُ

(1) سورة البقرة، 229.

على الزواج ممن لا ترضى به بحال. وروى البخاري في بابه هذا عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تُنكَحُ الأيِّمُ حتى تُستأمَرَ. ولا تنكح البِكرُ حتى تستأذن**». قالوا: يا رسول الله! وكيف إذنها؟ قال: «**أن تسكت**». وسألته أمنا عائشة قائلة: يا رسول الله! إن البِكر تستَحي! قال: «**رضاها صَمتُها**».

في الباب بعده قال البخاري: «باب إذا زوج الرجل ابنته وهي كارهة فنكاحه مردود». وروى حديث خنساءَ بنْتِ خِدام الأنصارية أن أباها زوجها وهي ثيِّبٌ فكرهت ذلك. فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرَد نكاحها.

هي تختار إذاً وترضى، وتسكت أو تحتج. روى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجة بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها أن فتاة دخلت فقالت: «إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خَسِيسَته (ليكسِبَ مكانة اجتماعية) وأنا كارهة. فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرته، فأرسل إلى أبيها فدعاه، فجعل الأمر إليها. فقالت: يا رسول الله! قد أجزتُ ما صنع أبي ولكن أرَدتُ أن أُعْلِمَ الناس أن ليس للآباء من الأمر شيء».

تحصّل لنا أن الزواج الإسلامي اختيار ومسؤولية وتيسير. وعُرف فاسد يصارع سنة مسنونة.

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

زواج عقل أو زواج حب

تُطاوَع نزوة عشق، أو يُساء اختيار زوج، فتكشف المعاشرة الزوجية ما كان دَسَّه ودسّاه التظاهر، وما كان عمّاه سوء التقدير، وما كانت غَمَّته القفزة العاطفية. ويفتح الإسلام بحكمته بابا للخروج فيشرع الطلاق.

الطلاق كشف حساب. الطلاق كارثة. الطلاق أبغض الحلال إلى الله كما جاء في الحديث. إن لَم يستَبِدّ العقل والموازين الدينية الخلقية عند الاختيار، فإن العقل يستغاث به عند الأزمة لينقذ الموقف. بهذا أمر الله عز وجل حين كلفنا بالنظر والمساعدة قبل الزواج في قوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ﴾.[1] وبهذا كلفنا وأمرنا عند ظهور أمارات الخراب في قوله عز من قائل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾.[2] حَكَم من أهله وحكَم من أهلها، عاقلان رائدهما الحكمة لا العاطفة.

ليس قصدي هنا أن أتعرض لأحكام الطلاق إلا بالتنبيه المؤكد إلى جِدِّيَّة ما يتلفظ به الزوج في غضبه وهزله. فربما ينطق بكلمة تُحرم زوجه عليه، أو يجهلان أحكام الشرع في الطلاق والعدة فيلعبان بدينهما.

وأتعرض للطلاق وما يترتب عليه من ضياع المطلقة وذريتها لنبحث عن وسيلة لإلجام الطلاق وتخفيف الكوارث الاجتماعية ومعاناة المشَرَّدات من بيوتهن. هذا اللجام نقرأه في كتاب الله عز وجل في قوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.[3] اختلف أئمة الفقه رحمهم الله في فهم الأمر بالمتاع، فقال المالكية: المتاع إحسان إلى المطلقة مستحَبٌّ للتي سُمِّي صداقها، واجب للتي

(1) سورة النور، 32.
(2) سورة الطلاق، 1.
(3) سورة البقرة، 239.

طُلِّقَتْ قبل تسمية الصداق. وقال الحنفية والحنابلة مثل ذلك. أما الفقهاء الشافعية فاستدلوا بالآية واعتبروا تمتيع المطلقة حقا على المتقين. أي واجباً شرعياً.

ما كلفنا الله باتباع مذهب وتقليد فقيه. ومن ظن أن الإسلام يقبل أن تُلْقى المطلقة في الشارع مع أطفالها في عصر قاسٍ لا يرحم، انفصمت فيه عُرى التواصل مع العمات والخالات، وتعقدت فيه سبُل العيش، وكثرت فيه الحاجات، فإنما ينسب الحيف والظلم إلى شريعة العدل والإحسان.

نحتاج إذن لاجتهاد على نحو الفقه الشافعي مُعَزَّزا برعاية حق المرأة في الاحتفاظ بسقف يؤويها في عصور من سمات أزمتها نُدرة السّكن وغلاء السكن: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ﴾.[1] إلى تمام عدتهن. هذا أمر لا ينبغي أن نَلْقَى به شرط الميثاق الغليظ: ﴿إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.[2] أي إحسان أن تُشرد المطلقة في مدُن الإسمنت القاسية؟ لا ينبغي أن نَلْقَى بالأمر الإلهي أمراً آخر لننقضه. بل الاجتهاد رعاية المصلحة العادلة.

كنا في إصلاح ما فسد. فلنعد إلى تنوير طريق العقل والحكمة. تنقشِع مراهقة قيس وليلى، فلا يبقى ما يعَوّل عليه ويُعتمد إلا الثقة والميثاق الغليظ: وهما القِوام الديني الخلقي في الزواج. لذلك أحاط الشرع الزواج بضمانات ليتحكم العقل في بناء أركانه لا العاطفة، وليكون البناء من حَجر الاختيار العقلي وحديد الأمانة الإيمانية لا من طِلاء الإعجاب بالمظاهر.

تقرأ الشَّوَابُّ ويقرأ الشبان قصص الغرام، ويشاهدون أفلام الأحلام، فتتمثل لهم السعادة في ممثلة وممثل. ويختار الشّواب والشبان وَفق الشهوة الخيالية، وسرعان ما تتبخر الأحلام، ويصدِم الواقع الخيال، ويرتطم المركب بالصخور.

أو يلتقي في ساحة الدعوة شاب مُلتَحٍ وشابة محجبة لا يزالآن في طور المراهَقة الدينية، فتتصورُ فيه الزبير الفارس، ويتصور فيها أسماء الصديقية، فيتزوجان على أحسن النيات، لكن على غفوة من العقل، وعلى جهل بحقائق المعاشرة

(1) سورة الطلاق، 1.
(2) سورة البقرة، 227.

بين أسَرٍ متفاوتة، وأوساط اجتماعية متنافرة. يقرأ هو في الحديث: «**اظفر بذات الدين**»، وتقرأ هي ذلك، فيحسِبان أن الناس جميعا من طينة واحدة، وكأن الفوارق الاجتماعية الاقتصادية، وكأن الذهنيات والعادات، غُبارٌ يُنفَخُ فيه فيتطاير.

يقرآن «**اظفر بذات الدين**» فيظنان أن الدين حماس ومظاهر و«التزام»، هذه الكلمة الفضفاضة المستعارة من ساحة النضال السياسي لا من مفاهيم القرآن وأخلاق السنة.

عُقلاء الأمهات والآباء لا يُستغنى عن استشارتهم وترضيتهم. إلا أن يكونا أو أحدهما، أو الأعمام والعمات والأخوال والخالات، من أعداء الدين، أو يكون الجشَع والخوف والغباء السياسي سد عليهم منافذ التعقل.

أحاطت الشريعة الزواج بضمانات ليتحكم العقل. منها الولي، لا يجوز أن تتزوج المؤمنة بلا ولي وإشهاد. ذلك ليكون الزواج مُعلنا مشهورا، ولتتعادل حكمة الولي من أب أو أخ أو عم مع غِرّة المؤمنة، ولتُعوض تجربة الولي في الحياة براءتَها وأحلامها. واشتط بعض الفقهاء فرأوا أن للولي أن يُجْبِرَ المرأة على الزواج. قرأوا الأدلة التي أوردناها في الفقرة السابقة ففهموها فهوما متفاوتة. فالحنفية يرون أن الولي مستحب للبالغة العاقلة، سواءً كانت بِكراً، أو ثيبا. ويرى المالكية أن الأب أو وَصِيَّه عند عدم الأب يُجْبِر البكر علي الزواج وإن بالغة، ويُجبر الصغيرة ولو كانت ثيبا. وعند الشافعية يُجْبِر الأب أو الجد عند عدم الأب البِكر صغيرة وكبيرة، ويستحبون استئذانها. أما الحنابلة فيرون أن الإجبار حق للأب ثم وصيه ثم الحاكم في حالة الصغيرة فقط.

إجبارهن على الزواج كان مصلحة منسجمة مع فقه الإغلاق والحبس. وأمامنا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لندرأ المفاسد الكبيرة التي تترتبُ على الإكراه.

للولي أن يمتنع ريثما يتأكد من صدق عواطف البنت، لأن من الحب ما ليس طيشا. يتريث الولي حتى يظهر له صدق العاطفة وحسن الاختيار. لأن الانسجام القلبي لا يكون له من علاج بالإكراه. جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل

فقال: «يا رسول الله! في حجري يتيمة قد خطبها رجل موسِر ورجل مُعْدِم. فنحن نحب الموسر وهي تحب المعدم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لَمْ يُرَ لِلمُتحابَّيْن مثل النكاح**». أخرجه عن ابن عباس ابن ماجة والبيهقي والطبراني والحاكم وغيرهم. فهو حديث حسن لكثرة طرقه.

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**».

الإسلام ليس ضِد زواج الحب، بشرط أن يتأكد هو وتتأكَّد هي أن كلمة «أحبك» ليس وراءها النزوة العابرة، وإنما المحبة الخالصة التي يُرجَى لها أن تنمو بعد الزواج فتلتحم بلحام الرحمة والمودة والمخالقة والصبر.

على كل حال فالشريعة تغلب جانب العقل دون أن تنبذ صادق العواطف وعميقها وساميها. من تغليبها للعقل الكفاءة والوصية بها حُسْبانا لعامة الناس ممن لم يتخطوا عتبَةَ الاعتبارات الاجتماعية. وإلاّ فالإسلام يهدِف إلى تخطِّي هذه الاعتبارات. عند الترمذي حديث: «**إذا أتاكم من ترضوْن دينه وخلُقَه فأنكحوه، إِن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**. قالوا: يا رسول الله! ولو كان فيه؟ (أي شيء لا يرضاه العُرف) قال: **إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه!** كررها ثلاث مرات». الحديث تكلم في صحته المحدثون. لكن فِعل الصحابة يؤكدهُ. فعند البخاري وأبي داود والنسائي أن أبا حذيفة، وهو من أشرف قريش وممن شهد بدراً، تبنى سالما مولى امرأة من الأنصار، وزوجَهُ ابنة أخيه. وروى الدارقطني أن بلالا تزوج أخت عبد الرحمن بن عوف القرشي.

من تغليب العقل أن النظر إلى المخطوبة أمر مندوب إليه. وهو نظر تدقيق لا كنظرة الباحث والباحثة. وكذلك الصداق، وهو واجب، جعل الشرع الاتفاق عليه وتسميته موكولا إلى التراضي العقلي المصلحي، جاء رجل إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال: «إني تزوجت امرأة من الأنصار، فأعِنّي على مهرها.

فقال له رسول الله صلي الله عليه وسلم: **هل نظرت إليها، فإن في أعين الأنصار شيئا!؟** قال: قد نظرت إليها. قال: **على كَم تزوجتها؟** قال: على أربَع أوَاقٍ. قال: **على أربع أواقٍ؟ كأنكم تَنْحِتون الفضة من عُرضِ هذا الجبل! ما عندنا ما نعطيك! ولكن عسى أن نبعثك في بَعث تُصيبُ منه!** قال: فبعث بعثا إلى بني عبس، فبعثه معهم». رواه مسلم عن أبي هريرة.

من تغليب العقل على العاطفة في الزواج أن أباح الشرع التشارُط قبل العقد. تشترط هي ويشترط هو ما لا يصطدم مع الشريعة.في كتاب النكاح من صحيح البخاري: «باب الشروط في النكاح». روى فيه عن عقبة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**أحق ما أوفيتم من الشروط أن تُوفوا به ما استحللتم به الفروج**». قال الحافظ ابن حجر معقبا على هذا الحديث: «الحديث عندهم محمولٌ على الشروط التي لا تُنافي مقتضى النكاح، بل تكون من مقتضياته ومقاصده، كاشتراط العشرة بالمعروف والإنفاق والكسوة والسكنى. وأن لا يقصر في شيء من حقها من قسمة ونحوها. وكشرطه عليها أن لا تخرج إلا بإذنه، ولا تمنعه نفسها، ولا تتصرف في متاعه إلا برضاه، ونحو ذلك».

واختلف الفقهاء في شرط أن يكون طلاقها بيدها. يعني أنها تطلق نفسها منه إن شاءت. فيرى الحنفية أنه شرط صحيح. ويرى المالكية أنه فاسد.

وقد جعل الله عز وجل الطلاق إلى الرجل اعتمادا على قوامته وقربه من ضبط النفس عند الغضب. والاجتهاد الحنفي معتَبَرٌ شرعا. فرُبّ رَجُلٍ لا تُؤْمَنُ غوائِله، فيكون الاحتياط منه والرّيبة فيه وسيلة للاحتماء منه بالشرطً. لكن زواجا بدأ بالشك والحديث عن الطلاق المحتمل زواجٌ واهن من الميلاد.

وللمرأة تقدير ما يترتب على إقدامها وقَبولها واختيارها. فهي عاقلة كاملة العقل. فإن كان حديث «**هن ناقصات عقل ودين**» حديثا صحيحا، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر ذلك بأن الشاهدتين تعدلان شاهدا واحدا لأنها تغفُل فتذكرها صاحبتها، ولأن أياماً من الشهر لا تصلي فيها المرأة. وقد قبِل صلى الله

عليه وسلم شهادة امرأة واحدة في الرضاع، وقبل الفقهاء شاهدتين فيما يَخص النساء من أمور. تُظلم ويُساء بها الظن وتُؤوّل الأحاديث للحط منها.

إن التعليم الذي فرضه الله على كل مسلم والخوف من الله الذي يُربى عليه الإيمان هما الضمان لإخراجها من قوقعة الاستخفاف بها، والجهل بحقوقها، والتخاذل عن الاحتجاج والدفاع عما أكسبها الشرع وحرمها الفقه المنحبس.

أنقل عن كتاب «تحرير المرأة» نصا لتقي الدين الهلالي من فقهاء المغرب المعاصرين رحمه الله قال: «في تعليم الإناث وتربيتهن ثلاثة مذاهب متباينة. المذهب الأول: عدم تعليمهن أكثر من قراءة المصحف بدون فهم. قال أصحاب هذا المذهب: إنه أحسن المذاهب وأولاها بالصواب، وهو الذي وجدنا عليه آباءنا. وهم كانوا أحسن منا. وتعليم النساء يفسد أخلاقهن. فإن المرأة التي لا تقرأ ولا تكتب تكون بعيدة عن متناول شياطين الإنس. فإن القلم كما لا يخْفى أحد اللسانين. فبعدم معرفتها للقراءة والكتابة تأمَنُ شر اللسان الثاني فيتم لها الأمن. وكم رأينا من متعلمات لم يأتهن الشر إلا من قِبَل تعلمهن، وهذا في زمان الإسلام والعفاف والأَنفَة العربية، وأما في هذا الزمان فقد بلغ السيل الزُّبَى واتسع الخرق على الراقع. فإن معرفة الفتاة للقراءة توصل إلى ذهنها جميع ما يقع في الدنيا من الفساد والمخادنة. وتملأ فكرها بهواجس خبيثة كانت في عافية منها».

الحل المنطقي ليس التعليم والتربية، لكن السد والغلق والخنق والجدران والحبس.

خاتم من حديد

قد يكون من أكبر معوِّقات الزواج وموانعه، ومن نواقضه ومقوضاته النفقات الباهظة في المهور والأعراس والهدايا والشروط.

سرعان ما يتقوض بيت أسّسَ على ديون وأعراف مكلفة وتحمُّلات فوق الطاقة تثقل الكاهل، وتنغص العيش، وتُسمم العلاقات.

ليس العامل النفسي الخلقي، وسوء الاختيار، والتعلق بالتمثيليات والمثاليات العوامل الوحيدة للطلاق وخراب البيوت. بل العامل المادي حاجز قاطع عن الزواج، ومِعول ينخر في البناء إن تجاوز الناس الحاجز. معول ينخر في بناء بيت الزوجية، وينخر في أخلاق المجتمع كله.

الصداق ركن من أركان الزواج وشرط من شروط صحته مع الولي والشاهدين. هو دِين وفريضة من قوله تعالى: ﴿وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً﴾.[1] نِحْلة: أي فريضة. والتراضي في الصداق، وطِيبة نفس الزوج المخطوبة مطلوب شرعا. في حديث عند ابن أبي حاتم أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قائلين: وما العلائق بينهم؟ قال: «**ما تراضى عليه أهلولهم**».

لم يُقَدِّرْ الشرعُ مقدارا للصداق، وإنما أطلقه في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً﴾،[2] والقنطار ألف دينار أو أكثر من الدنانير الذهبية في ذلك الوقت. لم يحصُر القرآن مقدار الصداق، وإنما أشار إلى طيبة النفس، وفسرت السنة ما ينبغي من التراضي. لكن السنة الحية توصي النساء بالرضى ولَوْ بقدر من المال رمزي، ولو بعطاء معنوي من قِبَل الرجل يبرهن به عن رغبته في المرأة وتقديره لها.

(1) سورة النساء، 4.
(2) سورة النساء، 20.

في كتاب النكاح في صحيح البخاري «باب المهر بالعُرُوض وخاتَم من حديد». العُروضُ هي الأمتعة بلا مالٍ. ويأتي البخاري رحمه الله بحديث سيدنا سهل بن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل: «**تزوّجْ ولو بخاتم من حديد**». وفي «باب تزويج الـمُعسر» روى البخاري الحديث كاملا، وهو حديث متفق عليه من طريق سهل بن سعد قال: «جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله! جئتُ أَهَبُ نفسي لك. فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فَصَعَّد النظر فيها وصوَّبَ، ثم طأطأ رأسه. فَلما رأت المرأة أنَّه لم يقْضِ فيها شيئا جلست. فقام رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله! إن لم يكن لك بها حاجة فزوِّجنيها. فقال: **هل عندك من شيء**؟ فقال: لا والله يا رسول الله! فقال: **اذهب إلى أهلك فانظُر هل تجد شيئا**. فذهب ثم رجع فقال: لا والله ما وجدتُ شيئا! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **انظُرْ ولو خاتَما من حديد**. فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله، ولا خاتَما من حديد! ولكن هذا إزاري، لها نِصْفُه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ما تصنعُ بإزارك؟! إن لبِسْتَه لم يكن عليها منه شيء، وإن لَبِسَتْهُ لَم يكن عليك منه شيء!** فجلس الرجل، حتى إذا طالَ مجلسُه قام. فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مُوَلِّيـًا، فأمَر به فدُعِي. فلما جاء قال: **ما معك من القرآن**؟ قال: معي سورة كذا وسورة كذا، عدَّدَها. قال: **تـَقْرَؤهنّ عن ظهر قلبك**؟ قال: نعم! قال: **اذهب، فقد ملكتكها بما معك من القرآن**».

في رواية: «**انطلق فقد زوجتكها، فعلِّمْها من القرآن**».

لما زوَّج النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة ابنته سيدة النساء لعلي بن أبي طالب قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أعْطِها شيئا**. (شيئا يكونُ مقَدَّمَ الصداق). قال علي: ما عندي شيء! قال: **أين دِرْعُك الحُطَمِيَّةَ؟**». حديث رواه أبو داود والنسائي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بسند صحيح.

لا إله إلا الله! واحد ما عنده إلا آلة جهاده: دِرع تتحطم سيوف الأعداء عليها، والآخر لا يجد ولا خاتما من حديد، بل ولا رِداء له يستر به كتفيه، لكن معه سُور من القرآن. وكُنّ نساء الإسلام يَرْضَين ويطبن نفسا بالزواج من أولئك الأبطال

على مهر رمزي، وعلى أن يعلمهن الزوج من القرآن. كان القرآن قيمة مقدَّرة، وكان تعليمه إفضالا وعطاء.

روى أبو داود عن أبي هريرة أن الرجل الذي لم يجد ولا خاتما من حديد كان معه من القرآن سورة البقرة، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجه المرأة على أن يعلمها عشرين آية.

وترضى المؤمنة الصحابية من الخاطب الغني غيرَ ما تطمع إليه عامة النساء من مال. لا تطيب نفسُها بغير أنفس ما يملكه. روى النسائي عن أنس أن أبا طلحة خطب أمّ سُليم. أبو طلحة من أغنياء الأنصار، وأمّ سليم وما أدراك ما أم سليم! بطلة مجاهدة. قالت له: «والله ما مثلُّك يا أبا طلحة يُردّ! ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة. ولا يحل لي أن أتزوجك. فإنْ تُسلم فهذا مهري، ولا أسألك غيره. فأسلم، وكان ذلك مهرها. قال ثابت (الراوي) فما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مَهراً من أم سليم: الإسلام. فدخل بها فولدت له».

أبو طلحة لم يُسْلِمْ إرضاء للمرأة، وإنما تطابقت الخِطبة مع هداية إلهية، وميل منه صادق. يدُل على ذلك أن أبا طلحة صحب النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك، وسمعه يوما يحث على الصدقة ويذكر فضلها، فتصدق بأَحَبِّ ماله إليه، بُستانِ نخل اسمه «بَيْرُحاءُ».

حذار من مهاجري أم قيس! مهاجر أم قيس رجل يروى أنه هاجر من مكة إلى المدينة، قصد المؤمنون والمؤمنات الله ورسوله وقصد هو الزواج بأم قيس. يذكر خبره مع حديث: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**». حديث متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

حذار أن تغتر المؤمنات بالخاطب الأروبي الأمريكي الـمُعجب بالزي الغريب والنكهة مما وراء البحار، يتنمس ويتمسلم!

كان صداق رسول الله صلى الله عليه وسلم لأزواجه وسَطاً. سأل أبو سلمة بن عبد الرحمن أمنا عائشة عن صداق رسول الله صلى الله عليه وسلم كم كان. قالت: «كان صداقه لأزواجه ثِنْتَيْ عَشْرَةَ أوقية ونَشّاً. قالت: أتدري ما النش؟ قلت لا! قالت: نصف أوقية، فذلك خمسمائة درهم». أخرج الحديث مسلم وأبو داود والنسائي. خمسمائة درهم في ذلك الزمان كانت مالا لا بأس به. اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم جملا بأوقية واحدة كما في صحيح مسلم.

عامة القول أن الصحابة رضي الله عنهم رجالا ونساء تربوا على التقلل في المهور ومراعاة حال الخاطب. لما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة خطب الناس يوما فقال: «ألا لا تغالوا في صَدُقَات النساء! فإن ذلك لو كان مَكْرُمَةً في الدنيا وتقوى عند الله كان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ما أصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة من نسائه ولا أُصْدِقَتْ امرأة من بناته أكثر من ثنتي عَشْرَةَ أوقية». حديث صحيح رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي. زاد النسائي من كلام عُمر: وإن الرجل ليُغْلِي بِصَدُقَةِ المرأة حتى يكونَ لها عداوةٌ في نفسه. وحتى يقول: كَلِفْتُ لكم عَلَقَ القِرْبة (تكلفت شدة).

علَّلَ أمير المؤمنين عمر نهيه عن التغالي في المهور بما يخشى من تكليف الخاطب ما لا يطيق، فيعود عليه ذلك بالدَّيْن وسوء العلاقات مع الزوج والأصهار.

وعند الحافظ أبي يعلى أن امرأة من قريش قامت إلى عمر بعد خطبته واعترضته قائلة: «يا أمير المؤمنين! نَهَيْتَ الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم؟ قال نعم! قالت: أما سمعتَ ما أنزل الله في القرآن؟! قال: وأيُّ ذلك؟ قالت: أما سمعت الله يقول: «وآتيتم إحداهن قنطارا»؟ فقال عمر: اللهمَّ غَفْراً! كل الناس أفقه من عمر! ثم رجع فركِبَ المنبر فقال: أيها الناس! إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صَدُقاتهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب». إسناد الحديث جيد قوي كما قال ابن كثير رحمه الله.

يتلخص من هذا أن الحاكم ليس له أن يَحُدَّ للمهور حدا. لكن الفساد الكبير الذي ينشأ عن عزوبة الرجال وعنوسة النساء من جراء التغالي في المهور فساد

وبيل. فإن كانت الدولة الإسلامية لا يمكن أن تخرق النص القرآني المفتوح، فإن على الدعوة أن تربي الرجال والنساء على سنة التيسير، حتى يصبح عند الأسَرِ مَفْخَرَةً أن يُصهر إليهم الأتقياء لا الأغنياء، وحتى يصبح في نظر المؤمنة أكرمُ مَهر ما شابه مَهر أم سُلَيم. من فساد العادات، وتوغل الأسر في التكاثر والتفاخر، أن البنت التي زوجها وَلي تقيٌّ بمهر رمزي تُمْسِي مُضْغَةَ في الأفواه، تستهين بها القرينات وأسرة الزوج والقرابة والأصدقاء.

ماديّاتٌ تقيِّم العروس بالذهب والفضة كأنها متاع. وباءٌ تسيل آفاته على المجتمع فيتعزب الفقير وتَعنُس التي في قبضة السلطة الاجتماعية سلطةِ القيل والقال.

آفة تضاف إلى آفات التبرج وانحطاط الأخلاق وهوس الاختلاط وسوء حال العاطل وقلة ذات اليد في طبقة، وفُحْش الثروة في طبقة. فتتكون من كل ذلك بيئة سوء الظن، والإعراض عن الزواج، وتعاطي المنكرات.

صفحة من كتابات الرافعي رحمه الله نختم بها معبرةٌ عن هذا المرض. قال: «من كان فاسقا أساء الظن بكل الفتيات، ووجد السبيلَ مِن واحدةٍ إلى قول يقوله في كل واحدة. ومن كان عفيفا سمِع من الفاسق فوجد من ذلك مُتعلَّقا يتعلق به، وقياسا يقيس عليه».

هذا عن العامل النفسي الخلقي العائق عن الزواج. وعن العُزّاب يقول الرافعي رحمه الله: «ما ساء رأي العزاب في النساء والفتيات إلا من كونهم بطبيعة حياتهم المضطربة لا يعرفون المرأة إلا في أسوإ أحوالها وأقبح صفاتها. وهم وَحدَهم جعلوها كذلك.

قال رحمه الله: «إن لهم وجودا محزنا يستمتعون فيه، ولكنهم يَهلِكون ويُهلكون به. هم والله أساتذة الدروس السافلة في كل أمة. وهم والله بُغاة من الرجال في حكم البغايا من النساء، يجرون جميعا مجرىً واحِدا. ومَن هي البغِيّ في الأكثر إلا امرأة فاجرة لا زوج لها. ومن هو العَزَب في الأكثر إلا رجل فاسق لا زوجة له. على أن مع المرأة عُذر ضَعفها أو حاجتها، لكن ما عذر الرجل؟».

قال: «ماذا تفيد الدولة أو الأمة من هذا العزب الذي اعتاد فوضى الحياة وسيرها على نظامها وتحقُّقَها على أسخَفِ ما فيها من الخيال والحقيقة؟ وأي عزَب يجد الاستقرار، أو تجتمع له أسباب الحياة الفاضلة، وهو قد فقد تلك الروحَ التي تُتِمُّ روحَهُ، وتنقِّحُها، وتُمسكها في دائرتها الاجتماعية على واجباتها وحقوقها، وتجيئه بالأرواح الصغيرة التي تشعره التبِعة والسيادة معا، وتمتد به ويمتد بها في تاريخ الوطن؟».

قلت: يقصد رحمه الله بالروح الـمُتِمَّة المنَقَّحة الزوج التي تُغير بوجودها في مأواه وجه حياته بما تتيحه له ويتيحه لها من معاني الاستقرار والرحمة والسكون. ويقصد بالأرواح الصغيرة الأطفال زهرة الحياة وذخر المستقبل وصالح العمل.

ويُغلظ الرافعي التوبيخ للعَزَبِ فيقول: «كيف يعتبر مثل هذا موجودا اجتماعيا صحيحا وهو حيٌّ مُختَلٌّ مستعار، يقضي الليل هاربا من حياة النهار، ويقضي النهار نافرا من حياة الليل، فيقضي عمره كلَّهُ هاربا من الحياة، وكأنه لا يعيش بروحه كاملة، بل ببعضهَا، بل بالممكن من بعضها. أية أسرةٍ شريفة تقبل أن يُساكنها رجل عَزب؟ وأية خادم عفيفة تطمئن أن تخدُم رجلا عزبا؟ هذه هي لعنة الشرف والعفة لهؤلاء العزاب من الرجال!».

قلت: رحم الله الرافعي، ووقانا الله مواطن اللعنات ومواطئ الزلل.

مُدَّانِ من شعير

عند البخاري حديث رواه عن صفية بِنْتِ شيبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَوْلَمَ على بعض نسائه بمُدَّيْن من شعير. حفنتان من شعير كانوا لا ينخُلونه. عند ابن ماجة والحاكم أن أَمَّ أَيْمنَ حاضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم غربَلَتْ دقيقا فصنعته رغيفا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **ما هذا؟** قالت: طعام نصنعُه بأرضنا (الحبشة)، فأحببت أن أصنع لك منه رغيفا. فقال **رُدّيه فيه ثم اعجنيه**. كذا في «الترغيب».

أين نحن في عصور الإسراف والتبذير والنفقات التي لا جدوى منها للمجتمع من تلك البساطة، ومن ذلك الزهد! إنها إِتاوَةٌ يأخذها سُلطان العادة وشيطان الفخفخة حين يتغالى الناس في المهور، وحين يقيمون هذه الولائم والأعراس الصاخبة. يعسرون بذلك الزواج ويفتحون الأبواب للزنى. يبتدع كل قوم طقوسا وأعرافاً يخضع لها الخاص والعام، وتتولاها نساء محترفات. والأَسَرُ خاضعة متباهية شارطة نفقات العُرس، وطرائف الجَهاز. وهكذا تتراكم أسبابُ زعزعة البيوت الناشئة.

تفتح الأجيال أعينَها على بحْر خِضم من الفساد يحْسِبُونه الصلاح بعينه. شعار بنات الدنيا وأبنائها: «ليلة العمر». وكأن بهرج ليالي العرس وما فيها من رقص واختلاط وخلاعة وتبذير شيطاني هي السعادة لا النّكَدُ في الدنيا والتبِعةُ في الآخرة.

يضاف إلى هذه المناكر إرهاق العروسين جسميا ونفسيا، فلا تصل لحظة اللقاء إلا والبنتُ في غاية الإنهاك من السهر والتعب والانكساف من عادات عرض دلائل البكارة على الجمهور. أما إذا كانت الأسر مُفرنجة فتخيَّلي ما شئت من مراقصة العروس للشباب، تَعْتَوِرُها الأيدي لتُسْلِمها بضاعة مبتذَلة للعريس آخرَ الليل.

في مجتمعاتنا المسلمة التقليدية، عند الأمهات والجدات والعمات والخالات، أصول أخلاقية في المحافظة على سمعة الأسرة وعفة الفتاة. وتلك الفضائل الموروثة الفطرية حليفة للتقوى والتربية الإيمانية. لكن عادات الإرهاق والكَسْفِ، مثل عادات التبذير وسائر البِدَعِ، لا مكان لها في مجتمع إسلامي متجدد. نخضع للسنة لا لما ابتدعه الناس. نرتقي درجة درجة على سلم الفضائل ومراقي شجاعة إبطال المنكر والنهي عنه لنستصفي من المروءات الموروثة ما هو صالح حليف، ولننبذ منها نبذَ النواة ما يستنزف المال والوقت والجهود.

كيف ينظر قوم لاعبون في دنياهم لاهون عن صلاتهم إلى السنة في أعراس السلف الصالحين المجاهدين. الصالحات المجاهدات والصالحون كانوا يُمسكون بأسباب القوة، يحملون أمانة الدين بقوة. والتافهون اللاهون تتضايف فيهم أسباب الضَّعف التقليدي مع أسباب التقليد الخانع لما يفعله الناس، وما يتعارف عليه الزمن وأهله، فهم في انْخِذالٍ واعتلال.

روى الشيخان عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوْلَم على أم المؤمنين صفية وليمة ما فيها خبز ولا لحم. الأقِطُ (لَبنٌ مَعْقود) والسمن والتمر. كان الخبز الساذَج -لا رَغيف أم أيمن- مع اللحم أجود طعام تلك الأيام.

أفخم ولائِم النبي صلى الله عليه وسلم كانت وليمته على أم المؤمنين زينب. أولَمَ بشاة. روى الشيخان وأبو داود عن أنس رضي الله عنه قال: «ما أولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أحد من نسائه ما أولم على زينب. أوْلَمَ بشاة». ولما تزوج عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بارك له رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يُولم ولو بشاة.

ولائم السنة كانت بسيطةً ليس للفَقر وقلة ذات اليد، بل لأن القوم رضي الله عنهم كانوا لا يحبون الترف ورخاوَة العيش، وهُم ونساؤهم كانوا مجاهدين. كان منهم أغنياء مثل التاجر الناجح عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، لكن ولائمهم كانت جامعةً مقاطعة لعادات التبذير ولحواجز الفروق الاجتماعية.

روى الشيخان وغيرهما أن أبا هريرة -وهو من أفقر الصحابة- كان يقول: «شر الطعام طعام الوليمة يُدعى له الأغنياء، ويترك المساكين. ومن لم يأت الدعوة فقد عصى الله». معنى كلامه أن شر الولائم هي التي يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء. أما الوليمة الخالية من الفرز الطبقي فهي سنة. ولا يفعلها في عصرنا أحد. اللهم رُدنا إلى سُبُل الهُدَى.

كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم وحياة أصحابه متساوِية بسيطة لا تكلُّفَ فيها. وإِن كانت ضغوط اجتماعية فهي إلى التسوية وإشاعة العدل الاجتماعي ترمي، لا إلى التفاخر والتكاثر. وإن كان تكلُّفٌ لعرس أو وليمة أو استضافة فسقفها شاة وخبز.

قرأنا في فصل سابق كيف استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصعِدَ إلى المشْرُبة (الغرفة) فوجد رسول الله صلي الله عليه وسلم وعلى جنبه آثار الحصير الذي كانَ فِراشَهُ، وقرأنا أن المشربة ما كان فيها من أثاثٍ يرُدُّ عين الناظر إلا أُهُبٌ، أي جلود مدبوغة. وأخرج البيهقي عن أمنا عائشة قالت: «دخلت علَيّ امرأة من الأنصار فرأتْ فراش رسول الله صلي الله عليه وسلم قطيفة (غطاء من صوف) مثنِيّةً، فبعثت إليّ بفراشٍ حَشْوُه الصوف فدخل علي رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال: «**ما هذا يا عائشة؟**» قالت: يا رسول الله! فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك، فذهبت فبعثت إلي بهذا. فقال: «**رُدِّيه يا عائشة! فوالله! لو شِئتُ لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة**».

هذا فراش البيت الشريف (غطاء مثني) ونطَّلِعُ على آل البيت الأشراف فنقرأ عند الإمام أحمد روايات ثلاث عن علي بن أبي طالب أن جَهاز فاطمة الزهراء كان كما يلي: خَمِيلٌ (غطاء صوف خَشِن) وقِرْبة ووِسادة أَدَمٍ (جلد) حشوها لِيفُ الإِذخِر (خيوط نباتية). في الرواية الثالثة ذكر في الجهَاز سِقاءً وجرتين.

عن قريب إن شاء الله نقرأ من تاريخ تدهور المسلمين كيف كان عُرْس أكابر الدنيا في أوج عَظمة حضارة المسلمين، وكيف كانت لهم حُصُرٌ... لكن من ذهب.

بعد حين نقرأ عن عُرس المأمون العباسي وجَهاز بُورانَ ربيبةِ الترف. ملُوك لعبوا بأموال المسلمين، أشركَهم التزوير التاريخي مع أئمة الهُدَى في الاسم، فسُمُّوا خلفاء كما هم الخلفاء الراشدون خلفاء.

نعرض قبل حضور عُرس الملوك صُوَراً من تعفُّف أئمة الهدى لِيُزرِي الخبَرُ بالخَبرِ، وليكشِف الحق عن الباطل. أخرج الإمام أحمد وأبو يعلى عن أم سلَمة أم المؤمنين قالت: «دخَل علَيَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساهم الوجه (متغير الوجه)، فَخَشِيتُ ذلك من وَجع (ظننتُ أن به وجعا). فقلت: يا رسول الله! ما لك ساهمَ الوجه؟ فقال: **من أجل الدنانير السبعة التي أتينا بها أمسِ. أمْسيْنا وهي في خُصْم الفراش** (جانبه)». في رواية: «أَتتنا ولم ننفقها». حديث صحيح.

دنانير سبعة كدّرَتْ صَفْو عيش خليفة الله في أرضه ورسوله ومصطفاه أن لم يُنفِقْها، تعَطَّلت يوما وليلة عن السعي إلى أصحاب الحاجات.

لما بويع أبو بكر لقيه عمر غاديا إلى السوق بأثوابه التي يتّجر فيها. فانطلق به إلى أبي عبيدة صاحب المال واجتمع المهاجرون والأنصار ففرضوا له معاشا وراتبا ليتفرغ لتسيير شؤون الأمة. فرضوا له ما يُغنيه! بردان (كساءان يضع أحدهما على كتفيه، فإذا نزعه ليغسله كان له ما يلبسه) إن أخلقَهما (أبلاهما) وضعهما وأخذ مثلهما. وظَهْرُه (أي دابة يركبها) إذا سافر. ونفقته على أهله كما كان ينفق قبل أن يُستخلفَ. قال: رضيت! أخرجه ابن سعد.

رأى المهاجرون والأنصار ما وسَّع الله عليهم بقيادة أميرهم عمر بن الخطاب، حتى تدفقت عليهم كنوز كسرى. وأبَوْا أن يرى الوافدون أميرهم وعليه ثوبٌ رقّعهُ اثنتي عشرة رُقعة، وأرادوا أن تكون له هيبة في أعين الناس. فبعثوا ابنته حفصة وعائشة فكلمتاه في الموضوع، واقترحتا عليه أن يُحسّن من ملبسه ومأكله. فبكى بكاء شديدا، وذكرهما بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر من التقلل من الدنيا، ورفض رفضا قاطعا أن يتصرف في مال المسلمين بالإنفاق الباطل. روى ذلك ابن عساكر.

وروى أبو نعيم عن عبد الملك بن شداد قال: رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم الجمعة على المنبر عليه إزارٌ عَدَنِيٌّ غليظ ثمنهُ أربعة أو خمسة دراهم، ورَيْطَةٌ (كساء) كوفية مُمَشَّقة (مصبوغة). عثمان الوافر الغنى صعِد منبرَ الخلافة رضي الله عنه فما أثر في سلوكه لا الغِنى ولا الرياسة.

ووَلي الإمام علي فكان آيةً في الزهد والتعفف والتقلل. أخرج ابن المبارك عن زيد بن وهب قال: خرج علينا علي رضي الله عنه وعليه رداء وإزارٌ وقد وَثّقه بخرقة. فقيل له (أي سألوه). فقال: إنما ألبس هذين الثوبين ليكونَ أبعد لي من الزهو (أي الكبر).

وكان الأب ينهى ابنته عن مظاهر الترف. أخرج أبو نعيم عن عائشة قالت: «لَبِسْتُ مرة دِرْعا (قميصا) لي جديدا. فجعلت أنظر إليه وأعجَبُ به. فقال أبو بكر: ما تنظُرين؟ إن الله ليس بناظر إليك! قلت: ومِمَّ ذاك؟ قال: أما علمت أن العبد إذا دخله العُجْبُ بزينة الدنيا مَقَتَه ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة؟ قالت: فنزعته فتصدقت به».

زوج عبد الله بن عُمر ابنه سالما فزينوا الجدران. ودخل أبو أيوب الأنصاري فأنكر ما رأى. فاعتذر عبد الله بأن النساء غلبنهُ. فخرج أبو أيوب منكِرا ولم يذق لهم طعاما.

وهذا عُرس المأمون وبُوران أنقله من مقدمة ابن خلدون كما نقله عن المسعودي والطبري. الحسن بن سهل (والِدُ بوران) نَثَر (رمى لَهم ليلتقطوه ويتخاطفوه) على المدعوّين، فَنَثَر على الطبقة العليا منهم بنادق المِسك (قطع المسك) مَلْثوثَةً على الرِّقاع (مطوية فيها إشهادات بتمليك من تَقَع الرقاع في يده) بالضِّياع والعَقار، مَسُوغَةً (ممنوحةً جائزةً) لمن حصلت في يده. يَقع لكل واحد منهم ما أدّاهُ إليه الاتفاق والبَخْتُ (السَّعْدُ). وفرق على الطبقة الثانية بِدَرَ الدنانير (صُرَر الدنانير)، في كل بِدْرة عشرة آلاف دينار. وفرق على الطبقة الثالثة بِدَر الدراهم كذلك بعد أن أنفق في مُقامة المأمون بداره أضعاف ذلك.

بين هذا البذخ الكِسْرَوِي وبين عصر المجاهدين مِائتا عام وأقل -بَيْنَهُ وبين صداق خاتم من الحديد وعُرسِ المدين من الشعير ستة أجيال أو أقل- تم العرس سنة 202 للهجرة.

أعطى المأمون لعروسه في مهرها ليلة زفافها ألف حَصاة من الياقوت، وأوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة مَنّ (وحدة وزن ذلك الزمن) وهو رطل وثلثان. وبسط لها فُرُشـًا كان الحصير منها منسوجا بالذهب، مكللا بالدُّرِّ والياقوت. وأعَدَّ بدار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نَقْلَ مائة وأربعين بغلا مدة عام كامل، ثلاث مرات في كل يوم. تصوّري أخت الإيمان ما يكون الجَهاز قياسا على العُرْس والوليمة.

يخجلُ وينكسف ويُنكِّسُ رأسَه منهزمـًا عُرْس المأمون، والياقوت والذهب الذي بذره من أموال المسلمين المأمون وأضراب المأمون وحاشية الملوك الأقدمين وأصهارهم، أمام الترف والتهتك واللعب بالأموال، كما يمارس ذلك أمراء النفط وحواشي الملوك في زمننا. عِلة سياسية وفساد في الرأس، فما يُغني التذكير بالسنة!

رحم الله ابن حزم الفقيه الثائر قال: «ولا يجوز أن تجبَر المرأة على أن تتجهز إليه بشيء أصلا. لا من صداقها الذي أصدقها، ولا من غيره من سائر مالها. والصداق كله لها، تفعل به كلِّه ما شاءت، لا إذن للزوج في ذلك ولا اعتراض».

ويثور ابن حزم ثورته على الإمام مالك الذي نَقَل عنه قوله: «إنْ أصْدَقها دنانير أوْ دراهم أُجْبِرتْ على أن تبتاع بكل ذلك شُورَةً من ثياب ووِطاء وحُلِيٍّ تتجمل به له».

ثورة فقهية تبقى حبراً على ورق. إنما القومة الإسلامية توبة عامة تقوض الباطل من أساسه، وتقطع ينابيع البدعة من أعماقها. والله هو القوي العزيز.

تعدد الزوجات

همْهَمَةٌ في معبد الطاغوت هي الفتوى الفقهية، مهما كانت صالحة مصيبة، إن لم يكن الفقه ترعاه قوة، بل إن لم يكن أهلُ القرآن مشرفين من جانب الحق على أهل السلطان. بل إن لم تكن الدولة في يد الدعوة. بل إن لم تكن الأمة كلها معبأة مع الدعوة تنصر شرع الله والدولة في خدمتها، لا سيدة مستبدة عليها، مسؤولةً أمَامَها. لاَ مُطْلقةً تعبث بالأموال والأعراض.

فساد في الرأس، فما يُغني التفقيه في الدين إلا أن يكون إعدادا للقوة، وقومة من القومة. وإلا فالدولة المتسلطة اللاييكية في عصرنا لا تعبأ بدين وسنة وفقه إلا بقدر ما تنافق بذلك وتُزَوِّرُ وتتظاهر. ما تُغني الكوابح الشرعية التي ترمي إلى درءِ مفاسد الأخلاق ومحاصرة الزنى إن كانت يَدُ السلطان نجِسة، وكان هواه مع الحداثة الإباحية، وكان فقه الفقيه وسنة التقي نُسُكا فرديّاً وكلمة مُعطلة، وكان القانون الذي تصوت عليه البرلمانات منافِرا للدين مُصادرا للسنة؟!

من الكوابح المهمة للزنى واختلاط الأنساب شريعة تعدد الزوجات المحدود في أربع حرائر يصونه وجودُهُنّ، وتصونهن قوامته وكفالته وغيرته. من المراكب المفضلة عند الطاعنين على الإسلام والطاعنات هذه الشريعة المنحازة للرجل في زعمهم وزعمهن. تدعو المارقات ويدعو المارقون إلى أن يكون للمرأة مثل ما للرجل من حق التعدد. مناضلات ومناضلون في حزب الإباحية لا ينتظرون تشريعا وإشارة مرور قانونية ليمارسوا رياضتهم المفضلة: الزنى بلا حدود. الزنى الحرية. الزنى الثورة.

إن تعدد الزوجات في شريعة الإسلام حلٌّ استثنائي لحالات استثنائية، ما هو أصل وقاعدة. فإن استغل بعض الرجال هذه التوسعة الشرعية ليُشبِعوا أنفسهم لذة ويشبعوا النساء ظُلما فالحَيف منهم لا من الشريعة. التعدد حل لما يمكن أن يلقاه الرجل، أو يعانيه المجتمع من مشاكل: الرجل تقْوَى فيه

الحاجة فلا تكفيه امرأة واحدة، أو تمْرَض وهو صحيح، أو تعقُم وهو يطلب الولد. والمجتمع يربو فيه عدد النساء على عدد الرجال، فتجيء شريعة التعدد لتصون حِصّةً منهن عن العنوسة والشارع. تكون شريعة التعدد هي الحل الوحيد إن حصدت الحربُ الرجال كما حدث في الحربين العالميتين في قرن العجائِب والعنف.

فالتعدد حصانة للرجل والمرأة والمجتمع. وبديله الرذيلة في المجتمعات الانحلالية حيث تنطلق الشهوات ما لها من رادع، تُخادِن هي ويعاشر هو ما شاءت الحرية الدوابية من أخلاءَ وخليلات. إن الاختيار هو اختيار بين أقصى ما يمكن من عدل وإنصاف للمرأة وأحطِّ ما يمكن أن تنزل إليه المرأة. إنه اختيار بين الغريزة تَحْكُمُ وبين الفطرة مهَّدَ لها الفاطر سبحانه سبيلا إلى سعادتها الدنيوية والأخروية.

أيّهما أفضل وأكرم وأطهر للمرأة. أن تكون لها فرصة لِتأْويَ إلى ساعد شديد، وسقف آمن، وعشرة طاهرة، أم أن تتداولها أيدي الرجال العابثين لُعبةً مبتذلة يخيلون إليها ويزينون «حريتها»؟

التعدد ضرورة لحل مشاكل خاصة، ضرورة لوقاية النشْء وكفالته. إنه حفاظ على الذرية أنْ تضيع في حضن أم زانية مهما أصبحت الأم الزانية في المجتمع الدوابي محطّاً لِلتكريم. إنه توظيف حكيم لمسؤولية الرجل أبا وراعيا، لأن الزوج الجامعَ بين الضرائر لا تتوزّعُ الزوجاتُ إلا وقتهُ ومالَه، أما المرأة الموزّعة بين عدة رجال فهي في دَوَّامة شركاء متشاكسين، فأنَّى تجد من نفسها مكانا يتأصل عليه استقرار طفولة، وتنبت فيه للطفولة جذور.

يملأ شوارعَ أروبا وأمريكا نسلٌ لقيط من أمهات ساقطات يعترف المجتمع والقانون بهن. كاد الزواج عندهم يُصبح مَعَرَّةً. وتعُدُّ المارقات من بنات جلدتنا ذلك الاعتراف كسبا حاسما للمرأة النموذج. بينما الأوربية العاقلة ينطق ضميرها إن لم ينطق لسانها -وهو ينطق ويشكو ويتألم- بما تعانيه الأم الزانية وما تقاسيه. منذ تسعين عاما كتبت إحدى عواقلهن في أروبا، أنجليزية تبث شكواها من فُشوِّ

الزنى وتنعَت له حلا. أنقل عن كتاب «المرأة بين الفقه والقانون» للأستاذ مصطفى السباعي رحمه الله ما يلي مما نشرته الأنجليزية وجريدة «لاغوس ويكلي ركورد» يَوم 20 نِيسان 1901 . قالت: «إن هذا التحديد بواحدة هو الذي جعل بناتنا شَوارد، وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال. ولابد من تفاقُم الشر إذا لم يُتحْ للرجل التزويج بأكثر من واحدة».

قالت: «أيُّ ظنٍّ وخَرْص يحيط بعدد الرجال المتزوجين الذين لهم أولاد غير شرعيين، أصبحوا كَلاًّ وعارا وعالَة على المجتمع؟ فلو كان تعدد الزوجات مباحا لما حاق بأولئك الأولاد وأمهاتهم ما هم فيه من العذاب الهُون، ولَسَلِم عِرْضهن وعِرضُ أولادهن... إن إباحة تعدد الزوجات تجعل كل امرأة ربة بيت وأمّ أولاد شرعيين». قلت: كتبت هذا قبل الثورة الجنسية التي رمت بالحضارة الغربية في الحضيض الأخلاقي الذي يُباحُ فيه السِّفاح، ويتخلّف بعضه عن بعض، فيصوت برلمان متقدم متبنيا قانون الزواج بين الرجل والرجل وبين المرأة والمرأة، ويتظاهر المحرومون والمحرومات في مجتمع غربي متخلف لما يقنن الزواج اللوطي.

ما لنا نبحث عن عِلة شريعة تعدد الزوجات وحكمتها بذهننا الكليل القاصر عن إدراك مقاصد الرب الحليم الكريم. يكفي المؤمنين والمؤمنات علما أنها شريعة الله وسنة رسول الله. فمن آمن وأصلح وأدْلَى بحُجّة طاعته لربه وامتثل فأجره على الله. في البحث عن العلة والحكمة بأي وجه تَسَلُّقٌ على الشريعة، ورائِحة انهزامية أمام الفكر الآخر، وشيء من التنطع العقلاني الذي يحرِص على إبْصار ما لا قِبَل للعقل بإبصاره كله. وعذرنا أننا نخاطب الكافّة.

شريعة الله المطاعة تُحَرِّج على الزوج ذي الضرائر تحريجا شديدا أنْ لا يظلم إِحداهن في قِسمتها من وقته ونفقته ورعايته. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يومَ القيامة وشِقُّه سَاقط**». رواه أصحاب السنن عن أبي هريرة بسند صحيح. الشِّقّ: النّصف.

العدل بينهن هو الإطار الذي يطيبُ فيه التعدد عاقبةً أخرويةً. ظالم إحداهن يجيء يوم القيامة خَلْقاً مشَوّها إذا جاء المؤمنون العادلون خلقا كاملا. وعلى الرجل المضطر لتعديد الزوجات أَن يجتهد لتطيبَ له بينهن العشرة في الدنيا إن استطاع. كما وسعت عليه الشريعة فلم تحمِّله إلا حقا جامعا هو العدل، تتَنَاوشُه غَيْرة الضرائر، ومكائدهن، وتقلباتهن، واشتغال بعضهن ببعض. فذاك التوسيع بهذا الحَرَج. وإن الله عز وجل نصح لعباده النصيحة الكاملة في آية واحدة تقدمت إلى العباد بما لهم وما عليهم في تعديد الزوجات. وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ**﴾.[1] انكحوا ما طاب، فإن أسأتم التصرف والاختيار والسياسة الدقيقة وميزان العدل فأصبح عيشُكم مخَبّثاً فذلك إليكم، لأنكم ما عرفتم تطْييبَ النفوس لتطيب لكم الحياة.

يتعلق بعض المُنْكِرين شريعة التعدد بقوله تعالى: ﴿**وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾،[2] ويعرضون الآية على فريضة العدل ليستنتجوا أن التعدد مكروه شرعا، تكاد الآية تنهى عنه. وليس الأمر كما يتَعَلّقون لأن تمام الآية يفسر صدرَها. والتمام هو قوله تعالى: ﴿**وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾.[3] الذي ليس في المستطاع هو العدل بينهن في الميل العاطفي. وتمام الآية يشير على المبْتَلى بالتعدد أن يُسَدِّدَ ويُقارب، فلا يميل كل الميل إلى واحدة ويترك الأخرى كالمعلقة، لا هي مطلقة ولا هي تَحْظَى بما تَحْظَى به الأخرى.

روى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسِم بين نسائه فيعدلُ، ثم يقول: «**اللهم هذا قَسْمِي فيما أملك، فلا تلُمْني فيما تملك ولا أملك**». يعني الميل القلبي.

(1) سورة النساء، 3.
(2) سورة النساء، 129.
(3) سورة النساء، 128.

وتعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم حتى جمع بين تسعٍ هو من خصوصياته التي خصه الله بها، وهو سبحانه لا يُسأل عما يفعل. وتملأ المارقات، وأساتذتهن من المستشرقين، وعُمَدَاؤهن من الملحدين، الأرض عِياطًا وتشنيعا على نبي الهدى أن كان له تسعٌ وليس لأُمته من الذكور إلا حقُّ أربع. على أيّة أرضية تناقشين المارقات يا أخت الإيمان؟ تنزلين معهن إلى الحجاج العقلاني وفي قلوبهن إصرارٌ على النفاق!

لتنْوير عقل المؤمنات نورد ملخصا لما قاله العلماء في الموضوع. وللمنافقات الهَبَلَ. قال الحافظُ ابن حجر في «الفتح»: «والذي تحصل من كلام أهل العلم في الحكمة في استكثاره من النساء عشرة أوجه... أحدُها أنْ يكثُر مَن يشاهد أحواله الباطِنة فينتَفِيَ عنه ما يظُن به المشركون من أنه ساحر أوْ غيرُ ذلك. ثانيها لتتشَرّف قبائل العرب بمصاهرته فيهم. ثالثها الزيادة في تألُّفهم بذلك. رابعها الزيادة في التكليف: حيث كُلِّفَ أن لا يشغَلَهُ ما حُبِّبَ إليه منهن عن المبالغة في التبليغ. خامسها لتكثُر عشيرتُه من جهة نِسائه، فيَزداد أعوانه على من يحاربه. سادسها نقل الأحكام الشرعية التي لا يطَّلع عليها الرجال، لأن أكثر ما يقعُ مع الزوجة مما شأنه أن يختفي مثلُه. سابعها الاطلاع على محاسن أخلاقه الباطنية، فقد تزوّج أمّ حبيبةَ وأبوها إذْ ذاك يعاديه، وصفيَّةَ بعد قتل أبيها وعمها وزوجها، فلو لم يكن أكمل الخَلْق في خُلُقه لنفَرْنَ منه، بل الذي وقع أنه كان أحبَّ إليهن من جميع أهلهن. ثامنها ما تقدم مبسوطا (مفصلا في شرح ابن حجر في أبواب سابقة) من خَرْق العادة له في كثرة الجِماع مع التقلُّل من المأكول والمشروب وكثرة الصيام والوِصال، وقد أمر من لم يَقْدِرْ على مُؤَنِ النكاح بالصوم، وأشار إلى أن كثرتَه (كثرة الصوم) تكسِر شهوته (شهوة الجماع). فانخرقت هذه العادة في حقه صلى الله عليه وسلم. تاسعها وعاشرها ما تقدم نقله عن صاحب «الشفاء» من تحصينهن والقيام بحقوقهن. والله أعلم». انتهى كلام الحافظ رحمه الله.

هذا ملخص ما وصل إليه تحليل العلماء وتعليلهم. ولله سبحانه من الحكمة في ذلك ما لا يدريه العقل. من وراء التعليل السياسي وتقوية العشيرة بالمصاهرة،

ومن وراء تكثير من يعاشرنه عن كثَبٍ لينقُلْن إلى الأمة ما من شأنه أن يخفى فلا تطلع عليه إلا الأزواج، حكمة نتلقاها بالإيمان والتسليم.

نختم بكلمات نيرة من أدب الرافعي رحمه الله قال: «يتهموننا بتعدد المرأة على أن تكون زوجة لها حقوقها وواجباتها -بقوة الشرع والقانون- نافِذةً مُؤدّاةً، ثم لا يتهمون أنفُسهم بتعدد المرأة خليلةً مُخادِنةً ليس لها حق على أحد، ولا واجب على أحد، بل هي تتقاذفها الحياة من رجل إلى رجل، كالسِّكّير يتقاذفه الشارع من جدار إلى جدار! (...).

«ماذا تتوقّعون يا إخواني من تلك الرقيقة الناعمة، المتأَنِّثَة بكل ما فيها من أنوثة تكفي رجالاً لا رجلا واحدا، وقد ضعُفَتْ روحيّة الأسرة في رأيها، وابتُذِلَتْ الروحيّة في مجتمعها ابتذالاً، فأصبح عندها الزواج للزواج على إطلاقه، لا لتكون امرأة واحدة لرجل واحد، مقصورةً عليه. وبذلك عاد الزواج حقّاً في جسم المرأة دون قلبها وروحها. فإن كان الزوج مشؤوما منكوبا لم يستطع أن يكون زوج قلبها فعليه أن يدَع لها الحرية لتختار زوج قلبها! ومعنى ذلك أن تكون هذه المرأة مع الزوج الشرعي بمنزلة المرأة مع فاسق، ومع فاسق بمنزلة المرأة مع الزوج الشرعي». انتهى كلامه. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

القِوامة والوصية

تدخل قِوامة الرجل في الامتحان، أشدَّ ما يكون الامتحان، في حالة تعدد الزوجات. وكفى بهذا الامتحان الشاق العسير زِماما وقيدا للتعدد الشهواني، يكُفّ العقلُ وحِساب الكُلفة من تدفَعُه الهِواية.

عقْلَ المؤمن أعني، الذي يَعلَم ما فرض الله عليه من حقوق للزوج، وما أناط به من مسؤولية القِوامة، وما أُكِّد عليه في حق النساء من وَصاةٍ نبوية. وكُلفَةَ العدل وحسنِ المعاشرة أعني، لا الكُلَفَ المادية التي لا يبالي بها الأغنياء الهواة المتسلِّلُون إلى الـمُتَعِ المنَوَّعة من خلال الحق الـمُباح -عند الضمائر الخَرِبة- في التزويج والتطليق والتعديد بلا التفات إلى ما يتركُهُ الحُطَمَةُ في طريقه من حُطام بشَرِيٍّ.

إن القِوامة التي فرضها الله على الزوج هي أخت الحافظية التي فرضها على الزوج الآخر أمانة ومسؤولية، تُثْقِل مسؤوليتَها، ليست تخففه، الدرَجةُ التي جعلها الله للرجل ليقود السفِينة بحنكة ودراية ومداراة.

المداراة من مُصْلِحات البيئة الزوجية، بل من أساسياتها. المداراة تعني السياسة الكيِّسة، ومراعاة نفسية المرأة، وما جُبلَت عليه مما لا يتفق وأسلوب الرجل في الحياة وطريقته في التفكير، ومنطِقهُ في تصنيف أهميات المعاش وأولوياته.

«باب المداراة مع النساء» مدخَل لفقه المعايشة عنون به البخاري في كتاب النكاح من صحيحه. وروى فيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**المرأة كالضِّلَعِ، إن أقمتها كسرتَها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عِوَج**».

يَفهَم هذا الحديثَ بعضُ العلماء، ومن كبارهم، فَهمـًا حَرْفيا. فالمرأة عوجاء مُطلَقَ الاعوجاج، والرجل هو الاستقامة والمعيار. وكأن رسول الله صلى الله

عليه وسلم الذي أوتي جوامع الكلِم ومفاتيح البلاغة لا يُفهَم مقصودُه إلا متحيزا ضدّ المرأة، وهو الذي أوْصى بها ثم أوصى، وداری ثم داری، وأحسن ثم أحسن.

فليس من التَّجَنّي على اللغة وبلاغتها، ولا على الرجل وطبيعته المخالفة لطبيعة المرأة، ولا على مقاصد الشارع أن نفهم الاعوجاج في الضّلَعِ كناية عن الاختلاف بين الرجل والمرأة في التركيبة النفسية، لا إطلاقا لاعوجاج في الإناث يُقَاس باستقامة الذكران. فلو قلَبْنا -ولا ينبغي- المنظار وقِسْنا الرجلَ على المرأة لحكمنا أنه هو المعوَج لا هي. لا ينبغي أن نقلب لأن القِوامة والدرجة للرجل جعلها الله، والاعوجاج إلى المرأة الضلَع نسبه رسول الله. وأستغفر الله.

إن اختلاف نفسية المرأة، وغلبة العاطفة عليها إن غلب على الرجل المنطق العقلي، مزية وتكامل. لا يصِحّ أن نُنَقصَها لمكان تركيبتها النفسية إلا لو صح أن نلومها على اختلاف تركيبها الجسمي. اعوجاجها الضِّلَعي هو استقامتها. هو انحناء معنوي وحُنُوّ. هو عاطفة ورحمة.

الباب التالي من صحيح البخاري «باب الوصاة بالنساء» يقول فيه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم كما روى أبو هريرة: «**واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن خُلقن من ضِلَعٍ، وإن أعوج شيء في الضِّلَع أعلاه. فإن ذهبتَ تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج. فاستوصوا بالنساء خيرا**». في رواية مسلم: «**وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرُها طلاقها**». وفي رواية ابن حبان والحاكم والطبراني في الأوسط: «**خُلقت المرأة من ضِلَع، فإن تُقِمْها تكسرْها، فدارِها تعش بها**». كذا قال الحافظ رحمه الله.

وصاة نبوية إذاً ومداراة. أكدها صلى الله عليه وسلم وفَصَّل تَحمُّلاتها في خطبة الوَداع. روى مسلم في حديثه الطويل عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال في هذه الخطبة الوصية العظيمة: «**فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله. ولكم عليهن أن لا يُوطئن فُرُشَكم**

أحدا تكرهونهُ. فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غيرَ مبرح. ولهن عليكم رزقهن وكِسوتهن بالمعروف». الحديث.

نرجع إلى قضية «**اضربوهن**» في الفقرة المقبلة إن شاء الله. ونتأمل مسؤولية القوامة في دائرة الوصية النبوية النهائية في خطبة الوَداعِ، مرتفعين بتلك المسؤولية من معنى تكفل الرجل بقوته وعضليته وماله ورئاسته إلى معاني طاعة الله وطاعة رسوله ورعاية وصيته. خسِرتْ الأمة إن أضاع شطرُها حق شطرها، وعق الرجالُ وصية نبيهم إن لم يحفظوهُ في الضعيفة والضعيف. عن أمِّ سلَمة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثَلاثٌ، كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانُه وخفِي كلامه (عند الاحتضار). جعل يقول: «**الصلاةَ وما ملكت أيمانكم، لا تكلفوهم ما لا يطيقون. اللهَ اللهَ في النساء، فإنهن عَوَانٍ** (أسيرات) **عندكم**». الحديث رواه النسائي في الكبرى وابن ماجة كما قال الحافظ العراقي رحمه الله.

كل جاهلية لا تدين بدين الله ولا ترعى قواعد المروءة فالعلاقات فيها بين الرجال والنساء علاقة قوي بضعيفة. القوي يستعمل سلاح الأقوياء من إكراه وتحكُّم في النفقة وازدراء بخصمه، والضعيفة تستعمل سلاح الضعفاء من مكر والتواء وحيلة وخديعة وخيانة. قام الدين في الأمة إن حفظت المؤمنة أمانتها، ودارَى المؤمن في قوامته. وعاد الناس إلى نوع من جاهلية إن لم تحفظ هي ومارس هو سلطته لا يراعي مَنْ نُكِب في طريقه ولا من عُطِبَ.

قال عمر بن الخطاب: «كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئا، فلما جاء الإسلام وذكرهن الله رأينا لهن بذلك حقا». الحديث رواه البخاري.

كانت الأمهات في جاهلية العرب يُعلِّمن بناتهن اختبار الأزواج لتحُسَّ العروس موطن الضّعف في الرجل فتهجُم منه. كانت الأم تقول لابنتها: اختبري زوجك قبل الإقدام والجراءَة عليه. اِنزعي زُجَّ رُمحه (حديدة رمحه). فإن سكت

فقَطِّعي اللحم على تُرسه. فإن سكت فكسِّري العظام بسيفه. فإن سكت فاجعلي الإكاف (البردعة) على ظهره وامتَطيه فإنما هو حمارُك.

من هذه المنزلة الركيكة للمرأة رفع الله ورسوله المرأة بما ذكرها الله وبما وَصّى بها رسول الله إلى مكانة الشريكة المسؤولة، والأليفة الـمُدَلَّلَة. الزواج الإسلامي السعيد ما كانت علاقات القوة فيه أخْفى، وما كانت المودة، وروح الدعابة، والكلمة الطيبة اللطيفة فيه أفشى. روى الشيخان قصة تقصها أمنا عائشة عن نسوة اجتمعن، فتذكر كل منهن زوجها بما فيه من عيوب ومحامد. قطعة أدبية غنية بفرائد اللغة وشوارد البلاغة، لو تدارستها المؤمنات ليصلن إلى مفصِل من مفاصل القصة استحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم مغزاه، فوصلتنا القصة مطبوعة بطابَع القَبول النبويِّ، لتعطينا نموذجا رفيعا من ملاطفة الزوج ومداراته وتحببه.

من بين بطلات قصة أمنا عائشة شخصية اسمها أم زرع. قالت أم زرْعٍ تذكر محاسن أبي زرع. «زوجي أبو زرع، فما أبو زرع! أناسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ (جعل في أذُنَيَّ قِرطَةً تتحرك)، وملأ من شَحْم عضُدَيَّ، وبَجَّحَنِي فَبَجَحَتْ إليَّ نفسي (فَرّحني بنفسي من كثرة إحسانه إلي). وجَدَني في أهل غُنَيْمَةٍ بِشِقٍّ (أهل غنم قليلة ترعى بمكان شاق)، فجعلني في أهل صَهيلٍ وأطيطٍ (الصهيل صوت الخيل والأطيط صوت الإبل)، ودائِسٍ ومُنَقٍّ (أي خَدمٍ يدرسون الزرع المحصود ويُنَقونه). فعنده أقول ولا أقَبَّحُ، وأرقُد فأتصبَّحُ (لا يكرهها أحد على القيام من نومها للتعب والخدمة)، وأشرب فأتقنَّحُ (أي أشرب كفايتي وفوْق كفايتي).

وتمدح أم زرع والدة أبي زرع، وابن أبي زرع، وبنتَ أبي زرع، وجارية أبي زرع. رضِيتْ أم زرع عن أبي زَرع فانطلق لسانها بالشكر، ترى الدنيا بمنظار السعادة والطمأنينة والغبطة.

قالت عائشة رضي الله عنها: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**كنتُ لكِ كأبي زرع لأم زرع**». في التمثيل وتعاطي الأدب، كما في الحياة اليومية حين

تكسر الضرة صحْفة ضرتها كما قرأنا في فصل سابق، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مثال الزوج الكامل. في المُقام والسفر لا تتغير سياسته للمرأة: هو بها رفيق وفي رعاية نفسيتها دقيق. روى البخاري: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في سفر ومعه نساء على ظهور الرواحل، فَحَدَا غلام اسمه أنجشة بالإبل (أي غنّى لها) فأسرعت، فنبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا: «**رُويدَك يا أنجشةُ سَوْقك بالقوارير**». في رواية: «**لا تكسِر القوارير**». القوارير آنية الزجاج، كنَّى بذلك صلى الله عليه وسلم عن ضَعف المرأة وتضرُّرها مما يتحمَّله الرجال من مشاق ولا يُبالون.

كان مما استقر عند الصحابة واقتنعوا به من سنن الإسلام الرفق بالمرأة. حتى من كانت بقيت فيه خشونة من الماضي غيَّر أسلوبه. عمر بن الخطاب الذي كان النساء ينطلقن في الكلام في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا دخل عمر انخنسن وانكمشن، عمر يوصي بهن ويقول: ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي، فإذا التمسوا ما عنده وُجِدَ رجُلاً.

قولة أمير المؤمنين عمر توصي بمزج اللين والقوة. وهو فنٌّ عسير، خاصة على شاب نشأ في العفاف والطُّهر سالما من آفات الاختلاط الهوس ونفاقه وميوعته، لا عهد له بنفسية المرأة ومعاناة «العِوَج الضِّلعِي»، فيعامل العروس معاملة الإخوان، فربما يُسِفُّ ويُهْدِر رجولته بالتنازلات والمرأة تريد رُكْنا قويا في بيتها تطمئن إليه، وربما يشتدُّ ويقسو ثم لا يعرف بعد الصعود على السلَّم من أين النزول.

تنبيه النبي صلى الله عليه وسلم أنجشةَ ليرفُقَ بالقوارير اهتمام بجسوم لا طاقة لها بتحمل وعْثاء السفر. وفي كتاب الله عز وجل التشديد والوعيد لِمن عنُف بغير حق على الأعراض، وقذف المرأة ولو تلويحا بما يخدش كرامتها. أيُّ ضِلَعٍ كريم عند الله تعالى هذا المخلوق الذي ينزل الوحي بحمايته ورعايته في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا

﴿لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.[1] تجريح أبدي وتفسيق. أعظم منه وأشد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.[2]

أي خزي أخزى من لعنة الدنيا والآخرة، وأي عذاب أشد هولا من عذاب النار! يُجْلد حتى من لَوّحَ بالطعن في عرض امرأة محصنة مؤمنة غافلة. كمن قال لها: لم يجدك زوجك عذراء. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد في خلافته من عَرَّضَ بالفاحشة في حق امرأة ويقول: «إنّ حِمَى الله لا تُرعى حواشيه». هناك حالات فقد البَكارة لجرح أو حادثة. وعنها يقول ابن حزم رحمه الله في «المحلَّى»: «وذهاب العُذْرة (البكارة) يكون بغير الزنى أو بغير وَطْءٍ كوقعة أو غير ذلك».

الخلاف الفقهي في من وجد زوجه فقدت عذرتها، فيُسْرِع إلى اتهامها، هل يُعد ذلك قذفا أو لا، وهل يتلاعنان أو لا. إذا نطق بتُهمة الزنى فهو قذف بلا ريب إن كانت مؤمنة محصنة (معروفة بالعفاف) غافلة. أما إذا أخبر بأنه لم يجدها عذراء فقوله لا ينفي احتمال جرح ووقعة وحادثة. والحِمَى خطِر لا تُرعى حواشيه كما قال الفاروق رضي الله عنه.

---

(1) سورة النور، 4.

(2) سورة النور، 23.

الرجل الخشن

لا تتعاطف كلمةُ «زوج» مع كلمة «خشن» ولا تتوادعان. لذلك عنوَنّا «الرجل الخشن» لنصرِف السوءَ عن الوجه الذي يريده الله وجها جميلا للتساكن والمودة والرحمة. الزواج تلاطف وتعاطف، والخشونة علاج مشروع لحالات شاذة، أو تسلط من قِبَل رجل لا يحسن القيام بمأموريته ومسؤوليته، فيفشل في سياسة سفينته وتوجيهها، فلا يشعر إلا وهي نهبٌ للصخور والمخاطر، فيعنُفُ ويتخبّط ويَخْبِطُ. الزواج أُلْفةٌ وقربٌ، والخشونة نُفور وإِبعاد.

جاءت الآية المبيحة للضرب في سياق علاج لمرضٍ، لا قاعدة من قواعد المعاشرة. قال الله تعالى: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً.وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾.[3]

إنه تطبيب لحالات مرضية على أربعة مراحل: مرحلَةٍ يخاطَبُ فيها عقل المرأة بالوعظ، ومرحلة بعدها تُزْجر زجرا عاطفيا بالهجران، وثالثة حين تتفاقم المشكلة، وتنغلق أبواب التفاهم، فلا تَجد موجة الغضب أمامها من سَدٍّ، فتتدخل الأيدي، وذلك إيذان بأن أهل السفينة في دُوارٍ، وأن الغرَقَ على وَشَكٍ أن يُنهِي الرحلة. وهنا تأتي المرحلة الرابعة، وهي تحكيم عدلين يعينهما القاضي ليصلحا ذات البَيْن بحكمة العقل، عائدَين بالمسألة إلى نقطة انطلاق الخصام حين وعظها فلم يغن الوعظ. في المرحلة الرابعة يتدخل أجنبيان ليلطفا الجو، ويُرَغِّبا في الصلح، ويوَفّقا ما اختلف. وليُعَلِّمَا المتخاصِمَيْن ما غاب عنهما من الفقه في حُمَّى الغضب، وما فسَد من الرأي، وما اختل من التوازن.

(3) النساء، 34-35.

وقد احتاط الشرع لِمُرْتادي المِصَحَّة وضحايا الطوارئ بشرطين كيلا تزيغ بالرجل أعصابُه فيضع الدواء بِجُرْعة قاتلة، وكيلا تتجاوز المرأة حدود ما يُحتَمَلُ فيضطر الناس إلى مصحة أصلا. الشرط الأول أن لا تَنْشُزَ المرأة، والشرط الثاني أن يتدرج الرجل المبتَلَى بنفسه ومزاجه أو بضراوَتها أو بهما معا في تطبيق العلاج.

النشوز لغة الارتفاع. فالمرأة الناشزُ هي المتكبرة على زوجها، العاصية له الكارهة لعشرته، المعرضة عنه. وكفى بهذه الأعراض دَلالة على أن الجراثيم المرضية تغلغلت. في الآية الكريمة ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُن﴾.[1] لا ينبغي أن يأخذها بالظِّنَّة ويتهمها بالنشوز بمجرد تحسس وتوجس. بل حتى يظهر له من تصرفها ما به يعلم أنها ناشز. وقد فسر العلماء ﴿تَخَافُونَ نُشُوزَهُن﴾: تعلمون نشوزهن. عندئذ يعظ، ثم إذا أعيَى الوعظ يهجرُ ثلاثة أيام لا أكثر. فإنه يحرم على المسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث، فكيف بمن اختارها قرينة حياته. فإذا فشِل الهجْر فالباب مُشْرَع على الكارثة. الضرب كارثة على المرأة المتزنة الرقيقة العاطفية. لا شيء يؤلمها كالهجر، فإن افْتَدح الهجْر بالضرب فقد طفَحَ الكيل.

من النساء عواقل وعاطفيات، ومنهن بدَنيات ربما نشأن في بيئة يُعبر فيها الرجل عن حبه لامرأته وغيرته عليها بكفيه وعصاه لا بلسانه وعباراته الحلوة. وقد يكون الرجل ممن قرأ بعض التفاسير فوجد أن بعض الفقهاء يجيزون الضرب ما دون كسر العظام. أو يقرأ في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر النساء بطاعة الأزواج فيتخذها مُتَّكَئًا لتعسفه وتأَمُّره وظلمه. ما أتى من تشديد على المرأة في طاعة زوجها ما هو تعبيد للمرأة. يقرأ أحدهم الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: «لو كنت آمِرا أحدا أن يسجد لأحدٍ لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها». يقرأه فيتأله ويشتط ويظلم.

أو يقرأ تحريجه صلى الله عليه وسلم على النساء في قوله: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبَتْ عليه لعَنتْها الملائكة حتى تصبح**». رواه البخاري عن أبي

(1) سورة النساء، 34.

هريرة. يقرأه كأنما عثَر على صكِّ تملِيكٍ لضيعة، فتتحول في ذهنه المفاهيم، وتنقَلِبُ العشرة الزوجية من معاني المحبة والمودة إلى علاقات الجلاد بضحيته، والمالك في مِلكِهِ. وعندها فالوحشة والنشوز والتكبر منه هو لا منها.

جاءَ العلاج الضارب في خطبة الوداع يقول: «**لكم عليهن أن لا يُوطِئْنَ فُرُشَكم أحدا تكرهونَهُ. فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مُبَرّح**». هذه رواية مسلم. وعند الترمذي حديث صحيح رواه عن عمرو بن الأحوص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع، فكان مما قال: «**ألا واستوصوا بالنساء خيرا، فإنما هن عَوانٍ عندكم، ليْسَ تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبيِّنة. فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح**». الحديث.

الفاحشة المبيِّنة فُحشٌ بالغ ونشوز فاضح. بلغ سوء التفاهم بين الرجل والمرأة تُخومَ الهلاك، فالضرب حبل نجاة يُدَليه الشارع ليتمسك به غريقان. ما هو تشريع كرامة، إنما هو تشريع إغاثة.

الأصل هو حفظ كرامة البيت، وصوْن المرأة، والتلطف بها، والتماس أسباب رضاها. لا التجسس عليها، وإحصاءُ أخطائها. من الخشنين من يجلد امرأتهُ لأنه لم يجد طعامه على ذوقه. ماذا يفعل مثل هذا لو كسَرَتْ المرأة صحفة طعام الأضياف أمام الأضياف**!**

في الباب العشرين بعد المائة من «كتاب النكاح» في صحيح البخاري: «باب: لا يطرُق أهلَهُ ليلا إذا أطال الغيبة مخافَةَ أن يُخَوِّنَهم أو يلتمس عثراتهم». ذكر فيه حديث جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا أطال أحدكم الغيْبة فلا يطرُقْ أهله ليلا**». ويروي مسلم والنسائي حديث جابر كما يلي: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرُق الرجل أهله لِئَلاَّ يتخَوّنَهم أو يطلُب عثراتهم».

«**يَطرُقُ أهله**»: يجيئهم ليلا. من فعل ذلك بعد طول غياب فكأنما تجسس على أهله. والزواج حقَّ الزواج ما بذَرَ فيه الرجل والمرأة بذور الثقة، لا بذور الشك،

وما استنبتوا فيه شجرة التقوى تغدو عليها وتروح شمس مخافة الله، لا شجرة الزقوم التي يقطُف الشيطان ثمارها. وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في تعليل كراهة الطروق: «أن يجِدَ أهله على غير أُهبةٍ من التنَظف والتزَيُّن المطلوبِ من المرأة فيكون ذلك سبب النّفرة بينهما». وإلى هذا أشار الحديث الشريف الذي يرويه البخاري بُعَيْد حديث النهي عن الطروق. فيه عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه مَرْجِعَهم مَن سَفَرٍ: «**أمْهِلُوا حتى تدخُلوا ليْلاً -أي عِشاءً- لكي تمتشِط الشعثة وتستَحِدَّ المُغِيبة**». وهذا ليس طروقاً، فالشعثاء والمغيبة التي تمَهَّلَت القافلة من أجلهما بلغهما خبر قدوم الأزواج.

عند البخاري «باب ما يُكْره من ضرب النساء» روى فيه عن عبد الله بنِ زَمْعَة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لاَ يجْلِدْ أحدُكم امرأته جلْدَ العَبْد ثم يجامعَها في آخر اليوم**». وجاء النهي عن ضرب النساء مطلقاً. جاءت السنة لتُبيّن للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتقون. نِطاق الشريعة واسِع ليحافظ الناس على بِنْية الزواج ما أمكن، وحتى مَشارِفِ النهاية. وحتى في الحالات الاستثنائية المَرَضِيَّةِ.

لكن السنة الفعلية من مثاله صلى الله عليه وسلم مع أزواجه، ومن هديه وتوجيهه ووصيته، هي العافية لا المرض، هي الصحة لا العاهة. روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم عن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تضربوا إماء الله**». فجاء عُمَرُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ذَئِرْنَ النساءُ (نشزن واجترأنَ وثُرْن) على أزواجهن. فرخَّصَ في ضربهن. فأَطاف (أحاط) بآلِ رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء كثيرٌ يشكون أزواجهن. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن. ليس أولئك بخياركم**».

الحديث صحيح، صححه الحافظ ابن حجر. والحادثة تعليمية عالجت فيها الحكمة النبوية مشكلا عاناه المهاجرون الذين كانوا يحكمُون في مكة نساءهم ويشتدون عليهن، فلما ائتلف المجتمع الإسلامي تعلمت المهاجرات من الأنصاريات رِقة في المعاملة لا تعرفها قريش. فذئرن، فلما عالج ثورتهن الرجال

بالرخصة الضاربة عدن للثورة وتظاهرن وأطفْنَ بآل محمد، فوجدن الغوث. وتعلَّمْنا معشر الأمة رجالا ونساء أن خيار الرجال لا يضربون، وتستنتج المؤمنات إن شئن أن خيار النساء من لا ينشزن ومن يدارين أزواجهن فلا تجمحُ بهن وبهم الفلَتات العصبية، والفورات الغضبية.

خيار الأزواج ما تشَبَّه برسول الله صلى الله عليه وسلم. روى مسلم وأبو داود عن عائشة أنها قالت: «ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قطُّ بيده، ولا امرأةً، ولا خادِما. إلا أن يجاهد في سبيل الله. وما نِيلَ منه شيء قط فينْتَقِمَ من صاحبه، إلا أن يُنتَهَكَ شيء من محارم الله فيَنتَقِمَ».

خيار الأزواج مَن اهتدى بهديه صلى الله عليه وسلم القائل: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**». الحديث رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها بسند حسن صحيح. خيار الأزواج من عمل بوصيته صلى الله عليه وسلم وهو يوضّح ويبين ما في الضِّلَعِ من عِوَج يقابله استواء، وما في الرجل من خُلُقٍ حسن إن هو قابل بين المحاسن والأخطاء ووازن. قال صلى الله عليه وسلم فيما روى مسلم عن أبي هريرة. «**لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة (لا يُبغضها): إن كرِه منها خلُقـًا رضي منها آخر**».

ولتلافي كل ما يدحرج مركبة الزواج في المنحدر شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم النكيرَ على من صبّ الزيت على النار ليفسد ما بين الزوجين. روى أبو داود عن أبي هريرة بسند حسن أنه صلى الله عليه وسلم قال: «**من خَبّبَ زوجة امرئ أو مملوكة فليس منا**». خبب: أي أفسَد. بأي وجه كان الإفساد. قال العلامة المُناوي يحكي قول أحد مشايخه: «ومن ذلك ما لو جاءته امرأة غضبانة من زوجها ليُصلح بينهما مثلا، فيبسُط لها في الطعام ويزيد في النفقة والإكرام ولو إكراما لزوجها. فربما مالَت لغيره وازدرتْ ما عنده، فيدخل في هذا الحديث. ومَقام العارف أن يؤاخذ نفسَه باللازم وإن لم يَقصده. قال: وقد فعَلتُ هذا الخلُقَ مرارا، فأُضَيِّقُ على المرأة الغضبانة وأوصي عيالي أن يجوِّعوها لترجعَ وتعْرفَ حق نِعمة زوجها».

قلت: ومن عواقل الأمهات من يفعلن ذَلك، فيرددن الغاضبات من بناتهن ويطردنهن إلى بيوتهن. لكن من الرجال الخشنين من تتورط المرأة فيهم لَمَّا لَمْ تأخذ قبل الزواج بزمام التفكر في العواقب، ولم تحسن الاختيار، وذهبت مع العاطفة، واغترت بالكلام المعسول والمظهر واللحية التقية. مفتاح قفل سجنها اسمه الخُلْعُ. والخلع مذَمَّة الرجل ولُؤْم بعض الرجال.

«الجنة عند رجلها»

بهذه الصيغة جاءت الوصية بالأم في حديث رواه النسائي عن معاوية بن جاهمة أن أباه جاهمة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله! أردتُ أن أغزُو وَقد جئتُ أستشيرك. فقال له: **هل لك من أم**؟ قال: نعم. قال: **فالزمها، فإن الجنة عند رجلها**». وفي الباب روايات بصيغ متعددة مثل «**الجنة تحت أقدام الأمهات**».

من ذا الذي يرضَى أن تَنسُل له زوجه ذرية ضعيفة مهينةً مريضةً نفسيا، نشأت على اللف والدوران والكذب والحيلة والكيد والمراوغة؟ إذا كانت العشرة الزوجية معتلة فالأمومة مُعَوَّقة والذريَّةُ ترضَع الآلام. من كان من الآباء لا يحب تلك الصفات الرديئة في نسله فليعمل على تلافي أسباب تكونها في بيئته. يفعل ذلك رحمةً بالنسل إن كان دينُه وخوفه من الله لا يحمله على الاستقامة. يظلم الزوج ويضربها لا يحسُبُ حساب الآخرة ولا حساب الدنيا.

مَن مِثلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ ومع ذلك، وتعليما وتأديبا لنا، يضرب لنا المثَل في اتقاء الله في الضعيف. روى ابن سعد أن خادما أغضبته صلى الله عليه وسلم فهددها قائلا: «**لولا القِصاص يومَ القيامة لأوْجعتُكِ بهذا السواك!**» تهديد فقط! وتهديد بسِواك! ما يوجع السواك وما يؤلم يا أيها الفقيه الذي يفتي بضرب المرأة ضربا لا يكسر العظام؟ لا تكسر العظام وشرِّح اللحم ومزِّق الجلد وأسِل الدماء. فإذا تذكرنا أنه صلى الله عليه وسلم لا يغضب إلا إذا انتُهِكت حرمات الله، ظهر لنا أن الخادم لا شك بالغت في السوء، وقدَّرنا حقَّ قَدْرِه لطف التأديب مقَارنا بِعظم الجُرم.

من كانت رجولته لا تتجلَّى إلا في الوحشية العَضلية والعدوان على أم أولاده، وكانت مُروءته تنتهي حيث ينتهي مجلس المؤانسة والمجاملة مع الأصدقاء، فإذا

دخل البيت دخل غولا، وكان حسابُ الآخرة والرحمةُ بالخلق مزايا مجهولة في قارَّته فذاك أفعوان بشريٌّ. إلا أن تكون هي أفعى تستفِز، وتختزل حيثيَّة وجودها في المماحكة واصطناع أسباب الصدام. إلا أن تكون دخائلها وأباطيلها مما يوحي الشيطان لأوليائه.

إن فكرة الأمومة، وقداسة الأمومة، وحرمة الأم، ووظيفة الأم، لمما تتقدم به مُناضلات «تحرير المرأة» من الإسلام، يَعِبْن على الإسلام أن رفع الأم مكانة التعظيم، ويَعبْن الإسلام بعيوب من انتسب إلى الإسلام وأساء القِوامة، وعنُفَ وضرب وظلم وشرَّد. ثم يتهمنَ الإسلام بأن المرأة في دين الإسلام ما هي إلا وِعاءُ وَلَدٍ.

يتقدمْنَ المناضلات المارقات بهذا ومثلِه معه، ومعهن الحجة القاطعة والنموذج الكامل: المرأة الغربية العالمية التي تحررت، أو كادت تتحرر من أعباء الأمومة.

الاتجاه الإديولوجي النسوي العالمي، بقيادة يتزعمها في كل بلدٍ أكثرهن تفرنجا، هو تخلية المرأة من أثقال الحمل والإنجاب والتربية. عاملان اثنان، بل مِعولان اثنان، آخذان في الإجهازِ على أطلال الأسرة، وأطلال البِنية النفسية الفطرية. أحدهما ضرورة تفريغ المرأة من خدمة البيت وأعباء الأمومة لتُرضي طموحها في تسلق السلم الاجتماعي ومُطاولة الرجل لنزع السلطة الاقتصادية والسياسية من يده، ولتترقى في ميدان الأعمال المنتِجة الصانعة البائعة التاجرة.

يُرِيحُها من أشغال البيت آلات ومكائِن. وتلك نعمة لو شكرتها! ويفتح لها أبواب التمني، بل يهدم فيها بقايا إنسانيتها، المعول الثاني، وهو التقدم المذهل لتكنولوجيا العصر المزدوجة: الإلكترون والهندسة الوراثية. تفتح في الذهن النسوي الثائر على الفطرة تكنولوجيا العصر آفاقا لتصنيع الإنسان وتحويله وتحويره على مَقاساتٍ وظيفية، تكون له الأنابيب رحِماً، والبطُونُ المستأجرة من نساء العالم المستضعف وعاء، ويكون له مربيا ما يفتحه الله على خلقه من بلاء. تعوِّضُ الأنابيب، ويعوض البلاء الفطرة والأمومة.

وتحلُم الفيلسوفاتُ المناضلات بثورة مقبلة تنتصر فيها الأنوثة على الذكورة في يوم قريب، يوم يَكتشف فيه الـمَهَرة من اللاعبين بالجينات الوراثية طريقة لتصنيع جنس من البشر خُنْثَى جامعٍ بين لذات الذكورة ولذات الإناث. وبذلك تقضي المناضلات الفيلسوفات على تسلط الذكور، ويتحررن من حُمولة الأمومة وأثقالها. إديولوجية متطرفة هي فلسفة الخنثى المحايِد جنسيا. آخر صيحة في نادي الجنون النسوي.

ما يعتبره العقل والنقل شرفـًا، وما تعتز به وتعيش له وتفتديه بالنفسِ الفِطرُ السليمة، تعتبره المعتوهات عبودية وانهزاما. بشِّرِيهنّ بمزيد من الحرية لتكون الراقصة أكثر عُرْيا، والممثلة أشد فتونا، والمغنية أقل حياء، والعاهر عضوا محترما في المجتمع، والكاتبة رئيسة المعمل، والمناضلة رئيسة دولة جامعة للمجد من أطرافه في ميدان السلطة والمال وفي ميدان الـمُتعة والتهتك.

تلك بشائرُ يَطْرَبْن لها، ومشاريع مستقبلية، وبرامج عمل. تكونين إن بشرت بذلك وآمنتِ به مثالا للمرأة المعاصرة التقدمية الحرة. أمَّا أن تفتحي معهن الحوار حول العفة والحياء والطُّهْر والعدل والمودة بين الأزواج والأمومة السعيدة فكأنك تُقْحِمِينهُنَّ في العدَم وتهددين وجودهن.

أما إن ذكرت لهن الله، والدار الآخرة، والطهارة، والصلاة، والإسلام، والإيمان، وما خلق الله، وما بعث من رسل، وما سخر من كون، وما أعد بعد الموت من نعيم وجحيم، فقد بلغَتْ الجدلية منتهاها، وآنَ للنقيض أن يثب على النقيض بالأظافر وَالأنياب.

نستمع إلى كلمة الحق، راجعين من الجدل الهوسي، في وصية الله ورسوله بالأم. قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.(1) وقال جل من قائل: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ

(1) سورة لقمان، 13.

أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.[1]

المسلمون لله هم المنتصحون بنصيحة رسول الله، العاملون بوصية شكر من حملت على وَهن وكَره، وأرضعت، وغذّت، ونظفت، حتى بلغ أَشُدَّه المسلم، وبلغت أَشُدَّها المسلمة، دعا الله ودعت لمن ولداها وربياها، وسألته الصلاح في ذريتها ليتصل نسب الدين من جيل لجيل كما هو متصل نسب الطين.

وصية القرآن ذكرت الوالدين وفريضة الإحسان إليهما إجمالا، ثم فصّلَت وذكَّرت وأطْنبت في الأم ترجيحا لحقها وتقديما. وكذلك رجح وفصَّل وقدر المعلم النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة الذي رواه الشيخان، قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ الله! مَنْ أحقّ الناس بحسْنِ صحابتي؟ قال: **أمُّك**. قال: ثم مَنْ؟ قال: **أمُّك**. قال: ثم مَن؟ قال: **أمك**. قال: ثم من؟ قال: **أبوك**».

أمر صلى الله عليه وسلم ببِر الوالدين ولو مشركين. ذلك رعايةً لحبْل الفطرة من جانب المسلم والمسلمة وإن كان الأبوان كفرا بوظيفتهما الفطرية وجهلاَها وعقّاها: ألا وهي مَنْح الذرية أمانة الإيمان بالله مصحوبة بأداء أمانة الإنجاب والإرضاع والتغذية وتربية الجسوم. روى الشيخان وأبو داود عن أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «قَدِمَتْ عليَّ أمِّي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: قدِمَتْ عليَّ أمِّي وهي راغبة (طامعة في عطاء ولم تجئ مسلمة مهاجرة)، أفأصِل أمي؟ قال: **نعم، صِلِي أمَّكِ**».

يُبَرّ بالأم وتوصَلُ مشركة. ويُبَر بها بعد موتها كما كان يبر بها في حياتها. روى مسلم والترمذي وأبو داود عن بُرَيْدَة بنِ الحصيب رضي الله عنه قال: «بينا أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتته امرأة فقالت: إني تصدقت

(1) سورة الأحقاف، 14.

على أمي بجارية، وإنها ماتت. فقال: **وجبَ أجرُكِ، ورَدّها عليكِ الميراثُ**. قالت: يا رسول الله! إنها كان عليها صوم شهر، أفأصوم عنها؟ قال: **صومي عنها**. قالت: إنها لم تحُجَّ، أفأحُج عنها؟ قال: **حُجي عنها**».

كما أوصى الله بالأمهات إحسانا، توعَّد من عقهن، وقَرن بين حرامَين كبيرين. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله حرّم عليكم عقوق الأمهات، ووَأد البنات، وَمنعاً وهات. وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**». رواه الشيخان عن المغيرة بن شعبة. حرامان متوازيان عقوق الأمهات قتل لآمالهن كما هو وأد البنات إقبار لأجسادهن. وفي الحديث تغطية كاملة لـحُرمة المرأة من لَدُنْ ولادتها إلى كبر سنها.

ولَهِيَ عند الكِبَر أحوج إلى العطف والرحمة والبر. لذلك نص الله سبحانه على بر الوالدين في الكبر فقال: ﴿**إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً**﴾.[2]

ونجد في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة، والمثَل الرائع والمِثال في البِرّ بالوالدين. مات والده صلى الله عليه وسلم قبل ولادته، وماتت أمه وهو ابن ست سنوات. فحضنته بعد حليمة السعدية أم أيمن الحبشية. حاضِنة تولت من شؤون الأمومة أيْسَرَها، فاستحقت من البرّ الكامل صلى الله عليه وسلم أتَمَّ الإحسان. أيّ إدْلالٍ كان لك على رسول الله يا أمة الله يا أم أيمن! روى مسلم عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أم أيْمَن، فانطلقتُ معه. فناولته إناءً فيه شراب. قال: فلا أدري أصادفته صائما أم لم يُرِدْهُ. فجعلت تصخَبُ عليه (تصيح عليه) وتذَمَّرُ منه (تتكره من رفضه لشرابها)». أم أيمن وما أدراكُنَّ ما أم أيمن؟ هاجرت من مكة إلى المدينة مسافة أكثر من 500 كيلومتر وحدها، في حَرِّ الجزيرة العربية، على قدميها. كما روى ذلك ابن هشام، رضي الله عنها.

(2) سورة الإسراء، 23-24.

في حديث مُرسل عند أبي داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا يوما، فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له بعض ثوبه، فقعد عليه. ثم أقبلت أمه من الرضاعة (حليمة)، فوضع لها شِقّ ثوبه من الجانب الآخر، فجلست عليه. ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام النبي صلى الله عليه وسلم فأجْلسه بين يديه.

ونَشَر رسول الله صلى الله عليه وسلم الوصية وبسطها لتشمل الأم وأقرباء الأم والأب وأصدقاء الأب. تبَرهم المؤمنة بعد موت الوالدين. جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله! إني أصبْت ذنبا عظيما، فهل لي من توبة؟ فقال: **هل لك من أم**؟ قال: لا. **قال: هل لك من خالة**؟ قال: نعم. قال: **فبرَّها**». رواه الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنها. لا إله إلا الله، بِرٌّ يمحو الذنوب العظام. فالحمد لله رب العالمين.

الفصل التاسع

الأمهات المؤمنات صانعات المستقبل

- الولد الصالح
- البناء من أعلى أو من الأساس؟ على أي أساس؟
- صراع الأجيال
- البُرْج الاستراتيجي
- تربية مستقبلية
- تربية علومية
- تربية قرآنية
- تربية خلق جديد
- تربية حَكيمة
- تربية واقية

الولد الصالح

روى مسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إِذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتَفَع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**».

أول علم نستفيده من هذا الحديث الكريم هو أن الولَدَ من عمل الإنسان. الولَدُ خلْقُ الله وعمل الإنسان. الإنسان مسؤول عن ذنوبه يُعاقب عليها إلا أن يتوب فيغفرَ الله له، مجازىً على حسناته إن تقبلّها الله الكريم قَبولا حسنا.

إذا استقر لدينا، والحديث دليل قاطع، أن الذريَّة –صالحةً أو فاسدةً– هي من عمل الإنسان، لا ينفي كونُها خلقا لله كونَها عمَلاً للإنسان، فقد توجّه أمامَنا عِظَمُ مسؤولية الإنسان عن ذريته: تصلح إن أصلحها، وتَفْسُدُ إن أساء تنشِئتها. فيترتب على هذا المنطقِ المستنير بنور الوحي ونور التوجيه النبوي منهاج المسؤولية البشرية عن صلاح الأجيال وفسادها. لا يهدي للصلاح إلا الله، لكن الهداية الإلهية يقيض الله لها بشرا يهدون. والغَوَايَةُ تضليل من شيطان جن أو شيطان إنس.

نحن في صميم الموضوع الذي كنا نهيِّئُ له في الفصول السابقة. إن كان الكمال القلبي الإحساني غاية الغايات، ومثال ما ينبغي أن تعمل المرأة ويعمل الرجل لتلَقِّي عطائه من الله، فإن كمالَ المرأة الوظيفي وكمال الرجل، أبوَين مسؤولين مُرَبيين، هو غاية ما يراد منهما تحقيقه حفظا لفطرة الله، ونشراً لرسالة الله، وخدمة لِأمة رسول الله. ما يرفَع المرأة إلى القداسة إلا أمومتها، وما يرفع الرجل إلا أبوته، يُذْكَر حقهما بعد حق الله مباشرة في قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾.[1] وما من أمومَةٍ تستحق اسمها وتنال من الله عز وجل نوالها إن كان العمل فاسدا، إن أنجبت غُثاءً كغثاء السيل، إن أساءت

(1) سورة الإسراء، 23.

تنشئة نسلها، وأهملته، وأسلَمَتْهُ إلى غيرها مِن وَسَط منحل، وإعلام مفسد، وشارع سائب، ورفقة مُضلة.

ما يكون لكمالها العلمي والخلقي وتقواها إلا زينةٌ عقيمة إن أفادتها إفادة فهي فائدة محدودة، ينقطع بعد الموت عملها إن لم تُخَلِّفْ ذرية صالحة، إن لم تساهم في بناء الأمة، إن لم توظِّف كمالها العلمي والخلقي والقلبي في صنع مستقبل أمتها، واكتفَتْ بكونها معْبَراً لبروز الذرية، ومحطة لمرورها.

إن دوَران الحديث في الأوساط النسوية من بنات الدنيا، المارقات منهن والتائهات والتابعات، حول حقوق المرأة السياسية والاقتصادية الاجتماعية، وحول سعادتها الزوجية، دون اعتبار أمومة المرأة والمغزى السامي للأمومة، إنما هو دَوَران على غير مِحور. كالعجَلة التائهة المتَفلتة زاغت عن مكانها، فهي تدور في فلَكِ الهوَس. ما يُستفاد من العجَلة إن كانت الوظيفة التي تصَوَّرها لها الصانع وبناها بقصدها معطلة مهمشة؟ ما يستفاد منها إن أصبحت العجلة أنانية تدور حول نفسها وجمالها ورونق ألوانها، تستكمل من ذلك وتستزيد، إن لم تعصِرْها كمَّاشة البؤس الاجتماعي وتَرْمِ بها في الركن القصيِّ من الحياة، آلة لصنع الغثاء؟

كذلكنَّ، أخواتِ الإيمان، المرأة حين يهوّن لها أرباب الثقافة المنحلة من شأن الأمومة، ويريدون للعالم المستضعف أسرة على منوال الأسرة الغربية العقيمة المفلسة السائرة إلى الاندثار. أقوى ما تَسْتقوِي به الأمة متانة بناء الأسرة. والمتانة أمومة مَصُونةٌ مستقرة في بيتٍ مدرسةٍ. أهم ما نُعِد لهم من قُوَّة أمومة مبرورةٌ بَرَّةٌ مربية، تصنع مستقبل العزة للأمة.

جهاد المؤمنة وحيثيَّتُها في سجل كرامة الإيمان أن تنجب مجاهدين ومجاهدات أقوياء. فإن اضطرتها ظروف الحاضر والاحتياط المستقبلي من غَدَرات مجتمع منفصم الأوصال، وصوَلات زوج يطلق ويشرد، للعمل في مِهن الإنتاج البضاعي، فإن نداء المستقبل يُحيِّي المؤمنات ويُهيبُ بهن أن يكون لهن في صنع غد أفضل اليد الطولى، والكلمة المسموعة، والخِدمة

التي لا يقوم بها غيرهن. ليست هذه الخدْمة تفريخ أعداد بشرية. إن كان الوَلَدُ الصالح الواحد ذخرا باقيا للآخرة وعملا يرضاه الله، فكيف بإصلاح أمة وإحيائها وصناعة مستقبلها.

إن الأسرة القوية عماد الأمة القوية، والأم المربية المصلحة عماد الأسرة. واقرئِي يا من تؤمنين بالله وبآياته في الكون علائم تفسخ الأمم العاتية في الأرض من خلال تفسخ الأسرة فيها. تهْوِي الحضارة المنحلة في غد التاريخ أو بعد غده، والهُوِيُّ بدأ، تشاهدينه في العقم الذي ضرب الأرحام الأروبية، فتقَالَّ النسل عن معدلات تعويض الأموات بالأحياء. واثَّاقلت على كاهل الجيل العامل أعباء كفالة المتقاعدين.

منذ العقد الأخير من القرن الثامن عشر بتاريخهم، حين نشر مالتوس صيحته الـمُخَوِّفة من تكاثر النسل وندرة الغذاء، وقضية تحديد النسل تعتَلِجُ في الفكر الغربي. كذبَ خوفُ مالتوس، وهو اليومَ أكذبُ ما كان، بتقدم علوم الزراعة، وتحسين البذور، وتنويع المزروعات، وتدويرها، وتخصيبها. أكذب ما كانت الفلسفة الملتوسية في عصرنا هذا عصر الهندسة الوراثية. فإمكانيات إنتاج الغذاء تبدو على خط تطور العلوم الجديدة بلا حدود.

لكن أنانية الحضارة الغربية، وحرصها على رفاهيتها حرصا يصل إلى إعلان الحروب التجارية فيما بين أممها ودولها وشركاتها العالمية، يحولان دون تعميم فائدَة العلوم، ودون توظيف مكتشفاتها لإشباع جوْعَى العالم المستضعف.

يتكاثر نسل العالم المستضعف بوتيرة عكسية لنضوب موارده. وينتشر النسل المستضعف من إفريقيا وبلاد المسلمين، ويهاجر إلى الشمال الغني، ويزاحم، ويهدد رفاهية الغرب.

نتناول موضوع الإنجاب وتحديد النسل في إطاره الواقعي: اختلال موازين الساكنة في الأرض ما بين شمال عقيم متخم خائف على «مكتسباته»، راهِبٍ من غزو ديموغرافي، وما بين جنوب ينتج الأعداد البشرية، وينتج البؤس.

الإطار الموضوعي لقضية الإنجاب وتحديد النسل هو الثورات الصناعية العلومية التي تتخطَّى في بلاد الغرب إلى تُخوم الخيال، وتبقى حُلْماً مُعَرْقَلا في بلاد المسلمين وسائر المستضعفين. الإطار هو الفلسفات الغازية بالإعلام والنضال السياسي اللاييكي الذي تدعمه قوى الانحلال، الداعي إلى استقلال المرأة اقتصاديا ووُجوديا، وتشغيلها في صنع حضارة مُماثلةٍ للحضارة الأم، الحضارةِ «المطْلَقة».

الحضارة «المطلقة» تتردَّى أخلاقيا، وتزيد استكبارا في الأرض، وتنكمش ديموغرافيا، وتشعر بالخطر المقبل عليها من جراء تفاقم الفرق في القسمة ما بين شمال يمثل ساكنوه أقل من عشرين في المائة من سكان الأرض وينعمون بأكثر من ثمانين في المائة من خيراتِ الأرض، بينما المستضعفون في الجنوب يزحفون عددا فوق نسبة ثمانين في المائة، ولا يقْضمون من أطراف أرزاق الأرض إلا أقل من عشرين في المائة.

«الحضارة النموذج» تأكل أرزاق الأرض لأنها تصنع أرزاق الأرض بما كدسته وراكمته من منهوبات الأرض عبر خمسة قرون من الاستعمار، وبما ابتدعته من علوم وتقنيات وصناعات وطورته، ورثت ذلك عن عبقرية الأجيال البشرية، فعقّت وتجبرت. فهي تُفسد هواء الأرض، وأجواءها العليا، وبَحْرها، وبرها.

يقول لنا قانون المزاحمة، وسنة الله في المدافعة: كاثروهم عَدَداً، وغالبوهم عُددا. وتقول لنا السنة النبوية: «**تزوّجوا الوَدود الوَلودَ فإني مكاثر بكم الأمم**». الحديث رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي بسند حسن.

نتناول موضوع الإنجاب وتكثير النسل أو تحديدِه، عينٌ منا على الظروف الموضوعية وما ابتلانا به ربنا وابتلى به خلقه، وعين على الأمر الشرعي والدليل الشرعي.

التكثير من النسل مطلوب شرعا، والولَد الصالح ذخْر للأمة في الدنيا ولوالديه في الدنيا والآخرة. لكن ما الشروط ليكون العمل الإنجابي صالحا، ولتكون

الكثرة مما يبهج نبينا في معرض مكاثرة الأمم؟ ما معيارُ الصلاح في حساب الدنيا والآخرة؟

الحديث النبوي عن الكثرة الغثائية جامع مانع في المسألة. إن قرأنا حديث المكاثرة دون أن نعرضه على حديث الغثائية قَصُر فقهنا، واندفعنا في الدعوة إلى تأييد انحطاط الأمة جيلا بعد جيل، من حيث نظن أننا ندافع عن السنة وندعو إليها. حديث الغثاء ووَهْن الغثاء يقول:

«يوشِكُ الأممُ أن تداعَى عليكم كما تداعَى الأكَلَةُ إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاء كغُثاء السيل. ولينزِعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم. وليقذِفَنَّ في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت». حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد وأبو داود عن ثوبان رضي الله عنه.

الغُثاء موعود بالفناء والموت، لأنه يكره الموت جهادا ويحرص على الحياة أي حياة. مغاربيَّات ومغاربيّون مسلمون في فرنسا وهولندا وبلجيكا يحيون بنسلهم الدماء الراكدة. وفي ألمانيا تركيات مسلمات يبشر خصبهن ببعث النشاط في جنسٍ أشقر مسارع إلى الانقراض.

نندمِجُ ثقافيا، ونهاجر غثاء، في حضارة الأمم الآكلة، أم نُعِد القوة بما يضمن القوة؟ تصرخ علينا مغلُوبيتنا في العالم، ويَصرخ علينا حديث الغثاء. فهل من دليل شرعي يبيح للأم المسلمة أن تنظم نسلها وتعمل من الصالحات والصالحين بمقدار لا يطغى فيه الكم على الكيف؟ ﴿وَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾.[1] هذا حد قرآني أدنى يكمله قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾[2].

(1) سورة الأحقاف، 14.
(2) سورة البقرة، 231.

والعزل جاء في إباحته أحاديث صحيحة. أهمها حديث جابر عند الشيخين: «كنا نعزل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل». حديث عند مسلم يصف العزل بأنه وأدٌ خفي طال جدل العلماء حول الجمع بينه وبين أحاديث الإباحة، واستقر اجتهاد المذاهب الأربعة على جوازه كما نقل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاويه. على شرط واحد أجمعوا عليه. هو رِضى المرأة بذلك.

مِنْ أدق الفقهاء نظرا في المسألة الإمام الغزالي. قال في «الإحياء» يقرر وجوه العزل وبواعثه المباحة: «استبْقَاءُ جمالِ المرأة وسِمَنها لدوام التمتع. واستبقاءُ حياتها خوفًا من خطَر الطَّلْق».

سبحان الله! رضاها واختيارها وجمالها وسِمنها والتمتع بها بواعث مَرْضِيَّةٌ، فكيف بمصير أمة! ويسمو نظر فقيهنا الغزالي رحمه الله فيقول: «الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد، والاحتراز من الحاجَة إلى التعبد في الكسب ودخول مداخل السوء (...). فإن قلة الحرج معين على الدين (...). ولكن النظر إلى العواقب وحفظ المال وادخاره، مع كونه مناقضا للتوكل، لا نقول إنه منهي عنه». نوسع من نظرة الفقيه النوازلي لنطالع المسؤوليات السياسية الاقتصادية الجهادية وما يجب على الأمهات المؤمنات من تكثير نوعيٍّ قويٍّ، لا غثائيٍّ عالَةٍ على أمة متسكعة متسولة.

البناء من أعلى أو من الأساس؟
على أي أساس؟

حرر الفقيه النوازلي حق المرأة ورضاها وبِرِّ الإسلام بها. ومضى. فهل يمكن للفقيه الفردي، المتهم بإبراء ذمة المسلمات والمسلمين وصرفهم عن ارتكاب الحرام، أن يكون لنا أساسا نبني عليه وهو كان معزولا عن المسؤولية السياسية، نافضا يده من الواجبات الاجتماعية واعتبار العواقب المصيرية التاريخية للأمة؟ كان الفقيه الرائد المجدد لا ينظر أبعد من العواقب الشخصية عندما ترك الاختيار للمرأة أن تُنجب أو لا تنجب. حذرها فقط لتحترز من «الحاجة إلى التعب في الكسب ودخول مداخل السوء»، وتفهم «خوفها من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد». وبقي محايدا يفتي بأن العزل لهذه الأسباب ليس منهيا عنه. ونظر إلى العواقب وحفظ المال وادخاره ونقاوة المكاسب من زاوية فردية.

هل يصلح الفقه النوازلي أساسا وهُوَ كان مرتاحا، وكانت الأمة في زمانه سيِّدة، وكان التطور التاريخي والعلومي يدب دبيب السلحفاة؟ هل يصلح ذلك الفقه المنحبس المحبوس بطبيعة وضعية العلماء على هامش الحكم أن يصلح للحركة الإسلامية وهي الحكْمُ عائذ بها غدا أو بعد غد؟ كانوا رحمهم الله معزولين مرتاحين في زمن لا جديد فيه إلا سيف مُستولٍ يَخْلُف سيفا، «ولا يحل لامرئ مسلم أن يبيت ولا يرى إماما من غلبهم بالسيف وسمي خليفة» كان الزمن يدِب دبيبا ونحن الزمن في عصرنا بسرعة الصاروخ.

نحن في ورطة تاريخية ومأزِقٍ، لم يسبق للأمة أن واجهت تحدياتٍ مثلما تواجه. إن لم نستوْح من أعالي العلم، من مطلق الوحي، الفقه المناسب باجتهاد مناسب، تخبطنا في تقليد محايِد غاية ما يفتي به مصلحة المرأة وسِمَنُها وزينتُها وإرادتها ورضاها، لاَ مصلحة الأمة وواجبُ انتشالها من قاع المهواة التاريخية.

الفقه المقلد متأخر حتى عن ركب المجتهدين في عصور قبلنا. أولئك الذين يقلدون فتوى حِرمة ظهور الظُّفر من المرأة لا يقبلون ممن يحدثهم عن منع الحمل والأدوية المانعة من الحمل. سُئل شَيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن «امرأة تضع معها دواء عند المجامعة، تمنع بذلك نُفوذ المنيّ في مجاري الحبل. فهل ذلك جائز حلال أم لا؟ وهل إذا بقي ذلك الدواء معها بعد الجماع ولم يخرج يجوز لها الصلاة والصوم بعد الغسْل أم لا؟

فيجيبُ رحمه الله: «أما صومها وصلاتها فصحيحة وإن كان ذلك الدواء في جوفها. أما جواز ذلك ففيه نِزاع بين العلماء. والأحْوَط أنه لا يُفْعَلُ». والله أعلم.

إذا كانت المسألة منقطعة مقطوعة عن اعتبار العواقب الاجتماعية لوضع الدواء وسد المنافذ أو عدم وضعه، فللعلماء مجال للنزاع. أما إذا وضعنا نُصْبَ أعيُننا الحرج الذي يصيب الأمّ من كثرة الأولاد، واعتبرنا «مداخل السوء» التي تُفتَح على الأمة من جرّاء التكاثر الغثائي فوجه الفتوى ينقلب، ويصبح السؤال: ما مدى وجوب تربية الأولاد وإحسان تربيتهم على الأمهات؟ يليه سؤال: هل تقدر الأمهات -خاصة إذا كن مرهقات بالعمل خارج البيت- أن يُربّينَ أولادهن وبَناتهن التربية الصالحة إذا كان الأولاد والبنات قافلة غير منظمة الوِرْدِ والصَّدَر؟ يليه سؤال: ما مسؤولية المرأة، والواجب الديني عليها، والذخر الأخروي المرجو، في تنظيم نسلها ليكون الولَد -وهو عَملُها خلقه الله وتسببت فيه- صالحا، قوة للأمة لا وهنا، حاملا لها لا عبئا عليها؟

الفقيه السرخَسيّ كان أوسع أفقا من مقلدة عصرنا حين أفتى بأنه «يجوز استعمال الدواء لمنع الحبل في وقت دون وقت كالعزل، ولا يجوز التداوي لمنع الحبل بالكلية». وأجمع الفقهاء القدامى رحمهم الله على تحريم استعمال ما يقطع الحبل من أصله، يقيسون ذلك بالوَأد. واختلفت المذاهب في الإجهاض، فأجمعوا على تحريمه إن نُفخت فيه الروح، وكره ذلك بعضهم وأجازه آخرون لعذر كاعتلال المرأة والخوف على حياتها.

مفردة واحدة إن استأنسنا فيها بفقه الأسلاف رحمهم الله بنينا على أساس. ذلك اتفاقهم على أن للمرأة حقّاً أن تعزِل، علّلُوا ذلك بحقها في المتعة ونعلله بذلك وبواجب إصلاح عملها، وهو الولد. نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله عن ابن عبد البر أنه قال: «لا خلاف بين العلماء أنه (أي الزوج) لا يعزل عن الزوجة الحرة إلا بإذنها، لأن الجماع من حقها، ولها المطالبة به. وليس الجِماع المعروف إلا ما لا يلحقه عزل». وتعقب هذه المقالة بعض الفقهاء بأن المعروف عند الشافعية أنه لا حق للمرأة في الجماع. سبحان الله! وهل قرأ السيرةَ النبوية قارئ؟

استئناسنا بهذا الاتفاق يحيلنا على الأصل المطلق، وهو الوحي، لنتحرر من رِبقة التقليد لآراءٍ نبتت في بيئة بشرية هي النقيض، في بعض أوجهها، للبيئة الحاضرة. كان إنجاب الأطفال وموت الأطفال حدَثين مُتَوَازِيين متوازنين. وكان الطاعون يضرِب فيُفني جيلا. وكان الطِّبُّ في طفولته. في عصرنا جاء بلاءُ الله للعباد بطبٍّ وعقاقير وتلقيحات ووقاية صحية تقلص معها موت الأطفال. فيختل التوازُن في مجتمعات المستضعفين، يتكاثر نسل عُولجَ بطب عصري متطور، وتعجز الفلاحة المتخلفة عن تغذية الوافد، ويثقل كاهل الأمهات، فإذا «مداخل السوء» مفتوحة على مصاريعها.

موت الأولاد كان حدَثا مألوفا، وتحنو الشريعة الرحيمة على الأم الثَّكلى لتعَزّيَها العزاء الجميل، ولتخبرها الخبر اليقين أن الأرواح الطاهرة العارجة إلى البرزخ هي هناك تنتظر وفود الأم التي حملت وَهنا على وهن لتكون لها شافعا. روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النساء للنبي صلى الله عليه وسلم: «غلَبَنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوما من نفسك. فوعَدَهنّ يوما لقِيهن فيه، فوعظهن وأمرهن. فكان فيما قال لهن: «**ما مِنكن امرأةٌ تُقَدِّم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجابا من النار**». فقالت امرأة: واثنين؟ قال: «**واثنين**».

والأحاديث كثيرة في ثواب أم فقدت عزيزا عليها ممن لم يبلغوا الحِنْثَ (أي الحُلُم). صغارٌ هم دعاميص الجنة. حتى السِّقط لا يخيبُ الأم ولا تُحرم من جزاء

التعب عليه. ذلك الثواب وذلك الوعد الصادق ماضٍ سواءً في عصر الطواعين وعصر التلاقيح. والعمل الصالح ما أنعم الله عليه بالخلق والحياة، وما أنعَمتْ عليه الأم بالتّنشئة الصالحة. عمادٌ للأمة، قرةُ عين في الدنيا والآخرة.

للمرأة الحق والحرية في أن تنجب أو لا تنجب، وعلى المؤمنة واجب أن لا تضَع غثاء، ولاَ تتسبب في التكثير الأرنبيِّ بينما غيرها يربي صقورا ونمورا. تُعَقِّمُ المرأة نفسها التعقيم الإرادي الأناني لتسير في ركاب الأوربية المنفلتة كالعجلَة المعطلة عن وظيفتها، أوْ تنْجَرُّ مع الذهنية التقليدية التي تورثها العجائز الأميات الـمُثقلات بظلم القرون وانسياب الأرحام. ذهنية تكثير الأولاد لإمساك الزوج. ذهنية تكثير الأولاد لعل من الكثرة تنجو واحدة ويشُذّ واحد فيكون سندا للشيخوخة. والغثاء العَضلي -إن سلم من أمراض الطفولة وارتفع المستوى الصحي للساكنة- لاَ غناء منه حتى في كسب قوته في عالَمِ العلوم والأدمغة، فكيف يكون سندا لغيره.

الغثاء العَضليُّ عبدٌ للأذكياء في العالم، المتعلمين، المنظمين، الأقوياء. عبودية منظمة تسوسها عصا الحاكم المستبد، يتلقى الأوامر وينفذ، فإن تطور القطيع فالديمقراطية التابعة فكرا، المعوَّقَةُ اقتصادا، المتسوِّلةُ المتَقَمِّمَة، تُسَوِّق إلينا العبوديةَ مُغَلفة مزينة.

يجب بناء الأمة على أساس علمي بفقه مزدوج، واجتهاد ذي عينين. واحدة تتلقى من الوحي واجبها، والأخرى تستفهم آيات الله في الكون عن مغزى بلائها وما وضع الله عليها ويضع من أسئلة في الامتحان المستمر. إن وقفت الأمة مع فقه تفاعل في زمَنه وفي حدود مراميه ومساحة مسؤولياته، فإن الواقع المتحرك الصاروخي لن يقف، وسيسير بأفكار أخرى ولأهداف غير مقاصد الإسلام. هذا عن الأساس الفقهي.

وعن البناء العملي من الأساس تحدثنا ونتحدث حين نريد للمؤمنة تعميق إيمانها وتعلقها بربها وبالدار الآخرة، حتى تتأصَّل في أعماق روحها وفي أكناف

قلبها إرادة العمل الصالح، مطمئنةً إلى أن الشريعة السمحة لاَ تظلمها مِن حقوقها شيئا إن جهَّلها الانحطاط التاريخي، وكَمّ فمها، وعزلها وراء الجدران، وحرم أن يظهر ظفرها في الوجود.

الأم المريدة وجه ربها، الخائفة منه، المشوقة إلى لقائه، الواثقة بوعده، المتعلمة العالمة بما لها وما عليها مِمَّا رسمته لها شريعته، العامِلة على ذلك، هي الأس، ومنها البناء.

الأسرة لبنة الأساس في الأمة، والأسرة الصالحة أم صالحة وأب صالح وعمل صالح. وما يُصلح الأمّ ويُصلح ما بين الأب والأم من ضوابط شرعية وسياسات ومخالقة قدمنا الحديث عنه. فآن أن نسأل الأمهات المؤمنات ويسألننا عن مهمتهن في البناء وصناعة المستقبل. مهمتهن في إصلاح العمل -الوَلَد-.

إن إصلاح البيئة الأسَرية تهييء لينشأ الطفل في سنواته الأولى على حَسَن العادات، وليتعَلَّم العلم النافِعَ من الأم والأب والإخوة الكبار، وليستعد للانطلاقة الجدية في المدرسة. الأسرة والمدرسة لكل منهما مهمة تكمل الأخرى.

تعترض الأم الجادة فتسأل: أية مدرسة؟ مدارس التعليم الأساسي التي لا تمحو الأمية الأبجدية إلا عن نسبة قليلة من التلاميذ؟ أم الثانويات المختلطة التي تهضِم في أحشائها المختلطة مراهِقات ومراهقين لتقذف بهم في بوتَقَةِ تخريج المعْطوبين نفسيا، السطحيين معرفة، الـمُخَدَّرين المنحرفين؟

أم هي الجامعات المختلطة الهائجة تصنع العاطلات والعاطلين بعد أن تغمِسهم غمسة أو غَمستين في مَرَق الثقافة اللفظية العالمية، أو تُطلِعَهم على مصطلحات علمية، وتُفرِّجَهم على عجائبَ في المخْتبر، يائساتٍ ويائسين من المستقبل، كارهين له رافضين؟

المساعد قليل، والظروف شاقة، والأنام بائسة يائسة. لذلك احتاج الحال لمن يفهم أنها عقبة، وأنها تقتحم، وأنه بلاء، وأن الله وعد ووعده الحق بأن هذه الأمة منتصرة.

غريباً معه غرباء وغريبات، هكذا بدأ الإسلام. ولو كان الرسول صلى الله عليه وسلم مِمّن يجوز عليهم الشك، والخوف من البلاء المحيط، وتعاظم قوة العدو لكان الإسلام قد قضى نحبه من لحظة ميلاده.

البناء من أساس وعلى أساس عملية شاقة، عملية ميدانية، عملية متابعة الماء من نبعه لكيلا يتكدر، عملية تركيب العناصر لكيلا تختلط خلطا عشوائيا، عملية تعهد النفوس والجسوم، عملية معالجة الواقع بصبر من لا يرى المثالَ في متناوَل اليد بمُجَرَّد أن كتب في الصحف: قامت الدولة الإسلامية، ونجحت الثورة الإسلامية، ونُصّبَت الحكومة الإسلامية.

ما البناءُ رقدةٌ بعد صحوة. وشعار وحماس. البناء ما ساهمتِ به أنتِ من وقتِك وصبرك وجهادكِ، ثم ساهمتِ، ثم صبرت، ثم جاهدتِ. تذوقين بعد ذلك لا قبله طعم النجاح. ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.[1]

(1) سورة المائدة، 95.

صراع الأجيال

ليست عبارة «صراع الأجيال» مما جاء بلفظه ولا بمعناه كتاب، ولا جاءت به سنة. لكننا نستعمله عنوانا لشيوع مفهومه عند المتكلمين في السياسة والاجتماع، ولأن أمام الأمهات المؤمنات ومن حوالَيْهن أجيال شتى، تتحدث من مواقع شتى، وتنازع وتصارع وتقاوم المشروع الإسلامي. فإن كانت الدعوة استمالة وتلطفا وتحبيبا للدين فإن معرفة القُوى المعاكسة والرياح التي تجري بسفين الحياة إلى وِجهة لا يرتضيها الدين ضرورة وسلاح.

ما تستطيع الأم المؤمنة أن تنفرد ببناتها وأبنائها ليقع تأثيرها عليهم لا تشوبُه ولا تحرفه تأثيرات غيرها. أمامها ومن حواليها مؤثرات بشرية تُذْبِل زهرة الأخلاق، وتُعَوِّجُ عود الاستقامة، وتمتص رحيق الأغصان، وتسقي السموم، وتلقِّح بذور الشيطنة.

هيهات! فالنوافذ التلفزيونية مفتوحة تنازع، إِن أغلقتِها في بيتكِ هفَت إلى خزعبلاتها النفوس، وتبعتها الأعين إلى بيوت الأقارب والجيران والسنِمات والمقاهي. جيل نشأ على الغدُوّ والرواح إلى نديِّ التخييل والتمثيل والتهام سخافات تسخر من الدين. وذلك صراع بين حق لا يزال نية في صدور أهل الإيمان، وباطل كاسح ماسحٍ. صراع لاحتلال مواقع الثقافة المانعة، ولتسخير الأجهزة وما يغذي الأجهزة ويزودها ويحركها، وتدويرِها وتحويرِها إلى الكعبة، وتتويبها من استقبال هولوود.

هيهات ما تستطيع المؤمنة أن تنفرد بالبنات والبنين لتصونهم عن مهَب الرياحِ العقيمة وهم لا بد أن يخرجوا إلى الشارع ويكلموا أبناء الجيران ورفقاء المدرسة. وتلك مجالات أخرى وصراعات أخرى.

تنازع الأمَّ المؤمنة في أبنائها أجيال تتعايش من قريب قاطن، أو مَزُورٍ زائر، من راكنٍ إلى مذهب المؤمنة في التربية وغيرِ راكن. منازعون ومنازعات ابتداءً

من الحماةِ. تريد الحماة -من جيل العجائز الأميات أو المخضرمات- أن تدخُل الكَنّةُ وأولادُها تحت سيطرة أهل المكان لا أن يدخل أهل المكان في سيطرة جديدة طارئة. لا تقبل الحماة أن تستَقِلَّ الطارئَة بالأحفاد بعد أن سرقت الابن. إلا أن تكون فاضلة، والفواضِل في الحموات كثير. تدخل المؤمنة بالظن الجميل.

تنفق المؤمنة من كنوز المحبة، واحتياطي المداراة، وملطفات الأجواء بالخدمة واللياقة واللباقة، ومنْجِدات التحمل والصبر. وصْلُ ما أمر الله به أن يوصل من عُرا القرابة إصلاحٌ في الأرض، وإصلاحٌ للعمل. لا تأْلو المؤمنة جُهداً في تلافي ما يفصل ويقطع ويوحش.

فإن كان الأحماء من طينة بشرية غيرِ ما تعهَد المؤمنة، وإن كانت المفاجآت وخيبات الأمل فوق ما كانت تتوقع أو فوق ما تحتمل، فذاك البرهان على أن المؤمنة لا تزال غِرّة في الحياة، وأنها لم تستشر قبل الزواج، ولم تُغَلب العقل على العاطفة، والتريث على العَجَلة. أو أنها قاسَت قياسا فاسدا فظنت العسَلَ ليس حولَه نحْلٌ، وأن الرجل الصالحَ لا تكون له فُروع لها طعم غير طعمه. وعندئذ فليس ما دون المصابرة من مَقيل إلا أن يوسع الله الرزق، وترضَى الراعِيَة المسؤولة في بيت زوجها، ويرضى الزوجُ، وتُرَضَّى الرعيَّة من الأجيال المنازعة بالسَّكَن المستقِل.

إن معاناة الأحماء والعجوز الأمية ليست أقلّ وطأةً من معاناة طباع الزوج، ولا الكياسة معهم أقلّ تعيّناً من الكياسة معه. وإنّ الجدة الحاضنة الحريصة على احتواء الأحفاد وضمهم إلى صدرها لكيلا يخطَفَهم منها خاطف، ولكيلا تصيبهم ريح بزكام، ولكيلا يخطوا في الحياة خطوة وراء ما تعْرفهُ الجدة، لَمِنْ أهم عوائق التربية. البنات المحضونات والبنون المدلّلُون يبلغون الثلاثين في عمر السنين وهم في عُمر العقل والنضج النفسي والشجاعة على مواجهة الحياة لم يتخطوا الطفولة الأولى.

عجائز أميات يجْرُرْن إلى الوراء، دهِشاتٍ من كل جديد، أو متظاهرات بأنهن على اطلاع بآخر ما فاه به التلفزيون. يجررْن إلى خلفيات معهودهن في المدينة،

أو موروثهن من البوادي، لا يرين للأحفاد من الطوفان الجديد إلا الانكماش في الأحضان. صراع أجيال. صراع وأجيال.

والعصر يتقدم بسرعة صاروخية، زادُكِ من المعلوماتِ عن العالم وحركته، وعن المِهنة وتطورها، يصيبه البِلَى والتَّقادُمُ في فترات تتقارب، فلا تكونين على مستوى الأحداث لتقولي كلمة الإسلام، وتربي تربية الإسلام، وتُرَشِّدِي جيل الإسلام، إلا بتدريب، يتلوه تدريب، يتلوه إعادة تدريب. والحماة الفاضلة، وحتى العمات والخالات اللواتي أُكِل شبابُهن، إن كنّ في دوامة تدور بهن في عالم هن عنه غريبات، فإن معهن من مخزون التقاليد وموروث التدين وقابليات الفطرة ما يمكن، بل يتعين أن تستصلحيه. من ذلك الحفاظ على الحياء والعفة والسمعة وصنع الجميل ورد الجميل بالجميل.

محظوظة من لها حماة عاقلة تطاوعها، وتأنَسُ إلى خُلقها فتثق بها. الحموات العواقل يشُدُّهن إلى مألوف العوائد تاريخ وحنين إلى الماضي وذكريات وتطبُّع منذ الصبا أصبح طبعا. مما يثقل كاهل الزوجين، ويُرهق ميزانيتهما، عادة رد الهدية بهدية أجمل وأثمن. ويكثر الأقارب والأعراس والمواليد، فتصبح الهدايا وتكاليفها وحرص الأحماء على عادة الرد موضوعا للخصام والنزاع.

وذاك مجال للصراع بين عادة لها أصل حميد، وهو التهادي وتطْيِيب الخواطر، وبين عبادة هي الابتعاد والتبري من التكلف. الهدية الرمزية –من سَعةٍ– سنة، لكن العادة تردت بها لتكون لعنة.

محظوظة من لها حماة عاقلة فاضلة، وأنتِ حماةُ الغد، لا تعجلي!

كوني لها بنتا محبة تكن لك أما. كوني عاقلة تكن فاضلة. بكياستك وأدبك ولطفك حصليها في أسرِكِ.

في الأسرة الذَّرِّيَّة المنسوجة على منوال المجتمع الأوربي، المتكونةِ من زوجين وذريتهما، مقطوعين ممنوعين، يتولى الخَدَمُ تربية الأطفال. أعني أنهن

يتولين تدمير الأطفال. لو لم يكن من فضائل الأسرة التقليدية الممتدةِ إلا وجود جدات وعمات وخالات يعطفن على الطفل ويُحْبِبْنَهُ حقا وصدقا لكفى. ولكان مصير الطفل المحضون المدلل بين أيدي العجائز أحسن حالا من الطفل الـمُلْقى إلى أيْد أجيرةٍ يُشوِّهْن خَلْقَه النفسي ما شاءت لهن كراهية وضعهن البئيس، ونقمتهن، وبؤسهن.

تتضاعف أسباب الخلاف والنزاع بين جيل الحموات وجيل الزوجات إن كان للزوجات عمل خارج البيت، من وظيفة أوصل إليها التعلُّم والتحصيل والكفاءة، أو كدْح ألجأت إليه الحاجة والفقر، ولبثت الحموات في البيوت. تشقَى الحماة الفقيرة، ما معها خادم، في شؤون البيت من طبخ وكنس وتفريش وتسوُّق، وتدخل الكادحة والموظفة متعبة مكدودة ثائرة الأعصاب. فالنزاع يتضاعف ويتثلث: البيت بيت من؟ والابن الزوج لمن؟ والأولاد مَن غذاهم ونظفهم وأخذ بيدهم إلى المدرسة؟

محظوظة والله من لها حماة فاضلة ينفتح قلبها لذكر الله، فلا تعارض المؤمنات والمؤمنين أن يحضروا البيت ويجلسوا للتعلم. في ظروف اضطهاد الدعوة تخاف الحماة على ابنها وعلى كَنَّتها. ما لها من سابقة تجربة بالعمل المنظم الموقوت المسؤول المناهض للحكم الجائر، وما لها من علم بذلك غير ما يتضارب في أذنيها: السمعة المصنوعة المحاربة للإسلاميين، وشهادة الابن والزوج الطارئة بأن الإخوان والأخوات رحمة من الله وجهاد وشرف. إلى أيهما مال الأحماء كان البيت. أو يَقطع الناس بعضُهم حبال بعض، وذلك إيذان بفشل المؤمنة في الإيلاف والتأليف والتبْشير والدعوة بالتي هي أحسن.

ذلك بيت فقدته الدعوة، فالأطفال فيه ينشأون في جو كدِر. ذلك موقِع صراع سقط في أيدي العدو، فما كان يُرجى أن يستنشقه فيه الأطفال من منعشات الإيمان تُشبعه غازات سامة تنزع الحياة وتنازعها، لا تَهبُها.

إن يُتم الأطفال الجزئي من أم كادحة خارج البيت، كيُتم البيت من دعوة طردها الخوف، وسوء التبليغ، والقصور في التأليف. وذاك من معوقات التربية وآفاتها.

نستريح من عناء الصراع إلى باقةٍ من أدب الرافعي رحمه الله. نقرأ له مقتطفات من قصة أب تأيم من زوجه، وتيتم أطفاله بموت العزيزة الغالية.

قال رحمه الله: «رأيت الناس قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً فنَسَأَ (مدّ) بالوَلد في آثارهم، ومد بالنسل في وجودهم، وزاد منه في أرواحهم أرواحا، وضم بِه إلى قلوبهم قلوبا، وملأ أعينهم من ذلك بما تَقِرُّ بِهِ قرَّة عين كانت لم تَجِدْ ثم وَجدَتْ. فهم بهؤلاء الأطفال يملكون القوة التي تُرجعهم أطفالا مثلَهم في كل ما يسرهم، فيكبَر الفَرح في أنفسهم (...) وتلك حقيقة من حقائق السعادة لا أسمى ولا أعظَمَ منها إلا الحقيقة الأخرى: وهي القوة التي يتحول بها الكون في قلب الوالدين إلى كنز من الحب والرحمة وجمال العاطفة، بسحر من ابتسامة طفل أو طفلة، أو بكلمة منهما أو حركة، على حينِ لا يتحول مثلَ ذلك ولا قريبا منه بمال الدنيا ولا بـمُلك الدنيا».

ماتت الوالدة في الطلْق، فيقول الكاتب عن المولودة: «إنها طفلة وُلِدَتْ وكأنما أُخْرِجَتْ من تحتِ الرَّدم، إذْ وُلدت تحت ماض من الحياة منهدم. وهلْ فرقٌ بين هذا وبين أن تكون أمها قد ولدتها في الصحراء ثم أُكرِهت أن تدعها وحدها في ذلك القفر تصرخ وتبكي! فالمسكينة على الحالين منقطعة أول ما انقطعت من حنان الأم ورحمتها، طفلة وُلدت صارخة، لا صرخة الحياة، ولكن صرخة النوْح والندْب على أمها. صرخةً حزينة معناها: ضعوني مع أمي ولو في القبر! صرخةً ترتعد، كأن المسكينة شعرت أن الدنيا خالية من الصدر الذي يُدفِئها. صرخة تتردد في ضراعةٍ، كأنها جُملة مركبة من هذه الكلمات: «يا رب ارحمني من حياة بلا أم!»».

عاد الزوج بعد دفن العزيزة إلى بيته، قال: «أعادني قدماي إلى البيت لأرى طفلتي –وما كنت رأيتها– ولقد كانت الوِلادة أولَ الحياة لها، وأولَ الحياة لِي. (...). يا وَيلتا! لم تلتق عيني بعين الطفلة حتى انفجرت تبكي! أتبكين لي يا ابنتي أم تبكين عليَّ؟ أهذا بُكاؤك أيتها المسكينة أم صوت قلبك اليتيم؟ أصوْتُكِ أنتِ

أم هو روح أمّكِ تصرُخ تَرْثِي لي، وتتوجّع لفَرْطِ ما قاسيْتُ؟ يا ابنتي! إنما أنتِ الحقيقة الصغيرة التي خرجت لي من كل تلك الخيالات الشعرية الجميلة، خيالات الأيام السعيدة التي مَرَّتْ!

«يُخلق المواليد من اللحم والدم، وأَراكِ أنت يا مسكينةُ خُلقْتِ من اللحم والدم والدموع. بقيةُ حياة ماتت، فهل معنى ذلكِ إلا أنكِ بقية موت يَحيَى! مسكينة! لو أنّ نواميس العالم متغيرةٌ لشيءٍ لتَغيرت من أجل بؤسِك فردت أمّك إليك».

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

البُرْج الاستراتيجي

في وسط المعمعة هي المؤمنة. بيتها برجُ دفاع وذخيرة وتخطيط للمستقبل وتدريب جند. على كياستها وحسن تصرفها يتوقف تحييد القاطنين والزائرين المزورين، ثم استمالتهم، ثم تَعبئة من فيه استعداد وغناء، لكيلا يبطلوا خطط الدفاع وأخلاق الجند.

ذلك، أم هي كانت شُعلةَ حماس قبل أن تتزوج، فلما كسبت مالا وكسبت بيتا وزوجا انطفأت؟ أهي تلك التي كانت تخطبُ وتحاجِجُ عن الإسلام، أم هي هذه الساكنة المنصرفة إلى شؤونها، بين الموقد والأطباق وآمال الدنيا وآلامها تبعثرت نياتها وانهار صرح عزمها؟

ينازع المؤمنة في نفسها وإرادتها منازع النفس والشيطان، ويثبطها مثبط قصورِ الهمة، ويصرفُ وجهها إلى الدونِ من الشؤون صارفُ مُقَارفَةِ حياة جديدة ومفارَقة الصحبة الإيمانية. ينازعها في نفسها أولئك كما ينازعها الأحماء في توجُّه تربيتها.

ويتنازع المجتمعان، التقليدي والعصراني المدني اللاييكي، أيّهما يهضِم المؤمنةَ ويُحوِّلها ويُميت فيها الروح، تَنازُعَهما في تمويت الحركة الإسلامية وتقزيمها واحتوائها. لا يزال في الأنظمة التقليدية العشائرية رمَقٌ من حياة، ولا يزال في الأجيال الأمية الملتفتة إلى الوراء المنكمشة المندهشة المستسلمة بقايا خير. لا يزال في بلاد المسلمين فلول الفكر اليساري بعد خراب قلاع اليسارية وتداعي بنيانها. لا يزال يحكم بلاد المسلمين فئات قومية لبرالية، أو لبرالية متقدمة تفكر عالَميّا، هي الشوك على أرض الدعوة والألغامُ تحت مسارها.

انكشفت وطنية اللبرالي وثورية القومي عن زيْفٍ في الوَعي، وعجز في العمل، وارتباطٍ بقاطرة الحضارة السيدة الماسكة بخناق كل ما يقول: نحن، لا يشفَعها بـ... معكم ومنكم وإليكم.

على كل المستويات صراع ونزاع أمام المؤمنة، تعي ذلك وتعلم أن الجهاد ما هو نزهة في الحياة الدنيا، فتصمد وتقتحم. أو ترتخي إِرادتها منْذ تَبْسِم لها الحياة بسمة، أو تزرع في طريقها نَغْصَة، فترتد على أعقابها، وتُخْلد إلى الأرض كالذي استَهْوته الشياطين إلى الأرض حيرانَ. لها صُوَيحبات يدعونَها إلى الهُدَى لتراجِع، لكنَّ السيْلَ أقوى، والغُثاء غُثاء.

ويصطفي الله من يشاء من إمائه لتسليح أبراج الإسلام وتمكينها ومداومة الجهد والجهاد.

صراع على كل المستويات. في القاعدة الاجتماعية في الأسرة، تجرها العقلية العتيقة للخَلْفِ، وتُلهِبُ الظهور حياة شاقة وبطالة وفقر وبؤس، ويفتِن النفوس ويضلل العقول إعلام داعر وشارع مذعور.

من هذه الثكنة المختلطة، ووسطَها مشمِّرَةً لتُمسك الواقِع مسكا، تتخذ المؤمنة برجا استراتيجيا تغزو منه ولا تُغزى، فإن غُزِيَتْ قاومت وصمدت، واستعانت بالله العلي القوي، واستنجدت بحبل أخواتها في الله الوثيق. من موقعها الاستراتيجي ترتِّب المعارك التربوية ليسلَمَ ولَدُها ويخرج من ارتباك. وترتب الزحف السياسي، وتؤسس التغيير التاريخي.

موقعها الاجتماعي بصفتها أما مؤمنة يلزمها العملَ على تربية أطفالها نفسيا وعقليا وعمليا ليتأهلوا في مهنة الاندماج الاجتماعي، ومهنة الإنتاج الاقتصادي، ومهنة العضوية الفاعلة المؤثرة في الحياة. تعمل على ذلك بمساعدة مدرسة هي من الأهداف السابقة للدعوة، تحتضنها الأمهات المؤمنات، ويُسرِّبْن إليها العافيةَ بتألُّف المعلمات والأستاذات، وتقريبهن، وتهذيبهن. مستقبل أطفالهن الشخصي ونجاحهم في الحياة مرتبط ارتباطا عضويا بمهمتهن الدعوية.

بنات وبنون إن لا تَزُجَّ بهم المؤمنات، وبالمدرسة معهم، في تيار الإحياء والتجدّدِ لا يخرجون أكفاءً في حياة الكسب والفعلِ في المجتمع، ولا أحياءً بحياة الإيمان. عملاً صالحـاً يُرِدْن المؤمنات، ولَدا صالحا. فيحاوِلْن ربط المستقبل

الشخصي في وَعْي نُعومة الأظفار بمستقبل الدعوة، ونهضة الأمة. جيل يربي جيلا، كلمةٌ باقية في العَقِبِ حية يأخذها اللاحق عن السابق.

لا بد للأطفال واليافعين والشباب من رفقة خارج البيت. في المدرسة وحولها تتألف الصداقات، ونديّ الشيطان والمخدرات متربص في الأرجاء. لا تنكص المؤمنة وتنطبعْ بطابع الحماة والجدة الحاضنة: أين كنتَ، ولمَ خرجْتِ؟ مراقبة لا بد منها، لكن ما فائدة الردع والزجر إن كان عقل الفتاة ولب الشاب خِلْواً من فِكرة، يتيما من صحبة صالحة؟ زوِّديها وزوديه بفكرة، بمهمة إيجابية يغزو بها الساحة. اجعليها واجعليه طليعة بين الأقران. ذلكِ، وإلا فالتيار جارف.

من برجها الاستراتيجي الجهادي تبعث المؤمنة بُعوثا في طليعتها البنات والأبناء، حفاظا عليهن وعليهم على الأقل، إن لم يكن الاستعدادُ ليسبِق الفارِسُ مُجَلِّيًا. جيل يتقدم بالدعوة قُدُمًا بعد جيل، راسخا علمُه بما هي المهمة، ثابتة أقدامه، متوكلا على ربه. ويَكون برج المؤمنة مشتلاً لتربية الشجر الطيب، ومنطلقا للبعوث الغازية، لا مجَّردَ ملاذٍ في الأحضان، ومَرْفإٍ للمراكب المنكسرة، ومطعمٍ ومضجع.

لا تنبُت في الأرض المتحركة نابتة، لا تزدهر فيها الرياحين إن كانت الأشواك موطنا. تستقِر المؤمنة في قواعدها، تُسعِد أهل بيتها وتسعد بهم، تُشركهم كبارا وصغارا في مشروعها، وتصِل لا تفصِل. والوصل بين منقطعات متنازعات هو في حد ذاته جهاد، بل جهاد كبير، بل جهاد أكبر.

بيت منفصل عن مدرسة، جيل القواعد من النساء لا يفهم جيل المحجبات الجديدات، سياسة بلا دين ودين بلا سياسة، تديّن مقلِّد فصله التقليد عن القرآن والبيان. عَزَلَتْ وَساطة الدولة ووساطة فقهاء الدولة، وعَزَل التاريخ وفتنته، وعَزَلت العادات، وفصلت الفوارق الطبقية، وفصلت الحظوط من التعليم. تجميع هذه المفصولات على كلمة موحِّدة يسمى سياسة. جمع الواقع على الدين سياسة. استِتْباع الواقع للدين سياسة. تثوير ما هو قائم إعدادا لما يجب أن يقوم سياسة.

وثَاقة الصلة بالله وبكتابه وسنة رسوله مصدرا للهدى، وموئلا للذكر، وتعليما للقومة على الباطل سياسة. السعي لنهضة شاملة، لقومة القاعد، لإفقاد الموجود، وإيجاد المفقود سياسة. تثوير كل ذلك وإعادة تركيبه لا الإثارة الحماسية.

موقع المؤمنة السياسي وانتماؤها للحركة الإسلامية يحتم عليها العمل على إنجاح المشروع الإسلامي. تشارك مع جند الله من إماء الله في التثوير والجمع. تصِل مساعدةً، آمرةً ومأمورة، ما فُصل. أول ما تجمع وتصل، بعد توثيق توبتها وبيعتها لربها عز وجل؟ هموم ولَدها بهموم دعوتها. منفصلة لا تصِل! لها نظرتان إلى الأمور أنّى تجمع وهي غير مجتمعة!

الانجماع على الله عز وجل أولا وآخرا. من هذا الانجماع القوة، بالله عز وجل القوة. مَن لا لها إلى ربها حاجة ومطْلبٌ كيف تُستأمن على أمانة! تُساهم بالفكر والجُهد والجهاد في صنع مستقبل الحركة الإسلامية ما دامت واثقة بأن ذلك يقرب إلى الله عز وجل، ويخدُم قضيتها الأخروية، ويُصلح أثناء ذلك الولد. أسرة، سياسة، تاريخ أمة. ما يجمع ذلك في وعيٍ، وما يُجلّيه أمام عقل، وما يعيِّنة سبيلا لإرادة إن كانت الصلة بالله عز وجل فاترة، والمطالب إليه حائرة!

أسرة لبِنة. أسرة برج. أسرة خندق. أسرة مَبعث. ثم سياسة لإنجاح المشروع الإسلامي، وصنعِ مستقبل الحكم الإسلامي.

ومستقبل الأمة، مستقبل الخلافة على منهاج النبوة، مستقبل الإسلام في العالم ينتشل الإنسان ويهديه سبيل الملِكِ الديان، تصنعه المؤمنة من موقعها التاريخي حيث وضعتها القدرة الإلهية، إن سَبَقَتْ لها من ربها سابقة جِهاد، واصطفاها لذلك رب العباد.

هذه خاملة الهمة، كسيحة الإرادة، ناضب في قلبها الإيمان. لا تُحرك ساكنا من كسلها الوجودي لتعلَم هل لها من نصيب في السعادة العظمى مع المجاهدات. لا تضع قدما في ساحتهن لتخطُوَ معهن خطوة ثم خطوة حتى يَحْلُوَ لها معهن السير. أي بَيتٍ بيتُها تلك التي جانَبت السياسة، وجهلت مجرى التاريخ، وحجب

عنها الحقائق ما ترى وما تسمع من أزيز حركة الكفر في سماء الدنيا ودبيب ناره في الأرض؟

المؤمنات يثِقن بوعد الله وموعود رسوله. أقدامهن ثابتة في أرض المعارك، وهمُّهن الله تعالى والمصير إليه، مهمتهن في الحياة وهدف عُمُرِهن تقديمُ دفعةٍ في مشروع سنة ربِّنا الغفور الشّكور لتُحْسَبَ لهن جهادا. وإن الله تعالى بالغ أمره، وما يقلِّبه سبحانه في الليل والنهار، وما يُديل من دُوَل، وما يرفَع من قِسْط ويخفض، وما ينصر من قوم ويخذل، إن هو إلا مُفَصَّلُ بلائه للعباد. في نهاية التقليب وَالرفع والخفض أمرٌ هو بالغه سبحانه، بدفعتكِ من وزن الريشةِ، أو يُوَكِّل الله بالمهمة قوما ونساء.

حكمة المولى سبحانه فيما يأتي به في ليل ونهار لا مجال لنا فيها. والمستقبل الغامض في أعيننا أمر حاصل بالفعل في علمه ومطلق قدرته. سميت نفسَكِ صانعة المستقبل تفاؤلا أن يتاح لكِ موقِع قدم، أو تنهض بِكِ ناهضة. وإلا فالمستقبل الإسلامي، بمشاركتِك أو بدونها فجر طالع، يتلوه ضحى ماتع ونهار ساطع. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

في الحديث النبوي الذي رواه مسلم وأبو داود والترمذي والإمام أحمد وغيرهم عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله زَوَى لي (أي جمع أمام عيني) الأرضَ، فرأيت مشارقها ومغاربها. وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي». وقد وضعنا في أول الكتاب حديث البشارة بالخلافة الثانية على منهاج النبوة.

إن اصطفى المولى عز وجل المؤمنة كانت منبِتاً وأصْلا. تكون أصلا للبذور الطيبة، ومنبتا للشجر الطيب إن كان لها في سماء الإيمان والإحسان مطلع، ومن أرض العبودية لله وحده لا شريك له مَشْرَعٌ. اكتملت فيها التربية فهي منها فائضة كالنبع الكريم يَجود. اكتمل فيها الوعي وتكامل بين وظيفتها الأمومية، وجهادِها الحركي، وإعدادها القوة للتغيير التاريخي الطويل النفَس.

مستقبل الذرية حتى تتعلم وترشُد وتتزوج وتندرج في الحياة. صنع المستقبل السياسي للحركة الإسلامية مصاوَلةً ومطاولةً للمبطلين. صنع تاريخ الإسلام. مسألة أجيال، مسألة قوة أجيال، مسألة كفاءة أجيال، مسألة إيمان أجيال، مسألة تربية أجيال، مسألة تأصيل أجيال، مسألة توصيل أجيال لتستقي من ينابيع الوحي وتستنير بأنواره. والحمد لله رب العالمين.

تربية مستقبلية

سلسلناها تربيةً من محضَن نشأت فيه المؤمنة، فزواجٍ فأمومة يتفيّأ ظلالها الوَلَدُ الصالح لينبعث إلى مدرسة تحصنها الأمهات، ومنها إلى اندماج في المجتمع فجهاد.

خَرزاتٌ بلا نظام هذه المراحل، مشروع نظام بلا سلك. بل دُمَى أسلحة في دويرية لعب سميناها بُرجا، وزور ذخيرة، وبُهتان قذائف إِن لم يكن مشروع أمة الله وعبد الله، يتواصيان به وتفتح أعينها عليه الذرية، هو التقربُ من الله، وتهييء المستقبل إليه، وطلب الحظ منه. إن لم يكن المستقبل مع الله، والموعد الأخروي هو السلك الناظم، وحقيقة السلاح، وقوة الذخيرة، وفاعلية القذيفة فإنما الناس أقفاصٌ بلا طائر. ما سُمِّيَ الغثاء غثاءً إلا لاندثار القوة الماسكة والمطمح العالي والتشوف للشهادة ولقاء الله، لا تخيف الموتُ ولا تزعج عقبات الحياة.

من البيت الإسلامي تنطلق القومة، إن كان البيت يسكنه مؤمنون، وكانت قلوب المؤمنين يسكنها حب الله، والخوف من الله والرجاء. من البيت الإسلامي تنطلق القومة، وتمُرُّ بالمدرسة، وتستقوي بعد الله بمن سَمِع، ولبَّى، وسأل، وسُئل عنه، ولبّى النداء، والتفّ، واجتمع، وأيد، وانتظم. وكلها مراحل تربوية، تأخذ الأقرب فالأقرب السائر في الحياة بلا هدفٍ لتوقِظ فيه هم مستقبله الحقيقي الأبدي، ولتعقد له مع الله الصلح الكبير.

يصحو المسلمون والحمد لله، والقومة انطلقت بعون الله، والصادقات والصادقون في توبتهم لن يجدوا أمامهم مِن بين أنْكاثِ الأحزاب السياسية وأنقاض الأسرة المفككة من رُكن يأوون إليه، وصدق يعولون عليه إلا الدعوة تُمثلينها أنتِ يا أخت الإيمان. فانظري بأي وجه، وبأي فقه، وبأي تفانٍ تخدمين

مع الله مستقبلك بما تمهدين ليخطُوَ الناس، وبما تُحببين ليحب الناس، وبما تصبرين ليصبر معكِ الناس.

جمع وتجميع وتصالح كبير يتسع من النواة الإيمانية الحية المهمومة بالمصيرين مقترِنين. مصيري مع ربي ومصير أمتي، يسألني عنه ربي إن ضيعت وقَعدت مع القاعدين. من النواة الإيمانية الإحسانية تتسع دائرة الصلح مع الله لتضم بحنان أهلَ المسجد المصلين، وأهلَ الغيرة القادمين، وأهل الغَنَاءِ المؤلفَةَ قلوبهم، المستورةَ عيوبُهم. يدري ضرورة طرح المشروع الإسلامي طرحا سياسيا جامعا من يستشْرِف المستقبل وعنده بَصيصُ علمٍ من مَطالعه، وعنده بالبؤس التاريخي العميق الذي تتخبط في قاعه الأمة دِراية.

ويدري الأهمية القصوى لطرح المشروع الإسلامي بما هو توبة وإيمان وتربية وإحسان وموت وآخرة ودرجات عند الله وقرب من الله، من يتعلم من الواقع، ويعتبر بتساقُط الأفراد من الدعوة، وانمساح بعض الدعوة من معاني الإيمان ومطامح الإحسان حتى لَكأنّ بعض الدعوة حزب سياسي من الأحزاب، إن ذكر بين المتجالسين فيه اسم الله فكلمةٌ تلفظها الشفتان.

سقطة تاريخية عميقة، وتتصدى لانتشال الأمة منها مَنْ لا لَهَا مع ربها مستقبل ترجوه! هذه بداية نكسة لا بداية قومة. وطليعة تائبة عابدة راكعة ساجدة معزولة عن الشعب، لا عضَلَ لها منه، ولا عدَدَ، ولا عُدَّة، ولا عون، ولا ثقة ولا مشاركة. تلك جولة وتتراجع، وَمْضة برق بلا مطر، سحابة صيف وتنقشع.

ونُمسك بَعْدَها بذُناب عيْشٍ أجَبِّ الظَّهْرِ ليس له سَنام

بدون أسرة سِلْكُ نظامها المعاشرة بالمعروف والبِر والتعاون عليه، وبدون سياسة تتوسع من نواة وتشع من مركز، وبدون مستقبلية أخروية يتوقد همها في قلوب المؤمنات والمؤمنين، فالعيش هُونٌ. خشاش مع الخشاش، في غدير ضفادعَ تنِقُّ، ومستنقع بعوض يتآكل. صورة من المشهد الغثائي. يتامى من ديننا، بل عاقُّون ناقّون.

إنما يُقَوِّي اللهُ، وينصر اللهُ، سائرات إلى مستقبلٍ لأمتهنَّ وعدَه الله، وفي قلب كل منهن جمرة حزنها على ذنبها، وإِرادة الزلفى عند ربها. لها مع الله قضية هي الحاكمة الموجهة الباعثة. هي المستقبل. وما يلفَح الوجوهَ من حَرّ حاضر الأمة وكآبة وضعها بطُمأنينة وثقة تعالجه المؤمنات. لا بترامٍ سياسي يتعجّل، ولا بتراخٍ مُبرِّرٍ يتأجّل. المستقبلان، الفردي عند الله والتاريخي في أرض الله، يُزحَف إليهما بعد إِعداد، تُقتحَم عقباتهما بإرادة، تُخطَّط مراحلهما بعلم، تُقطع المسافات إليهما بقوة لا بعنف.

الفرق بين العنف والقوة أن العنيف يحاول قلب موازين القوى في السياسة، وترجيح كِفة قوم على قوم، بمقتضى تعجله وترامِيه لا سيرا مع سنة الله، وهي التدرج والمطاولة والصبر. القوة تُعِدّ وتتأنى وتصبر. السياسة ترامٍ، والتربية إعداد. والميدانان متداخلان، تنتعش التربية بالمكتسبات السياسية زمنا، فإن ارتدت السياسة على التربية انتهشتها، وربما قتلتها.

القوة إعداد، وبصَر بالحاضر، واستبصَار للمستقبلَيْن. ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[1]. رباط الخيل إعداد ومُدّةٌ وجُهد. تغرسين وتَسقين وتتعهدين، فإذا نضجت الثمرة فأدْنَى حركةٍ يجعلها تَسَّاقَط عليكِ رطَبا جنِيّا، فكلي يا مريمَ الدعوةِ واشربي وقَرِّي عينا.

القوة تغَذَّى، وتُكتسَب. حملت الأمة رسالة الإسلام قوية على الحمل زمنًا، وكان لها من العلم برسالتها يقين، ومن العلوم الكونية وسلاحها ورباط خيلها رِفد، وفي الصنائع كان لها القِدْح المُعَلَّى. ثم عجزت وخارَت قواها فهي منْبَطِحة. فكر معوَّق، قرآن مهجور، طاقات معطلة، هزيمة تاريخية، مستقبل غامض، تجارب مرة، كوارث وحوادث، عدو مفترس، هشاشة في البنية التقليدية ينم عنها اختراق الغزو الثقافي، خيانة القوات المساعدة للغزاة، يَنم عن خيانتهم ما يفعله الأعداء بالمؤمنين، والخونة جزء من التدبير طائعين بل مُحَرّضين.

(1) سورة الأنفال، 60.

إن بسطنا خارطة الصراع بين الحضارة الغربية تعززها فيالق المرتزقة من بني جلدتنا وبين الرسالة يحملها مستضعفون يبادون في شوارع مدن الجزائر وقرى مصر، برزت إلينا بالألْوان المتعارضة مكامن القوة والضعف. القوة المادية في يد الحضارة الغربية، والضّعفُ المادي فينا لا يُعوضه ولا يقوم مقامَه إيمان أعزَلُ لا علم معه بما هي خيل الساعة وما هو الرباط وما هو الإعداد.

تكون لِلأمهات كلمتهن في توجيه المدرسة، بل يُلقى عليهن حِملٌ من حِملها، وثقْلٌ من ثقلها. المدرسة -من المهد إلى اللحد- محور دائرة الصراع المستقبلي بين حضارة الأشياء، حضارة الاختراع، حضارة العلوم الكونية، وبين الرسالة العزلاء حاضرا، لا يرجى لها بلاغ ولا في دنيا المدافعة والمزاحمة مُطّلَعٌ إن لم تأخذ بأسباب القوة، وتتمكنْ من سلاح العلوم، وتُوَطن التكنولوجيا. إن كانت الصلاة والصيام والزكاة والحج تصدِّق شهادة أن لا إله إلا الله أو تكذبُها، فالتصديق بموعود الله وبالخلافة على منهاج النبوة تتوحد عليها الأمة، يكذبها أو يصدقها سعيُ المؤمنات والمؤمنين، وَجِدُّهم، وتفرُّغُهم، واستماتتُهم، لاكتساب ما قلنا، وتذليله وتوطينه وتسخيره.

معركة حاسمة مصيرية متسارعة في زمن متسارع بين أدمغة تفكر وتتعلم وتصنع وتبيع وتغزو وتغلب، وبين أدمغة أمية عضلية غثائية. مثالٌ من الجاهلية ماثل أمام أعيننا لو كنا نعتبر. اليابان تسيْطر الآن على ما بين ثمانين وخمسة وتسعين في المِائةِ من السوق العالمية للإلكترونيات والإعلاميات. يتقلص نصيبها إلى ثمانين في المائة في التكنولوجيات من الدرجة الثانية، ويتقدم إلى ما يقرب من السيطرة الكلية في الميادين الطليعية. لو يعتبر أذناب الغرب خونةُ دينهم بما يجري في العالم لتعلموا أن اليابان المحَلِّق هو نفس اليابان الغاطِس في تقاليده وخرافاته ودياناته حتى الأذقان.

لهم جذور، لهم أرضية مستقلة من ثقافتهم ولغتهم، لهم تصورهم للحاضر والمستقبل. لهم إرادة قومِية وتاريخ هم به متبجحون. لا جرَم تتوطد أقدامهم

في الحاضر، ويغزون المستقبَلَ ممتدَّةٌ ظلالهم عليه. ما صرنا نحن غُثاء، وكلمةً دخيلة في قاموس التاريخ، إلا لإنكارنا أصولنا، وكفرَانِنا رِسالتنا، وجهلِنا بما نحن ومن أين جئنا أمة وإلى أين نصير بعد الموت فرادى.

جوهر القوة المستقبلية علوم. ورَد عِلم منها يُسمى المعلوميات فحمل على متنه سائر العلوم الكونية، وأسرع بها سرعة الإلكترون. احتمل علوم الذرة وكانت متفجرات فتقدم بها لتكون الطاقة المكمومة الخادمة. واحتملت الإعلاميات الطب ففتحت أمام هندسة الوراثة، وتشخيص الأمراض، وتركيب الأدوية، وتجريب الملقحات آفاقا بعيدة لا يَترَاءى مداها المتطلعون.

واحتمل المارد المعلومياتي الفلاحة والهندسة النباتية، فلولا أنه مارِد لأفاض على الإنسانية الخير حتى لا يبقى على وجهها جائع. لكنه يسخره المال والربح وحساب السوق، فلا يخدم إلا أنانية من في يدهم المال والسوق، إلههم المعبود الربح، والهَبَلُ لأمّ الأخلاق والإنسانية!

علوم المستقبل معلوميات وإلكترونيات وبصريات وتواصليات. الإدارة المستقبلية لا كإدارة الورق والأضابير والملفات والغبار العتيق. معمار المستقبل توازن في الأعالي معلق على أعمدة درسها الإلكترون. التدبير المنزلي المستقبلي خَدَم معلوماتي. معامل المستقبل أزرار يلبي طقطقتَها جيش من العبيد المكهرَبين. اقتصاد المستقبل تدفع به التسهيلات المعلوماتية ليكون حسابه أشبه بالعلم الدقيق.

قبائل ماردة من العلوم المستقبلية، ما يفعل غدا بها أعداء الإنسانية؟ ما يفعلون بها الآن وهي في يدهم أداة سيطرة؟ لو استفاق شيطان مثل النازية وقرر إبادة الأجناس المنحطة في نظره، وعقَّم، وصنَّع الجنس السيد؟ لو قرر شيطان إلكتروني الدماغ تصفية العِرق والدم غير النقي بأسلوب علمي غير أسلوب الصرب الهمجي؟

همجية علومية تتحكم في العلم بنظُم بيولوجية تغير خلق الله، وترنو إلى ما ادعاه فرعون من ألوهية. منذ الآن تسخر علوم المستقبل لخدمة أغنياء العالم وعلاج أمراض الأغنياء لا لتغذية جياع العالم. تسخَّر لتصنيع الصواريخ الذكية والطائرات الأشباح. الحكماء العلوميون وحفَظَةُ أسرار الاكتشافات ضمائرُ في قبضة الهيآت الرأسمالية الحاكمة، وهؤلاء في قبضة السوق. والسوق جاهلية ما لنا فيها موقع قدمٍ، ما لنا فيها متجر إلا أن نبسط على الأرض معرض فواكهنا الرطبة ووجوهَ نسائنا يرقصْن للسياح.

الثقافة الأبجدية الورقية ماض عتيق. والمستقبل صُوَرٌ رَقْمِيَّة، ودماغ بشري يوصل بأنظمة إعلامية فتعزز ملكاته. المستقبل تلفزيون مدقق، ثم تِلفزيون مُجَسَّد. استغنى الدماغ العلومي فطغى، فهو يستطلع ما وراء المادة، يحاول خرق الكون المنظور، يصنع بآلاته المستقبلية علما عجائبيا، يلعب بالرموز الرقمية، يحلُم، يغرق في الخيال مرَكِّباً من الذاكرة الإلكترونية برامج مبرمجة تصنع له الجنة. يبحث عن الله، لا يعرف الله. يبحث عن المجهول عسى يتفتق له المستقبل عن شيء.

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

تربية علومية

أنسب إلى الجمع نسبة لا يحبها النحاة القدماء الذين لم تُربكهم الحاجة إلى التمييز بين ما هو دَوْليٌّ مثلا، كمؤسسة دوْلية خاصة بدول ما، وبين ما هو دُوَلي مشترك بين دوَل عديدة، كالمنظمات الدولية. كم من خدمة تنتظر منا اللغة العربية الشريفة، لغة الإسلام لغة القرآن، التي وَسعَت العِلْم بالله وبرسالة الله إلى الإيمان لتستوعب العلوم الكونية سلاحَ الحاضر والمستقبل. أحوج ما تكون أمة الإسلام لخدمة الآلة اللغوية حتى لا تطغى على القلوب عُجْمة تحملها في أحشائها هذه العلوم المادية الصمُّ أهلها، البُكْم عن كلمة الله.

العلمُ العلمُ بالله، وبكتاب الله، وبرسل الله، وبقدر الله، وبملائكة الله، وبلقاء الله. مصدرُ هذا العلم الوَحي، وِعاء نوره القلب، والعقل الإيماني المنفتح المنافذ على القلب يتلقى الأمر والنهي، يعرف الحق.

والعلوم الكونية اطلاع العقل المعاشي المشترك بين البشر، متفاوتين في ذكائه أفرادا، متقدمين أو متخلفين في مضمار فروسيته أمما وعصورا. العقل، العقل، العقل. كلمة يرددها الناس غيرَ عابئين بتعريف ما هو العقل الذي يتحدث عنه القرآن، وما مدلول العقل في ميادين المعاش. قلوب تفقَه عن الله، تعقل عنه تتلقى وحيه بالقَبول. وقلوب مختوم عليها، منسَدَّةٌ قنواتها، لا تقبل الوحي ولا تعرف الحق. ومع ذلك فعقولها المنطقية المعاشية المنقِّبَةُ المستنتجة الصانعة المكتشفة لها الفاعلية في الكون، تُطوِّرُ مادياتها ويبقى العقل الإيماني كسيحا.

إن الحضارةَ المركزَ، حضارة الصاروخ والذرة، والإعلاميات والثروة والصناعة والخبرة والسيطرة في العالم، لا تقبَل مع وجودها وُجودا إلا أن يكون مِثلا وذيلا.

وهي بخيلة بحصيلة العلوم التي أفضت إلى عُهْدتها من حصيلة جهود حضارات بشرية متعاقبة ساهمت أجيالها في إرساء قواعد التفكير وتسخير ما

في الكون، بما سخرهُ الله للعقل الساعي المجرب، لحاجات معاشها وشؤون حياتها. وكان للمسلمين شرف احتضان العلوم مدى قرون، كانت عليها الأمينةَ الراعية المحسنة. أثرى المسلمون العقل البشري بأثمن مكتسباته التاريخية، ألا وهي الطريقة التجريبية التي وُلِدت من رَحِم التعليل والتقسيم والتثبت الإسلامي، بعد أن تعَوّقتْ في الـمَخاض عند اليونان والهند والسند.

وُلدت الطريقة التجريبية أم العلوم على فراش مسلم، فإن احتجزها ورثة عاقون محتكرون، فالفتاة لنا، من دمنا، نستردها. بضاعتنا نستردُّها. لكن العلوم الكاثرة التي نَسَلَتْ منها إن صكت أسماعَ العالم وأعمت أبصار الأنام عن العلم الحق، فحقها علينا أن نوظفها -بعد استرجاع الأم والحفيدات- لتخدم الحق لا لتبني في ديار الباطل. وهو جهاد كبير.

تتنامى الصحوة الإسلامية، والحديث عن الإسلام، وتجفل النخبة المثقفة بثقافة الغرب، الجاهلة كلا أو بعضا بما هو العلم، وكأن الإسلام كلمة طارئة في العالَم، وكأن العلوم الطائرة بسكان العالم نور لا يبقى معه ظلام. الظلام في نظر خفافيشَ ملحدةٍ منبهرة هو الدين والوحي والله ورسوله.

في القرية البشرية الكرةِ، التي تقلص فيها الزمان وتقارب المكان وحَمِيَ سوقُ العلوم، قُوىً محتكرة هي الأمم الغربية تساورها أمم شرقية وتسابقها وتسبقها، اليابان اليوم، والصين المارد حين يستفيق غدا. مانِعٌ خارج أسوار الأمة الإسلامية لن يجود بعلوم، لكنه يبيعك آلاتٍ بالثمن الباهظ، يسمى البيع تحويلا للتكنولوجيا، وكأن التكنولوجيا شيء مشيّأ تشتريه جاهزا، معامل بمفاتيحها أسكن فيها البائع عجائبه ودرَّبك على وضع الإصبع على الزر.

وفي الربوع مانع آخرُ تابعٌ إلى طاعة الأقوياء مسارع. هذا المانع المحلي مصلحتُه إن كان صناعيا تاجرا أن يَستورد أكبر قسط من التكنولوجيا الجاهزة. فإن كان مثقفا ديموقراطيا أستاذا خبيرا مُلحدا فوطنيته تُملي عليه أن ينَظِّف الأرض من خرافات الوحي والدين، ليحرر العقل المسلم، فيتقبل العقل العلوم سليما من شوائب اللاعقلانية.

مَن يستنقذ العلوم ويعيد تأصيلها على قواعدَ مُسْلِمَةٍ من يد المحتكر الخارجي. مَن يجمع من أذكيَاء الأمة وعباقرة الأدمغة المهاجرة عَبدَةِ الدولار نواة نهضة وطليعة جهاد؟ من يفرش للمتناثر من أهل الكفاءات العلومية بساط ترحيب ليؤلفوا جندا مخلصا لله يصنعون مجد أمتهم ومستقبلها، مكافَئين اعترافا بالجميل وتقديرا للكفاءة، مرجوّا لهم عند الله حسن المآب إن هم سألوا أنفسهم سؤالا علميا عميقا: لِمَ كُل هذه الأسرار في المادة؟ ماذا وراء المادة؟ لِم أنا، ومن أين أنا؟ وإلى أين أنا؟ من كان منهم على قابَ قوسين من الفطرة لم ينسلخ عن دينه فذلك نرجوه. ومن كان منهم مؤمنا بالله ورسوله حقا وصدقا فالبيت بيته، ومن كان منهم مصليا تقيا –وهم كثير والحمد لله– فالمسؤولية مسؤوليته، وإعداد القوة لأمته فرض كفاية عليه، يأثم أشد الإثم وأنكره إن خذل، ويرشح نفسه لأكبر المنازل عند الله إن نَذر حياته وجهده وجهاده للمهمة النبيلة.

من فعل ذلك ومن فعلت. وليس دماغ المرأة أقل كفاءة يا من يقرأ نبذة عن المكتشفة الطليعية مَدَامْ كوري، ويا من يقدر دقة النساء وقدرتهن على الإنجاز.

حاجة الأمة ملحة ضاغطة لتربية لا تمَوِّنُ المتسوق من البضائع المعرفية ومخزونات الإنتاج العلومي مما يبيعه المخترعون، بل تَتَمثّل الرصيد العلومي وطرائقه لتبدع وتخترع وتكيف.

في الأسرة ينسجم الدين والخلق والسلطة الأبوية الأمومية في حضن المحبة لتتألف عناصر التربية المتكاملة. في المدرسة الأساسية، من حيث تنطلق مسيرة اقتحام عقبة العلوم، ثم الثانوية والجامعة، ينبغي انسجام جديد غيرَ تجميع «الموارد البشرية» وترتيبها وامتحانها الإداري وعقابها وتخريجها بعدُ لسوق شغل غير موجودة.

في المدرسة الإسلامية المرجوة نريد انسجاما جديدا تتقلص فيه الإدارية الدوْلية، وتحتل الدعوة القلوب لتهيئ النفوس الفتية، فتلتقي الرغبة بالتوجيه التعليمي، وتتلقاه راضية مقتنعة منساقة لا مسوقة. منذ تعلَمُ النفوس الفتية ما قيمتها في الوجود، وما مصيرها، وما حاضر الأمة التي تنتمي إليها، وما فرصة

المشاركة في إنهاضها، ومنذ تثق بالموجه المعلم، وبالمربية الأستاذة، يتكون في النظام التعليمي جو آخر ملائم للتعلم غيرُ الجوِّ السائدِ في مدارس الثقافة التابعة والبطالة غير الصانعة.

تثق النفوس الفتية التي بَاكَرها الإيمان وباركها على يد الدعوة بالأستاذ لا يخون أمانته، وبالتوجيه لا يمليه السياسي الحاكم من منصة التهريج، وبمستقبل تساهمين فيه بجُهد يجد مكافأته المادية العادلة في مجتمع لا يترقى فيه الناس السلّم بالرشوة والقرابة والمحسوبية، وبجهاد تجدين ثوابه عند الله إن حققَتْ عبقريتك ما عليها ببذل أقصى ما تقدرين عليه لصنع مستقبل أمتك.

مثال! يا مثال! ذل من لا مثال له! خنَس من لا طموح له! خاب من لا إيمان له بموعود الله ورسوله! روح الدعوة تسري في المدرسة من نفحات الأمهات المعلمات المربيات، لتنسحبَ منها روح السيطرة الإدارية، وخيانة المكتبية التي لا تبالي، وقانون المذكرات الوزارية الغائب من يكتبها عن الميدان، وقطيعية العدد العديد الذي يجد فيه النشء نفسه أرقاما مجهولة.

ليس بالروح والمثال تتغذى الأجسام، بل الأجسام وغذاؤها قِوام الروح. فالمدرسة، والجامعة بعدَها، واقتناء علوم المستقبل، وتوطين البحث العلمي، مشروعات تموت جوعا إن سَرَت الروح في المدرسة وانسحب الاقتصاد.

العلوم المستقبلية ما هي فراشات مجنحة ترشُف من رحيق الأزهار، بل هي ساكن راحِل مثواه الاقتصاد، يحُلّ إن حلّ، ويرحل إن رحل. ساكن ومثوىً، وغذاء يسمى الصناعة، الصناعة بكفاءة، الصناعة بسرعة، الصناعة بتنافسية، الصناعة والتسويق في عالم الشُّطار المتفوقين. تزاحمين الكَمَّ الماديَّ والكيف البضاعي أو تموتين. تبطئين فيشطب على اسمكِ من السوق. اقتصاد ومعاش، ألسنا مع العقل المعاشي؟

زحفٌ على قطار سريع. زحف يبدأ من فجر المدرسة الأساسية، حيث يَتعلم الطفل وتتعلم الطفلة سطوح الأشياء ومبادئها، ومسميات الأسماء، والقراءة

والحساب. وأثناء ذلك تدريب على التطلع لأعماق ما وراء الواجهات، وألوان الصُّوَر، وأرقام الحساب. يدرب الطفل على العمل الجماعي والتعاون مع الأقران، وتُذْكى روح المنافسة.

تتولى الأمهات الحَدِبات على فلذَات الأكباد، لا الموظفات الساليات يرتبن الملفات في إدارة الدولة، توجيه العبقريات المتبرعمة والمواهب الكامنة التي تكتشفها الـمُراقبة الحَنونُ كما يراقب الزرعُ الغمامَ سنة القحط. وتُدرَّب البراعم التدريب العقلي العملي لتنمو فيهم القدرة على وصل النظرية بالتطبيق، والبحث بالنتائج، والنتائج بالمصلحة والمنفعة. في الجامعة والمدارس العليا يزدوج النظري والتطبيقي، ويكْبُر موضوع البحث، ويدخل حساب الربح والخسارة، وتوصل النتائج بسوق الشغل الآني، ويوصل الكل بمشروع مستقبل الأمة.

تصنع المدرسة الأساسية شعبا واعيا من عموم الأطفال، ثم ينفرزُ الموهوبون أفواجا متوسطة تدرب التدريب المهني، وتوجه الطلائع الذكية لتنال أعلى ما يمكن من التخصص. والنخبة العليا لا ينبغي أن تُكتم أنفاسُها بالحجة الديماغوجية الباطلة حجةِ المساواة. فإن الله رب العباد زاد بعض العباد بسطة في العلم والجسم. فالأكثرون من النخبة العليا إحسانا لفن التوصيل والتواصل والإفصاح، يُزَوَّدون بالمعارف والخبرات العملية ليكونوا أساتذة، بناتٍ وبنين. أشرف ما تنذر نَفسها له المؤمنة التعليم.

أما البحث العلمي العلومي فيريد ذوات القدرة وذوي القدرة على التركيز والصبر والمصابرة والمثابرة والفُضول العلمي والاطلاع على ما في العالم من دراسات تنشر، وخبراءَ يبرزون، وكشوفات تنسَخُ كشوفات. قبل ذلك الإخلاص لله تعالى والولاية لأمة الإسلام. وبعد ذلك وأثناءه مكافأة الجهد، ورصد أموال، وإرساء مؤسسات، ودعم مؤسسات.

كيف ينسجم كل ذلك في مدرسة إسلامية وجامعة؟ كيف تكسَبُ علوم هدفها خدمة الدين وقوام نشأتها وحياتها الذكاء والخلق والسلطة المعنوية من أعلى،

والمكافأة العادلة من تحت؟ ما المنهاج التربوي والهيكلة الإدارية، والعلاقة بهذا الجانب وذاك؟ ما الآداب العامة والعلاقات البشرية بين معلم ومعلم، بين تلميذ وتلميذ، بين طالب وأستاذ؟

لنكونَ علميين في فقه نصب الآلة وتشغيلها كما كنا علميين في تخطيط الأهداف نقول: بعد توفيق الله وبركته نعتمد الشجاعة والتجربة، ونتعلم من الخطإ، ونحاول ونثابِرُ، ونسدِّد ونقارب، وننسق ونستعين بالله. وعلى الله قصد السبيل.

تربية قرآنية

إن اكتساب العلوم والتقنيات المتقدمة والاستغناء بالمقومات الاقتصادية شرط للبقاء، مجرد البقاء، في الحياة لأمة تطمح أن يكون لها موقع من الإعراب في عالم الغد.

أما أمة تحمل رسالة للإنسان، وهي ممزقة ضعيفة منهوبة مغلوبة، فإن كسب العلوم في حقها أشد ضرورة، إذ هي وسيلة القوة، والقوة العماد المادِّيّ لمن له مغزىً في الوجود، وشرف في الوجود، ومعنى في الوجود، يريد أن يقول كلمةً تُسْمَع.

الإنسان هدف هذه الكلمة، والمقصود بهذه الرسالة. ما دمنا سائرين على تعثر في مقالع الأحجار والهوْل العِدائي من جانب الأقوياء يؤرق ليلنا، وسياط الآلام تُلهب ظهرنا، فانصرافنا كُلي للدفاع عن النفس، والتنديد بـ«المؤامرة» التاريخية ضدنا، والتسلي بإِيقاظ ذكريات الأمجاد الحضارية عسى تنير القاتِم من حاضرنا. فترة تاريخية عصيبة نعيشها وتمضي إن شاء الله. ونكسب القوة وتنفتح أمامنا أبواب مستقبل الوحدة بإِذن الله.

عندئذ تتغير نظرتنا إلى أنفسنا وإلى العالم، فنكتشف أن معنا رِسالة إلى الإنسان أُنْسيناها، وعجزنا عن حملها، وارتبكنا حتى في فهمها لتنوير أنفسنا. عندئذ ينتظر منا الإنسان كلمة الدلالة على الله، لا تشوش عليها عداوة الإعلام الغربي التي تخيم الآن على آفاق التواصل بيننا وبين الإنسان. عندئذ، والقوة في يدنا، نكفُّ عن اعتبار الإسلام دين قتال ونِزال. القتال بقوة المستقبل دمار شامل للكرة ومن فيها. ونحن مَن في الكرة هو مقصودنا، نبلغه رسالة الله ليسْمُوَ عن مستنقع الأخلاَق الرديّة، وبؤرة الشقاء الكفري، ومصير النار.

في انتظار ذلك لا نستطيع نحن نسمو، بل ننحط، إن خذلتنا الوسائل المادية. كيف تريدين فلذة الكبد عالما منتجا على أعلى المستويات إن كلفتِه الصوم عن الدنيا! تصرعه الدنيا ويدوسه بالأقدام أبناء الدنيا وبناتها.

لا نستطيع نسمو إن كان معنا القرآن وما معنا خبز، وما معنا استقلال غذائي، وما معنا صناعة، وما معنا من أموال المسلمين إلا غُصَّة التفرج عليها وهي تلعب بها الثعالب والذئاب. بعد سنتين ونصف من غزو بغداد حسَب خُبراء الغرب أن خسارة العرب في تلك الكارثة ست وسبعون وستمائة مليار دورلار. قبل ذلك حسب الخبراء أن عشرين مليار دولار لو أنفقت لاستصلاح الأراضي الشاسعة في السودان لَكادَ العرب أن يشبعوا خبزا من زرع أيديهم. مُعظم الخسارة سلمه أمراء النفط ثمنا لأمريكا مغيثة العرب من بأس العرب.

مقياس من مقاييس سفاهتنا -أعني سفاهة حكام الجبر- ومعوقاتنا وقصورنا عن حمل الرسالة وتبليغها. فلأَنَّ أمام طريقنا أحجارا ومصانع كوارث لا نقدر حقَّ قدرها الأمانة العظيمة التي أنيطت بخير أمة أخرجت للناس. يخرج لنادي المكتسين بالحرير عُريان في الأسمال؟ يخرج مَن رُمحه قصبة إلى من رماحهم الصواريخ عابرة القارات؟ يستحِي من يتكفّف لقمة العيش من الناس أن يزعم للناس أن معه من الله نوراً وبرهانـاً وفرقانـاً. أنت سُبّةٌ على رسالتك، ظلمة في وجه النور، دحض للبرهان، خلْطٌ بلا فرقان. وإلا فهاتِ هاتِ!

موعدنا مع الإنسان لنسلمه الرسالة فيقبلها معتزا بنا أن جئناه وقرعنا بابه يومٌ من أيام الله يكون نشأ فيه جيل قرآنيٌّ مَسْجِدِيٌّ. القرآن الرسالة والمسجد عاصمتها. ما أحوجنا إلى المعاهد التكنولوجية ومرافق البحث العلومي. مثلَ الناس نحتاج، وأكثرَ من الناس نحتاج. وقد قدمنا أن التربية العلومية تسري فيها روح الدعوة بما يحملها إليها في شغاف القلب الأمهات الحاضنات، والولد الصالح نشأ في أسرة صالحة فشرب من معين الإيمان. ولا بد للدعوة السارية روحُها مِن موعد لقاء، وبرنامج لقاء. الموعد المسجد، والبرنامج القرآن.

إن لا يأت إلى المسجد تلامذة المدرسة وطلبة الجامعة، يأت إليهم المسجد. في المدرسة والمعهد والكلية مسجد وقرآن. أول خُطى الطفل إلى المسجد، يأخذ بيده إليه أبوه وعمه وأخوه، مناسبة يُحتفل بها في الأسرة، ويُلْبَس الطفل لباس الأعياد، ويصور ليحتفظ في ذاكرته بحدث مهم في حياته. كان أجدادنا

رحمهم الله أفضل مِنا وَلاءً للقرآن، يختِم الطفل ختمة كاملة فيركب فرسًا ويُزف كما تُزَف العُرسان، احتفاءً به أن حفظ من آيات الله. ويختم نصف ختمة وربعها وعشرها فيُفعَل به من البِر والاحتفال. ذكريات الطفولة مؤسِّسَاتٌ للشخصية، نربطها بالمسجد والقرآن، لا نترك المناسبات الاجتماعية تنسج ثوبها.

ليس معنا وقت لنقف مع من يصرخ: بدعة! بدعة! ما يساعد على الدين سنة حسنة. البدعة والضلالة أن نترك بذور الشر والغفلة والعادات السيئة تنزرع في نفوس الصبية. كل ما أصلح تربة النفوس لتنغرس فيها آيات الله وحب بيوت الله عمل صالح. وما خلد في نفس الفتاة ذكرى يوم احتجابها واختمارها في اللباس الشرعي من حفلة واجتماع واهتمام عمل صالح تُرجَى عوائده مَدَى الحياة إن تُعُهِّدَ بالتربية، وصين في بيئة قرآنية.

كان مَن قبلنا رحمهم الله أقرب إلى السنة بعمارتهم المسجد يعقد فيه النكاح، وتُعلن الخِطبة، ويخرج منه العريس. وتعود إلى المسجد مركزيته في دولة الإسلام ووظائفه. في بنايته العامة وما حولها من مرافق.

طفل وطفلة أغنتهمَا الأسرة، وعلمتهما البذل، وتابعت مسيرتهما من المسجد إلى المدرسة، إلى الجامعة إن كان، إلى النجاح المهني حيث تُنال وسائل البذل. ذلك حق الولد الصالح على الوالدين الصالحين لصنع مستقبل الوَلد عنصراً صالحا في محيطه.

وحق الأمة وحق الرسالة أن تكون الأسرة وامتداد نفوذها وتأثيرها في المدرسة والجامعة قد غذّت الولد منذ صباه الباكر بالقرآن والتوحيد. أول كلمة تفرحين بها تخرج من فم الصبية والصبي لا إله إلا الله. وأول جملة قل هو الله.

ثم يكون القرآن محور العملية التربوية ومورد العلم وجامع العلوم. لاسيما في السنوات التسع الأولى حين يتكون النسيجُ الأساسي للشخصية. هل يستوي في فرص علوق الإيمان بالقلب مَن غذينه بالأغاني رضيعا ومن ألقمنهُ مع ثدي اللبن ثدي التغني بالقرآن؟ قلت: فُرص العلوق. وإلا فالهداية الإلهية والرحمة تصيب من شاء الله كما يشاء الله.

حفظ القرآن يكون مادة أساسية في المدرسة الأساسية وما بعدها. ألم يكن ما مع المؤمنين من القرآن مقياسا للتقدم في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم؟ ألم تكن السورة يحفظها المؤمن وتحفظها المؤمنة كالوسام يفتخر به، وكالكنز يُسعى إليه، وكالمورد يأتي الناس عطاشا ليشربوا منه؟ حفظت سورة البقرة! حادثة ومزية تهمس بها الإسلاميات فيما بينهن اليوم، وفي غد الإسلام إن شاء الله يكون الحفظ شرطا للمرور والنجاح.

من القرآن يتعلم الأطفال القراءة والكتابة. ومنه يتضلعون من اللغة، نحوِها وصرفِها وبلاغتها. كان التلقين التقليدي على الألواح بركةً. لاشك. ومن قرأوا في الألواح وحفظوا يتميزون، لا يزالون، بالتمكن في اللغة العربية، لا كما يجرح اللغةَ ويخدِش وجهَها دكاترة ودكتورات ما فتحوا المصحف يوما. توضع أرقى وسائل التعليم المادية، وتوضع الخبرة التربوية أحدَثَ ما وصلت إليه العبقرية العلومية، في خدمة حِفظ القرآن. الله أعلم ما تصير إليه الأوراق والأقلام والتهجي الأبجدي في مستقبل سيادة الحاسوب. لكن التربية القرآنية، والمصحفَ كما نعرفه اليومَ، ينبغي أن تصل بين الأجيال المؤمنة لا أن تفصل.

نريد للأجيال الصالحة أن يزول، بالعِلْم لا بالتطاول، ما بينها وبين القرآن من فواصل الآثار، لتستقي من النبع جاثية أمام منبر الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة، تسمع وتتدبر وتجتهد وتطيع. لكننا لا نريد أن تفصل الإلكترونيات السريعة الطائرة بين أجيال الصلاح وبين ذخائر الفقه وعلوم السلف الصالح رضي الله عنهم.

واضع المناهج الدراسية، ومهندس المدرسة وبانيها، والأمهات الحواضر، والمعلمة المربية، يضعون نُصبَ أعينهم مواصفات الشخصية القرآنية المطْلوبِ تخريجها. هذه الشخصية تنجمع فيها العلوم حول نواة العلم، أي يُوجِّه فيها القرآنُ الإنسان.

فمن الخطوات الأولى إلى مدرسة الحضانة، وبستان البراعم، يُعَلّم التهجي من آيات القرآن وسوره القصيرة. ويُعَلّم الحساب من عدد ركعات الصلاة، ويُعَلّم

ضبط الوقت من مواقيتها. وتتفرع علوم الرياضيات والهندسة في مراحل أخرى من تحول الليل والنهار، ومن أنصباء الزكاة، ومن فلكيات الشهور وتغير مواقيت الظهر والعصر.

آيات اختلاف الليل والنهار ومطالع الشمس والقمر مدخل لدراسة الجغرافيا. قصص الأنبياء عليهم السلام مقدمة ومعيار لدراسة التاريخ. آيات الخلق والإبداع الإلهي فتح لباب الاطلاع على الكون المرئي من ساحة الغيب. آيات النبات والثمرات والأعناب والنخيل والرمان كتاب كامل لمعرفة جنات الدنيا وجنات الآخرة. آيات الخيل والبغال والحمير والأنعام امتنان إلهي على العباد يُفضي العلم به إلى البحث في الاقتصاد وعلوم الأحياء. آيات نشأة الإنسان في الأرحام من نطفة إلى علقة فمُضغة مخَلّقةٍ وغير مُخَلقة: تذكير بالخالق، وتَعجيبٌ للإنسان الذي أطفأت فيه الحضارة المادية العجائبية فطرة التعجب من وجوده. ثم هي منطلق لدراسة مقدمات علوم الأحياء والطب وتركيب الجسم وقواعد الوقاية والصحة.

في المدارس التي يديرها العقل المعاشي اللاييكي شتاتٌ من مواد لا رابط بينها. كونيات متبرِّجَة خلابة مشتتة لا مغزى لها وراء الكون المادي. تصنع هذه الأشتات شخصية معرضة عن الله مقبلة على الدنيا. ونحن نريد دراسة مخلوقات، تركيز مفهوم الصلة بين الخالق والمخلوق، تركيز ضرورة خالق للمخلوقات. تركيز عقلي يوطد في النفوس ما كانت التربية المبكرة غرسته عن طريق الحب الفطري والإخبار الفطري «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**». حديث نبوي، خطاب فطرة كان هو شعار الرسالة سمعه العرب من فم الرسول الكريم.

إن ثقة العقل الناشئ بالكَمِّ والمقدار والمعيار والقياس والتجربة والتحقيق من النتائج هي البِنية السليمة للعقل الذي يراد له اكتساب علوم اليوم والغد. هذا العقل الناشئ لا يكون مسلما فأحرى أن يكون من جند الله الـمُغيرين على دنيا العلوم إن لم تكن قراءته للكون قراءة نقدية من جانب طُور الإيمان بالله الخالق، وإن لم تكن يقظته العقلية مصحوبة مسبوقة بيقظة قلبية لا يحجبُ الخلقُ معها

الخالق. إن لم يكن خلق الله من إنسان وحيوان ونبات وبيئة وشيء براهين دالة على الله، وإن لم يكن احترام ما سخر الله من شيء، والتكوين الذاتي المستمر استجابة لـ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾.[1] آيةٍ أنزلها الله، وإن لم يكن تقييم سلوك النفس والَغير واستشراف المستقبل خاضعا لشرع أنزله الله، فتربَّصوا حتى يأتيَ الله بأمره. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

(1) سورة طه، 111.

تربية خلق جديد

عقّت وما بقّت امرأة قامت بوظيفة جسمها كَرْها ووهنا فألقت إلى الوجود أجساما، ولم تُؤَدِّ واجب عاطفتها وعقلها وإيمانها. أخرجت إلى الوجود جسما جديدا، فلما أرسلته همَلاً ساء عَملا، فهو غثاء بال وإن كان الجسم في رَيْعان الشباب.

أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها. وقرأنا في الحديث الشريف أن الإيمان يبلى في جوف الناس فيتجدد بذكر الله. رجاؤنا من الله وحاجتنا إليه أن يبعث من هذه الأجيال الصاحية والناس نيام، الغرباء في ديارهم، جيلا أوفى من جيل، ومائة أَرْبَى من مائة حتى يملأها الإمام المهدي عدلا بعد أن ملئت جورا، وحتى ينزل عيسى عليه السلام فيكسرَ الصليب ويحكمَ بشرع محمد صلى الله عليه وسلم، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين. ألا وَإن الأحاديث ضافية، تلك التي بشرتنا بأن طائفة من هذه الأمة لا يزالون ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله. وكان وعد الله مفعولا.

ومن سنته تعالى أن يَستبدل قوما بقوم، يخيس قوم بالعهد، أو يكفرون، فيذهب الله بهم ويأتي بقوم آخرين. ذلك بينته آياته الكريمة في مثل قوله عز من قائل: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾،[2] وقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ﴾،[3] وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾.[4] خطاب عام لبني الإنسان، لا تتخلف سنة الله محاباةً لقوم مؤمنين، فهم أيضا تحت المشيئة تخاطبُهم آياته الكريمة:

(2) سورة النساء، 132.
(3) سورة الأنعام، 90.
(4) سورة الأنعام، 134.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.[1]

الاستبدال من سنته تعالى، والمؤمنات والمؤمنون أسوتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي عفا عن قريش راجيا أن يخرج الله من أصلابهم مَن يوحد الله. ما الصحوة الإسلامية إلا بعث إلهي واستبدال متدرج. فالحمد لله الذي أذهب عنا الحزَن ببشائر مستقبل الإسلام، واجبنا أن نستقبل هذا الخلق الجديد بما له على المؤمنات والمؤمنين من حق الرعاية والتربية وحسن التوجيه. ذلك أن الهداية إن كانت منه سبحانه لا من غيره، فإنها تصيبُ من شاء على يد من شاء: **﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾**[2] قرارا من عندك، **﴿إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**[3] قدَراً وسنة من عندي. الهداية والتوجيه وتربية الشخصية لها أمومة وأبوة كما لخلق الجسم أمومة وأبوة. الخلق خلق الله، والهداية هداية الله، لكن الأم والأب يحسنان رعاية الجسد وتنشِئتَه أو يُسيئانها فتَقْوى بنيَتُه أوْ تضْوَى، ذلك مسؤوليتهما. ويتخذان للنفس الجديدة والعقل المتكون والقلب الفطري مأوىً حاضِنا فيصلُح عملا، أو يتركانه فيرعَى مع الهَمَلِ هملا.

ذلك ما أخبر به الحديث الشريف الذي رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مولود إلا يُولد على الفطرة. ثم يقول اقرأوا **﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾**». زاد البخاري في روايته: «**فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يُمجسانِه. كما تَنْتَج البهيمة بهيمةً جمعاء. هل تُحسونَ فيها من جدعاء؟**». الجدعاء هي التي قطع منها عضو. عند مسلم: «**فهل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها**».

(1) سورة المائدة، 56.

(2) سورة القصص، 56.

(3) سورة الشورى، 49.

الفِطرة الخِلقة. والحديث يخبر أن المولود الجديد يولد مسلما كامل الاستعداد لتلقي العلم بالله والقَبولِ، إنما تتناوله تربية الأبوين الكافرين فيحرفانه عن الإسلام ويهودانه وينصرانه ويمجسانه. أَستغفر الله العظيم قبلُ وبعدُ: أو يغَوّثانه. قياسا على أن التهويد والتنصير والتمجيس درجة قصوى من تحريف المولود، فالتغويث وهو درجة أدنى، أهوَنُ أن يَنالَ وبالُه المولودَ من فعل الأبوين. ويقاس كل مؤثر تربوي على الأبوين في مَسؤولية الحفاظ على فطرة المولودين أو تحريفها.

في رواية لمسلم: «**ما من مولود يولد إلا وهو على المِلة**». والملة الإسلام.

اندرجت مسؤولية المربين، من والدين أساسا، ثم مَدْرسةٍ ورُفقةٍ وجامعة، وهلُمَّ جَرّاً إلى كل ما يخاطب العقل ويناجى السِّرّ من مؤثرات البيئة، في مشيئة الله وقدَره. إن شاء سبحانه قيض علماء أجلاء مربين سماهم في زِمامِ اصطفائه حسن البنا والمودودي والندوي وقطب وسائر هؤلاء الأئمة الرافعين لِواء البشارة بغد الإسلام، المنيرين فجر الإسلام، هذه أشعته في طلعة أجيال الصحوة. تتلوها يقظة إن شاء الله فقومة.

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غِلا للذين آمنوا. ربنا إنك رؤوف رحيم.

خلق جديد أمام أعيننا يبعثه الله والحمد لله. طوبى لمن سارَعَتْ لتكون قدراً من قدر الله، تبرَأ من مسؤولية التغويث، لتقوم بواجبها التربوي كاملا، ذلك الشّكرُ لله على ما أنعم وهدى. واجب المؤمنة التربوي إزاء الخلق الجديد أن تستنير بالوحي وتعمَل عليه لتسير على بينة. وإلا فالشعارات المجدِّدَة تملأ الدنيا صياحا. ما من ثورة أو انقلاب أو تغيير حكومة أو بروز فلسفة إلا وصنع «الإنسان الجديد» بند في ميثاقها وثمرة مرجوة لبرنامجها.

فلكيلا يكون التجديد والخلق الجديد شعارا فارغا، نقرأ القرآن لنعلم ما موقع «الخلق الجديد» الذي تنوه به آيات الله من مجموع حركة الدنيا وعلوم الدنيا،

ومِن مآل الأخْرى وفلاح الأخرى. فرُب جديد ملأ الأرض عِياطا ما له عند الله من حسن مآب.

جاء ذكر الخلق الجديد في آيتين من كتاب الله: في سورة إبراهيم وفي سورة فاطر. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾.(1) جاءت الآيتان في سياق الحديث عن الأقوام الذين كذبوا الرسل، فأهلكهم الله وأسكن الأرض من بعدهم قوما خافوا مقامه وخافوا وعيده. استبدال الله بقوم كذبوا الرسل وهددوهم وخيروهم بين اتِّباع ملة الكفر أو يُخرجون ويُطردون. ما أشبه الليلة بالبارحة! وسنة الله غادية رائحة.

خاب الظالمون الجبارون في الأرض العنيدون. ويعرض القرآن الكريم علينا لوحة أخروية عن مصير الظلمة المستكبرين ومصير أذنابهم التابعين. الكل في جهنم. قال الله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.(2)

التربية الجديدة للخلق الجديد ما كان اتباعا للرسل لا اتباعا للمستكبرين الجبارين، ما كان خوفا من مقامه سبحانه ووعيده لا خوفا من بطش الجبارين. فالدرس من سورة إبراهيم هو أن التربية العلومية القرآنية إن هذبت العقل ونورت القلب تُكمَّلُ بالتربية الروحية، أي التزكية التي تصقل الفطرة وتُسْكِنُ في النفس مخافة الله فيَهون كل مَن عليها في عين جند الله، وينبري جند الله للقاء موعود الله. سنتُه ووعده، واستقامة على سنَنِ من كُذِّبوا فصبروا، ونصروا الله فنُصروا.

وفي سورة فاطر يقول الله عز وجل مخاطبا الناس جميعا ببلاغ سنته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾.(3) كيف يعزّ على قدرته ويمتنع وهو سبحانه بيده ناصية كل شيء!

(1) سورة إبراهيم، 22.
(2) سورة إبراهيم، 23.
(3) سورة فاطر، 15-17.

الآيتان توسطتا بين تبكيت المشركين الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى يعبدونها من دونه، ويعطونها ولاءهم، ويهيمون فيها مع أنها لا تسمع دعاء ولا تستجيب لدعاء، وبين قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.[4] قوم جاهلون يعبدون من دون الله أوثانا وإفكا، هُدِّدوا بسنة الله تقضي عليهم وتأتي بخلق جديد، وذُكِّروا بالمسؤولية عمّا يصيبهم من نقمة الله في الدنيا والآخرة.

إلى الوعي الشامل الكامل تدعونا آيات الله لكيلا تقذِف بنا خارج مجال الإيمان عواصف المذاهب الجديدة المشركة الغافلة عن الله، الهائمة الـمُهيَّمة بأفكار العصر وتحاليله المادية الأرضية التي لا يذكر فيها خالق ولا مخلوق ولا مصير خارج التاريخ وبَعد التاريخ. الدين أنين!

تُجَدِّدُ المؤمنة إيمانها بذكر الله، وتتلو آيات الله غُدُوّا وعشيا، وتحفظ منها ما تيسر، وتتغنى بها وتجوِّد، حتى تنقشع عن سماء روحها وعن آفاق عقلها عوارض العذاب الأليم لِتُمْطِرَها سحائب الرحمة. حتى تُطردَ المسلَّماتُ الكفرية الدوابية وما تتداوله حاطبات الليل من ثقافة عالمية جف منها الإيمان. وحتى تستقيم لها الوِجهة سالكةً في الدنيا وتعاريجها، ماضية من الدنيا للآخرة. وحتى تكون قاعدةُ التفكير، ومرجعيةُ العلم، الوحي الحق، الحق الوحي، لا الفلسفات المادية التاريخية المشركة.

قال ماركس قولته وانسحب إلى جهنم، وهذرت الثورة الماركسية اللينينية هذَرها التاريخي وماتت. وبقيت الفلسفة الملحدة تقول على لسان اليهودي المؤسس: «إن الدين هو أنين الكائن المضطهد، وقلب العالَم عديم الرحمة، وحِس الظروف القاسية، إنه أفيون الشعوب». وتتلمذ السوسيولوجي والمؤرخ والمثقف عامة على القولة صراحة أو ضِمْنـًا إن لم يكن ماركسيا قُحّـًا، فحكم أن الدين الشعبي وما تجد فيه من قبور ومزارات وزوايا إنما هي بحث عن حلول للمشاكل الاقتصادية المعاشية النفسية.

(4) سورة فاطر، 18.

وحكم أن الصحوة الإسلامية تَعِلّةٌ تستعملها الطبقة الفقيرة المهمشة للتخفيف من آلامها. وحكم أن الحيوية الدينية تعبير عن أزمة، ووسيلة للتنفيس عن غمة، والتخفيف من صدمة. إن كانت الصحوة إسلاما ثوريا فهو والتدين الشعبي بمزاراته وقبوره تعبير واحد، وأنين واحد، ورفض للواقع وهروب منه.

الدين صرخة المضطهدين، وآلية لتحريك الجماهير. والباقي خيال ومرض نفسي، ومخدر وأفيون.

ماتت الماركسية مشروعا ثوريا بعد أن بثت فلسفتُها في شرايين عقول المثقفين مبادئ الجدلية التاريخية. كلمة «ثورة شيوعية» هي في أذن التاريخ أَبْرَدُ من يَخّ! ما أسرع ما تراكم غبار المقت على ثورة فشِلت وسقطت وتسولت الخبز بعد أن وعدت بمستقبل جديد للإنسانية، وصنعت إنسانا جديدا في الجولاج وفي أوساط الحزب الشيوعي الراكع -كان- عند قدمي ستالين.

سقط ذلك الجديد الكاذب، لكن الفلسفة المادية الإلحادية الدَّهرية، باقية عاتية متلثمة أو سافرة، تتعايش مع الثقافة الهوليودية المائعة جنبا إلى جنب في فكر من يُنازِعْنكِ يا أخت الإيمان أمومة الجيل وتوجيه الجيل وتربية الجيل. وعلى الله قصد السبيل.

تربية حَكيمة

قطَع أبونا إبراهيم عليه السلام ووصل. أنتِ على ملتِه وهو لك أسوة حسنة، تقطعين مثلما قطع وتصلين. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.(1) تبرأ من أبيه لما تبين له أنه عدو لله، وتبرأ من قومه لما أصروا على عبادة الأصنام. فهذا قطع ومقاطعة لمحرِّفي الفطرة. وأعلن تعلقه بفاطره الذي سيهديه، وجعل كلمة التوحيد وصية وتراثا في عقبه يتوارثونها من بعده سليمة. فهذا وصل.

وأخبر الله تعالى عن كاسر الأصنام عليه السلام مقيم الفطرة قال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.(2)

هكذا الأبوة الصالحة، والأمومة أيضا: كلمة باقية في الأعقاب مورِّثة لسلامة الفطرة، ما هي إنجاب جسوم فحسب. أوصى إبراهيم بنيه وأوصى يعقوب في حياته وعند وفاته. وسألهم واستشهدهم. ما أحرقت النار إبراهيم عليه السلام، وما منعته أن يبلغ رسالة ربه، فخص بالتبليغ وعَمَّ، لذلك اختاره الله تعالى لنا أبا وسمانا الله بما سمانا به أبونا: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ﴾.(3)

(1) سورة الزخرف، 25-27.
(2) سورة البقرة، 129-133.
(3) سورة الحج، 76.

سمانا الله، وسمانا أبونا في دعائه: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1]. ودعا الأبُ عليه السلام ربه أن يبعث في ذريته رسولا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[2]. فكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يقول: «**أنا دعوة إبراهيم**».

فعلم إبراهيم إعادة الفطرة إلى سلامتها، نتلو في كتاب الله وصيته ووصية يعقوب عليهما السلام. وعلم محمد صلى الله عليه وسلم آيات الله ومنهاج التزكية وعلم الكتاب وأسلوب الحكمة ومضمون الحكمة. وهكذا تتأسيْن أُختَ الإيمان بالرسل عليهم السلام لتقطعي بحكمة التأثير السلبي لرائدات المزارات والقبور، وارثات الخرافات من الجدات والخالات، ولتكسري أصنام التأثير الإلحادي، ولتدفعي من ينازعونك في أمومة الجيل.

ما فعل المعلم الاستحماري المخلص لرسالته اللاييكية، وما فعل نسله الثقافي مِن بني جلدتنا من بعده، فَعْلَتَهما بإسلام البنين والبنات إلا لأن الأمومة كانت مجدوعةَ الأنف معوقة بالجهل والأمية، ولأن الأبوة كانت مشدوهةً أمام الغزو الاستعماري العسكري. وهذا أوانُ جهادِك. ومَناطُ مسؤوليتِك أن تقاومي الغزو الفكري المستمر وتُصلحي العمل وتصوني الفطرة.

إن نوعية الصلة في الأسرة بين الوالدَين والمولودِين، وصِدق التوجيه، وحنان المشفقة والمشفق على البنات والبنين ينبغي أنْ تعكس روح الوَلاء لله رب العالمين، والبَراءِ من أعداء الله المارقين. ما لهذه الأجيال المضيّعة لا تكاد تميز بين الحق والباطل، بين الشرك والإيمان؟ انقطع حبلُ فصِليه، وتَلوثت بيئة فطهريها.

وانقُلي روح الوَلاء والبراء إلى موطن تكميل التربية، إلى المدرسة. لتكون الصلة بين المعلمات والتلميذات، وبين الأستاذات والطالبات صلة تآمر

(1) البقرة، 127.
(2) البقرة، 128.

بالمعروف، وتناهٍ عن المنكر، وتواص بالصبر. تبعثين إلى المدرسة والكلية والمعهد نشأ حيا يحمل رسالة، ويناقش، وينتقد، ويدعو، ويشارك المشاركة الفعالة الأساسية في تغيير جو معاهد التعليم.

وتعملين -ينبغي أن تكون لكِ كلمتُك- على أن تسودَ في المدرسة والمعهد والكلية الصلات النوعية بين المعلمين والمتعلمين، محفوفة بالمودة وآداب الصحبة من توقير الصغير للكبير، ورحمة الكبير بالصغير. «**ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحَمْ صغيرنا**». حديث شريف. آباء وأمهات في المدرسة بدَلاءُ عن أمهات البيت وآبائه.

يتعرف المعلمون على المتعلمين اسما وأصلا وأسرة، ويتفقدون الأحوال، لا يكون المتعلمون أرقاما ومِلفات. لا يكون القمع والمراقبة والاستعلاء. لا تتكبر المعلمة الدكتورة بعلمها، فالعلماء بحق يُعرفون من تواضعهم. استمالة القلوب الغضة فن، ورفع الكلفة في نطاق الاحترام المتبادل سياسة رقيقة. والمعلم الحكيم والأستاذة الفطِنة يجد عندهما الطالب والطالبة أذْنا صاغية وقلبا مفتوحا ونصيحة حكيمة في الفترات الحرجة والأزمات الطارئة. تجد الطالبة ويجد الطالب توجيها حكيما ليستوعِبَ في سلوكه العملي ما يستجد عنده من معلومات، وليتحسن خلقه باتساع مداركه. لا كَمَثَلِ الحِمار يحمل أسفارا.

صناعة جيل لمستقبل حياة أمة ينبغي أن تعتمد على تحرير التلميذ والطالبة من عقدة القصور أمام أستاذ يعلم كل شيء. تُنمّى طاقات الجيل ويُفتح الصدر، ويفتح المجال للمناقشة والمجادلة والاحتجاج بأدب لتكبَر الشخصية الحرة المسؤولة. وإلا فالفظاظة من جانب المعلمين، والقمع السياسي من جانب الدولة، عصاً لا تربي إلا الحمير. وعلى رأس الضارب تعود الضربة.

«**إنما بُعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**». حديث شريف. ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾.[3] قرآن كريم.

(3) سورة النحل، 125.

قرأنا الحكمة مُجملة في وصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام. ونقرأها مفصلة في وصية لقمان، عبدٍ آتاه الله الحكمة، فهي تُتلى في كتاب الله عشرَ وصايا: يا بنيَّ لا تشرك بالله، والوصية بالوالدين، ومراقبة الله عز وجل، والصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على المُصاب، والتواضع للخلق لأن الله لا يحب كل مختال فَخور، والقَصد في المشْي، والغض من الصوت لتكون يا بُني من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وَإِذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما. إن لم تكن من عباد الرحمن وترفع الصوت افتخارا وتعصبا فإن أنكر الأصوات لَصَوْت الحمير.

قرأنا الحكمة التربوية مجملة ومفصلة، ونقرأها مطبقة في عمل سيد الحكماء محمد صلى الله عليه وسلم. تَقرئينها لتعضي عليها بالنواجذ، وتتخذينها دينا لتقطعي آثار المعلم الاستحماري المخلص، وآثار ما يفعله المخلصون للطاغوت ضعفين من بنات جلدتنا وبنيها، ولتصلحي ما يفعله إخوة يوسف بيوسف يلقون الجيل في غيابات الجب. الحكمة حنان ومحبة ورفق بالجيل.

روى الشيخان وأصحاب السنن عن أبي هريرة قال: «قبّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسَن بنَ علي، وعنده الأقْرَعُ بنُ حابِسٍ التميميُّ. فقال الأقْرع: إنّ لي عشرة من الوَلَد ما قبلت منهم أحدا. فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: **مَن لا يرحم لا يُرْحَم**». وقالت أمنا عائشة: جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنكم تقبلون الصبيان ولا نقبلهم! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أَوَ أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك!**». أخرجه البخاري ومسلم.

وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من عال جاريتين حتى تبلُغَا جاء يومَ القيامة أنا وهو. وضم أصابعه**». رواه مسلم عن أنس. ووصى صلى الله عليه وسلم قال: «**ما نَحَلَ والدٌ ولدا من نَحْلٍ أفضلَ مِن أدبٍ حسن**». حديث مرسل رواه الترمذي عن سعيد بن العاص رحمه الله.

رحمة مؤدبة قست قلوب وكلّت عقول عن بذلها لَمّا نزع الله الرحمة من القلوب والحكمة من العقول. كان للأقرعِ أليفِ الجاهلية الأولى عشر من الولد. ومعنا اليوم بين ظهرانينا ولَدٌ غثائي كثير مغطوس هو والوالدان في مجتمع الكراهية والبؤس، فما في قلب الأمهات البائسات من بقايا الفطرة الرحيمة يئن مُوجعا. وما من حكمة ينطق بها ناطق مخافة سَلْق ألسنة حِداد فقيهة ومتفقهة تقول: تحديد النسل حرام، ومؤامرة من أعداء الإسلام لقطع نسل المسلمين. لو كان لنا من الفقهاء مربون، ومن المال بسطة، ليَكثُر نسلنا كمّاً ويصلُح نوعا! ثم لا تعوض الأمومة المربية أبدا.

أمهات بائسات مكثرات لهن أنين، وأخرياتٌ مترفاتٌ ينتظرهن مصير الأم الغربية والأب الغربي إن كان بقي ثَم للأمومة والأبوة وجود ومعنى. تربي الشقراء والسمراء كلبا يضربه المغَص فتتوجع، وتَعْرَج سلحفاة البيت فيؤرقها الألم على بنتها، وتدخل البيت فتناغي السمكة الحمراء بعد أن ودعتها خارجة.

يا حكمة الله!

حب البنين والبنات واللطف بهم ونَحْلهم النِّحلة -وهي العَطية- الحسنة سنة مؤكدة. قال البَراء بن عازب: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن بن عليٍّ عَلَى عاتقه يقول: **اللهم إني أحبُّه فأحبَّهُ**». رواه الشيخان والترمذي. وعند الترمذي عن عبد الله بن عباس قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حامِلاً الحسَن بنَ علِي على عاتقه. فقال رجل: نعم المركب ركبت يا غلام! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **ونعم الراكب هوُ!**». وأخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: «خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة من النهار، لا يكلمني ولا أكلمه، حتى جاء سوق بني قينقاع. ثم انصرف حتى أتى مَخْبأ فاطمة (مخدعها وبيتها) فقال: **أثَمَّ لُكَعُ**؟ (لكع اسم تصغير وتحبب ورحمة) -يعني حسنا- فظننّا أنهُ إنما تحبِسه أمه لأن تغسله أو تُلبسَه السِّخَابَ (قلادة من قرنفل ونحوه). فلم يلبث أن جاء يسعى حتى اعتنق كل واحد منهما صاحبه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **اللهم إني أحبه فأحبَّه وأحبّ من يُحبه**».

وحدّث أسَامة حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وربيب بيته قال: «طرقت النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة في بعض الحاجة، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو (أي حمل ذلك الشيء وخبأه تحت شملته التي تلُف جسمه). فلما فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه؟ فكشفه فإذا حسن وحسين على وَرِكيه. فقال: **هذان ابنايَ وابنا ابنتي. اللهم إني أحبهما فأحبَّهما وأحِبّ من يحبهما**». رواه الترمذي. وروي عن يَعْلى بْنِ مُرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**حسين مني وأنا من حسين. أحب الله من أحب حسينا. حسين سِبط منَ الأسباط**».

وروى الشيخان وغيرهما عن أبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي وهو حامل أُمامة بنت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم من زوجها أبي العاص بن ربيعة. فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها.

غاية ما يكون العبد في ذكر ربه أثناء الصلاة. لا يستطيع أحدنا أن يقبل على ربه والصبية المحبوبة على عاتقه. لكن فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم -وهو أتقى الناس- لينظر ناظر أيّ مَرْقىً ترقاه البنات. وروى البخاري عن أسامةَ بن زيد: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذني فيقعدني على فخذه، ويُقعد الحسن بن علي على فخذه الآخر. ثم يضمنا، ثم يقول: «**اللهم ارحمهما فإني أرحمهما**»».

اللهم ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيِّئ لنا من أمرنا رشَدا. وآتنا حكمة.

تربية واقية

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.[1]

تحذير من المولى عز وجل وتكليف وتخويف. لا يَد لأحد يوم العرض بوقاية أحدٍ من بطش الملائكة الغِلاظ الشداد ومن بطش ربنا الشديد إلا شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم أو شفاعة رسول ونبي وصالح وصالحة من المؤمنين. الوِقاية من فِعل ما يبعد من الله ويُقرِّبُ من غضب الله يكون إبّانها يومئذ قد فات. إبانها هنا في الدنيا. ووسيلتها التربية على الاستقامة وحفظ الأمانة التي أودعها الله عز وجل بين أيدينا من هذه المولودات التي خلقها على الفطرة ونسب إلينا مسؤولية ما يصيب الفطرة من تشوه وانحراف من جراء إهمالنا.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله في الإحياء: «اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها. والصبي أمانة عند والديْه. وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذَجَةٌ (أي سليمة صافية بريئة) خالية من كل نقش وصورة. وهو قابل لكل ما نُقِش، ومائل إلى كل ما يُمال به إليه. فإن عُوِّد الخير وعُلِّمَهُ نشأ عليه، وسعِد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدِّبٍ».

قلت: شاركاه في ثوابه حيثُ أصلحا فيه عملا فكانا سبب استقامته بما هدَيَا وربيا، ثم يجنيان ثوابا لا ينقطع بدعائه ودعاء مَن بعده من ذرية صالحة حسية أو معنوية تدعو الله تقول: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾.[2] المعلمة والمعلم أبوان للروح والمعنى.

قال الإمام رحمه الله: «وإن عُوِّد الشرَّ وأهمِل إهمال البهائم شقي وهلَك، وكان الوِزْر في رقبة القيِّمِ عليه والوالي له. وقد قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا

(1) سورة التحريم، 6.
(2) سورة الحشر، 10.

أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾[1]. ومهما كان الأدب يصونه عن نار الدنيا، فلأنْ يصونَه عن نار الآخرة أولى. وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفَظه من القُرناء السوءِ. ولا يُعوِّدَه التنعُّم، ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمرُه في طلبها إذا كبِر فيهْلِكَ هلاكَ الأبد».

قال رحمه الله: «بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره، فلا يستعملَ في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال. فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه. فإذا وقع عليه نُشوءُ الصبي انعجنت طينته من الخَبث، فيميل طبعُه إلى ما يناسب الخبائث».

قلت: من يتكلم في زمننا عن الشبْهة واللقمة الحرام؟ عمت الفتنة المجال السياسي والاجتماعي والمعاشِيَّ، فالدرهم درهم وكفى. والطين البشري انعجن بالموجود. وقانا الله الشر، وصنع لنا حتى يتميز الخبيث والطيب، ورزقنا حلالا.

أكل الخبيث ومخالطة الخبثاء. كلاهما تغذية لنفوس الصغار والكبار بالسموم المهلكة. يقول الإمام رحمه الله يَحث على استنكار السلوك المنحرف وذمه وحفظ الصبي منه بحفظه: «عن مخالطة كلِّ مَن يُسمِعه ما يُرَغِّبهُ فيه. فإن الصبي مهما أُهْمِل في ابتداء نشوئه خرج في الأغلب رديء الأخلاق كذابا حسودا سَروقا نماما لَحوحا ذا فضول وضحك وكِيادٍ ومَجانةٍ. وإنما يُحفَظ عن جميع ذلك بحسن التأديب، ثم يُشغَّلُ في المكتب، فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالَهم لينغرس في نفسه حب الصالحين. ويُحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله. ويُحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظَّرْف ورِقة الطبع. فإن ذلك يغرسُ في قلوب الصبيان بَذْر الفساد».

تَرْجِمِي أخت الإيمان التربية الوقائية الغزالية إلى لغة العصر واقْرئي حفظ الصبيان والغلمان والفتيان من تيار الإباحية. واقرئي ضرورة تعويض الأدب المنحل والشعر المعتل بأدب إسلامي يُذكر فيه الصالحون والصالحات من

(1) سورة التحريم، 6.

النماذج لا هذه القصص والروايات المائعة التي تُفْحش أشدّ الفُحش فتصفق لها من أرض الفحشاء أكاديميات تضع الأكاليل والجوائز على جبهة الفنان الأدبي العبقري من بني جلدتنا، ويُترجَم هوَسه إلى عشر لغات.

قال الإمام رحمه الله: «ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يُكرَم عليه ويُجازى عليه بما يفرح به. ويُمْدَح بين أظْهُر الناس».

قلت: وها قد وضعَنا الغزاليُّ على ناصية الطريق في «رياضة الصبيان». الترويض معالجة العضْو الحي، والغصن اللين ليستقيم على شكل نرتضيه. لا يبقى حيا لينا غصن أصابَهُ الحريق فتخشب وتفحَّم، أو أصابته الجراثيم فاهترأ.

يُشجَّع الصبيان والغلمان والفتيات على كل حميد من الخلق وجميل من الأفعال مما يقربهم إلى الله ويبعدهم من غضب الله. الصلاة، والقرآن، والرحمة بالضعيف، والنظافة، والصدق، والحياء. الحياء أبو الفضائل، الحياء من أهم شعب الإيمان. الحياء وقاية ذات حدّين: حياء من الله وانكماش عن فعل يكرهه الله، وحياء توقير واحترام وأدب ولياقة. فتلك الفضائل. أو ينقلب الحياء على صاحبه فتصبح العافية داءً، وذلك الخجل، قاتل الفضائل.

يربى الصبيان والناشئون على حب الله، والحب في الله، والبغض في الله، والشجاعة في الحق، ونصرة المظلوم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعزة على الكافرين تزَينها الذلة على المؤمنين، وذكر الله المستديم، ودعاؤه سبحانه، والتوكل عليه إقداما وَعملا جادا، وامتلاك النفس عند الغضب، وحفظ اللسان. إلى سائر شعب الإيمان ومنورات الإحسان.

تلك نبذة من الوِقاية النفسية القلبية الروحية ليُحفظ النشء من بطش الملائكة الغلاظ الشداد يوم القيامة. والوقاية الجسدية حفظ للأرض التي تُنَمَّى فيها الغرسة. إنْ مَرِض الجسم، وأُهْمِل، وضربته العاهات، فماذا تربين؟ من الأمهات مَن يَرْعين الجسم أحسن رعاية ويتركن تربية النفس والخلق لغيرهن جهلا أو تجاهلا، أو بمنطق التكاثر الغثائي، ما لها وقت ولا

قدرة على بذل غيرِ الضروري لحياة الأجسام وبقائها من غسل وتغذية وكدح لكسب لقمة العيش.

ومن الأمهات من لهن مال ووقت، لكن مَوَات الإيمان في قلوبهن، واكتئاب الإنسانية في نفوسهن، يؤدي بهن إلى إهمال التربية الخلقية الإيمانية في النشء، فيُهمل إهمال البهائم.

للوقاية الجسمية مكانها وأهميتها. تواكب الصحة الجسديةُ الصحةَ النفسية القلبية، أو يقع اعتلال النفس لاعتلال البدن. كما تتعاون الأمهات المؤمنات في مجال الدعوة، يتعاونّ في مجال تنشئة الصبيان. المنقطعة من الأمهات لا تجري إلى بيتها روافد المعرفة وفوائد التجربة. تقتني المعرفة ممن سبقنها بأمومة، وتحضر مجالس خاصة، ومحاضرات. وتقتني كتبا ومجلات لتكون مطلعة على أعلى مستوى مما تصل إليه الخبرة البشرية في علوم طب الأطفال وفن تربية الأطفال. فذلك قدْرٌ مشترك بين أمهات العالم. أعني تعهّد الجسوم وتطبيبها. وأعني مشاركة الأمهات المؤمنات واطّلاعهن على الأمور التطبيقية العملية، لا أن يصبحن في مرتبة الطبيبة المتخصصة التي ينبغي أن تتفضل في كل جلسة إيمانية تحضرها ببذل بعض ما عندها من علم.

صحبة بين أمهات، وطبيبة ناصحة من الأخوات المؤمنات، وكتب ومجلات، ليكون الحمل ووَحمه وغِذاء الحامل وراحتها وغثيانها وتوعكاتها مما تعلمه الأم الجديدة لا مما تتوهمه وتتوجس منه خيفة. وليكون الوضع وآلامه والعناية الأولى بالمولود أوضاعـًا تدربت عليها. ثم ليكون الرضاع طبيعيا، والتلقيحات الطبية في مواقيتها مضبوطة، ثم لتعلم الأم الأهمية القصوى لنظافة حواس المولود وأعضائه ولباسه وأواني غذائه ومضجَعه وملعبه ولُعبه.

تصاحب الأم نمو المولود، وتراقب حركاته وهو يحبو، وجسمه ينمو، وعقله يتكون، ولسانه ينطلق. لقنيه لا إله إلا الله لتكون أول ما يلفظ به عسى بركتها تجري عليه مدى عمره.

تراقب الأم سلوك الطفل وعوارض مرضه لتتدخل الطبيبة المختصة إن كانت الأم طبيبةُ البيت قد تجاوزتها الأحداث.

تُعوِّدُ الصبيَّ نظافة الأسنان من لَدُنْ قيامها بذلك عنه يومَ بروزها إلى أن يستقل بتسويك نفسه مستقلا، وتلك سنة نبوية مؤكدة أشد التأكيد، من تخلى عنها صغيرا أو كبيرا تلِفَتْ مع أسنانه صحته، وتأذّى من بَخَرِه الملائكةُ والناس.

النظافة المبكرة تنتظر الأمُّ أن يحملها عنها المولود حملا متدرجا. فإذا بلغ السابعة فالطهارة والوضوء والصلاة ترغيبا وتحبيبا. وقاية الجسم مع وقاية الروح تجتمع. قاس أطباء فرنسيون المياه التي تُفاض على الجسم في وضوء المسلمين ثلاث مرات، فوجدوا أن الغسلة الثالثة لا تبقي من الجراثيم شيئا. وما يُخرجُهُ الوضوء من خطايا النفس لا يَقَع تحت مِجهر الأطباء. ويخبر عنه الوحي من كلام النبوة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «**أرايْتُم لو أنّ نَهْرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، ما تقولون ذلكَ يُبْقِي مِن دَرَنه**؟ قالوا: لا يُبْقِي من دَرَنه (وسخه) شيئا. قال: **فذلك مَثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا**». رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة.

دَرَنٌ حسي يُغسل في النهر مثّل به رسول الله صلى الله عليه وسلم لدَرَن القلوب يغسلها الوضوء وتغسلها الصلاة.

تراقب الأم مولودها مراقبة دقيقة بعناية ودراية. المحبة بلا دراية كساعٍ إلى الحرب بلا سلاح. ومن لا دراية له ولا محبة فتوكيله على الأطفال كتوكيل الثعلب على الدجاج. الأطفال في أيدي الخدم كارثة. ومن أنواع الخدَم المأجورين محاضن رِبْحية تغدو الموظفة الكادحة بفلذات كبدها إليها لما ترى من زخرفة الإعلانات ولباس «المربيات» ولُعَب الساحة. من أهم ما تندب إليه المؤمنات أنفسهن إنشاء محاضن تعمل فيها أمهات متطوعات صالحات يُصلح حضورهن ومراقبتهن ومِثالُ إخلاصهن وإشعاع إيمانهن ما تميل الأيدي الأجيرة لإهماله وإفساده.

ومن أهم ما تندب الأمهات الصالحات والآباء الصالحون إليه أنفسهم إنشاء جمعيات من الطبيبات المحسنات والأطباء والفضلاء لرعاية الشباب وتوجيهه في طور المراهقة. طور يحتاج فيه الشاب وتحتاج الشابة من ينصح ويزود بمعلومات دقيقة عن كنه الثورة الجسدية وانقلاب الكيان البيولوجي. يحول الخجل وتحول العادة دون تلقين الأبوين معرفة البلوغ والمراهقة ومشاكلها. فالجمعيات الطوعية تنوب فيها أم عن أم في ترشيد البنت، وينوب أب عن أب في ترشيد الابن. ثم الكتب يؤلفها الطبيب المؤمن وتوضع في يد المراهقين تيسر وتبصر. من مآسي غياب التربية الجنسية الوقائية فظائع ليلة الزفاف. كان يغني عن المآسي كتاب، إن كَتَمَ العلمَ مُجَرِّبٌ وعَزَّ ناصحٌ وخَجِلَ الطالب والمطلوب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفصل العاشر

حظ المؤمنات من الجهاد تعبئة أمة

- خير نساء طلعت عليهن الشمس
- مجاهدات
- راعية ومسؤولة
- جدال فقهي
- «أطوع الناس في الناس»
- بنو آدم الخطاؤون التوابون
- «دعوا لي أصحابي»
- خشية الله ومحبة رسول الله
- بسط الدنيا
- دروس تربوية
- خاتمة

خير نساء طلعت عليهن الشمس

لِمَ الالتفات إلى الوراء والتقدم خط مسْتقيم، والإنسان يتطور من المجتمع البدائي إلى... سؤال واعتراض تورده كل نفس حيوانية سكنت في جسد بشري. انتهى الرقي الحضاري في نظر هذه النفوس إلى زمن يحكمه المال والاقتصاد والحركة السريعة للتكنولوجيا الإله صنعها العقل الإله، فَفِيمَ ذِكْرُ أولئك القوم البُسطاء البدويون البدائيون؟

لو كانت الدنيا مَحطَّ الرحال، والرفاهية المادية هي الغاية التي من أجلها وجد الإنسان لكان النموذج راقصة حسناء مغنية في عواصم الغرب تعبدها الجماهير، وتنهال عليها الأموال، وتحظى بالاحترام، وتنعم بملذات الحياة تَعُبّها عَبا. أمّا والإنسان أوجدَه غيره، ما وُجِد من ذاته. أمّا والراقصة الممثلة الناعمة تنتحر يوما بعد أن شربت كأس الحياة حتى الثُّمالة فكرهت الحياة، أمّا والحضارة الصانعة آلة عملاقة تدير الإنسان حول أصبعها من حيث يظن هو أنه المحرك، أمّا والتقدّم الخطيّ يُفقد الإنسان معناه كلما تقدم به منطق الآلة، فإن النموذج الماديَّ المتمثل في بنت رائعة المظهر من بنات الدنيا، مُتخمة من لذات الدنيا، إنما هو مثال لتقهقر الإنسان، وشقاء الإنسان بمكتسباته المادية.

الإنسان المثال يُبحثُ عنه بين من تَلقوا العلم بما هو الإنسان من أناسيَ ليسوا كسائر بني الإنسان، هم الرسل عليهم السلام، خلفاءُ الله، أحباء الله، خيرُ بشر طلعت عليه الشمس. يبحث عن النموذج المثال بين من تلقين من رسل الله العلمَ بأن الروحَ تبقى بعد الموت خالدة، تحشر في نشأة أخرى، وتبعث، وتعرض، وتُجزى، فتخلد في الجنة على درجة من الكمال، أو تلقى في النار حصَباً لها وحطبا.

إلى النماذج الكاملة من بنات البشر تشرئب أعناق المؤمنات، وإلى جهاد يُلحقهن بهن -على درجة من الكمال- يتعبأن ويعبِّئن أجيالا. باحتذاء النماذج

الأكمل، وهم الرسل عليهم السلام، وبصحبتهم والاتصال بهم أمهات وزوجات وبنات، نالت مريم وآسية وخديخة وفاطمة وعائشة كمالهن. أَفَأَنْ كانت تلك الكوامل يَخْتَرِفن من تَمْر النخل طعاما، وتعتبر إحداهن مدين من الشعير مَأدبةً، ويَسْكُنَّ بيوتـاً يقف الغلام فتبلغ يدُه سقفها، ويلبسن الخشِن، ويركبن الإبِل لا الطائرات والصواريخ، يطغى علينا الميزانُ الماديُّ فنطرح في الاعتبار الإيمان بالله وباليوم الآخر، وطهارة القلوب وسموّ الخُلُق، والقرب من الله عز وجل وهو غاية الغايات؟

إلى النماذج الكاملة تشرئب أعناق المؤمنات والمؤمنين. إلى مريم ابنة عمران وصويْحباتها في مقعد صدق عند مليكٍ مقتدر. وإلى الأكملين المرسلين تَرْنُو أعين المؤمنات والمؤمنين، تتعلم الأجيال أن تقتحم، سِباقا مع أبناء الدنيا، عقبات كسب القوة في الدنيا، وعين القلب على من جعلهم الله لنا أسوة. تلك التعبئة الجهادية وحدها تَعزّ بها الأمة، ويشرُفُ بها مثوى المؤمنات والمؤمنين في جنات ونهَرٍ في مقعد صدق عند مليك مقتدر. اللهم ألحقنا بالصالحين.

ذكر رسول الله عيسى عليه السلام في القرآن خمسا وعشرين مرة: تِسعَ مرات باسمه المجرد، وست عشرة مرة بنسبته إلى مريم. عيسى بن مريم عليه السلام رسول المعجزات الخارقة. يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى وينفخ في هيأة طيْر من الطين فيكون طائرا. كل ذلك بإذن الله، وجرْيا على سنة الله في تأييد رسله بالمعجزات. وأعظم معجزات سيدنا عيسى عليه السلام ميلاده: وضعته أم معجزة، أم عذرَاء، عذراء ناداها الملَك كما ينادي الأنبياء، وبشرها كما يبشرهم، ونفخ الله فيها من روحه كما نفخ في آدم خليفته في الأرض.

مريَم هِبة الله لعمران وامرأة عمران، صالحان أنجبا صالحة. وكفلها الأصلح سيدنا زكرياء عليه السلام. ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً﴾[1]. طفلةً كانت والكرامات تظهر على يدها، أعظمهن لزومها المحراب والعبادة.

(1) سورة آل عمران، 37.

مريم المحراب، مريم الطُّهر، مريم نجيةُ الملائكة، مريم المصدقة بكلمات ربها وكتابه، مريم القانتة. ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.[2]

ذهب بعض أهل العلم إلى أنها نبية. والمهم أن تعلم النساء، وتوقن المؤمنات، أن الله عز وجل كما يصطفي من الرجال عبادا يصطفي من النساء إماء، وأن باب كرمه مفتوح للمرأة كما هو مفتوح للرجل، وأن طاعتَه سبحانه وعبادته والقنوت إليه والجهاد في سبيله هي الأعمال التي تشرف بها المرأة ويشرُف الرجل لأنها أعمال خالدة، تموت الحضارات ويبعث الخلق فرادى ما يجدون عند مولاهم إلا ما قدموا.

طاهرة مصطفاة أخرى أخرجها الله عز وجل من بيْن فرثٍ ودمٍ لتعلم المؤمنات أن الصلاح الأخروي ما هو وقْفٌ على من ولدهن صالحانٌ وكفلهن أصلح وتزوجهن رسول. هي امرأة فرعون. ذُكرت في القرآن بحيثيتها في بيت جبار، لم تُذْكَر باسمها. كافر متأله مفسد في الأرض عالٍ فيها، ما ضر امرأتَه فجورُه وإجرامه. كذلك المؤمنة، عاشت في كنَف صالحين، في زمن صالح، أو نشأت في عصر سادت دنياه حضارة مجرمة، لا يرفعها ولا يحطها إلا عملها.

رقَّت امرأة فرعون للصبي موسى لما ألقى به اليم والتقطه آل فرعون. ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾[3]. ونجا موسى الصبي، وكبِر موسى الغلام في بيت عدو الله. ربته ولية الله ورحمته، وتعلمت من موسى النبي الرسول كلمة الهدَى ودين الحق كما تعلم ذلك منه بعض آل فرعون. وضرب الله بها مثلا للمؤمنات كما ضرب مثلا بمريم. ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ

(2) سورة آل عمران، 42-43.
(3) سورة القصص، 8.

الظَّالِمِينَ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾.[1]

إن لم يُذكر في القرآن من الكاملات غير مريم وآسية، فقد ذَكَر الوحي على لسان محمد صلى الله عليه وسلم نماذج كاملة ليعلم الكل أن الاصطفاء الإلهي متصل. بل بلغ الاصطفاء قمته مع قمة الرسل عليهم السلام: يُمسك بيده الشريفة المصطفاة خديجة فيقول: «**خير نسائها مريم بنتُ عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد**». رواه الشيخان والترمذي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

وما لَها أمّنا خديجة لا تكون خير نساء العالمين وهي آمنت حين كفر الناس، ونصرت حين خذلوا، وحَمت حين أسلموا! بشرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيت في الجنة من قصب (لؤلؤ) لا تعب فيه ولا نصَب. قال أبو هريرة: أتى جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله! هذه خديجة قد أتت ومعها إناء فيه إدام، أو طعام أو شراب. فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني. وبشِّرْها ببيت في الجنة من قصب، لا صخَبَ فيه ولا نصب». أخرجه البخاري ومسلم. الله أكبر! أيّهما أغلى وأحلى: بيت عند الرب، أم تحية السلام من الرب!

حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدها بعد موتها. قالت عائشة: «ما غِرْت على أحدٍ من نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما غِرْتُ على خديجة قط، وما رأيتُها قط. ولكن كان يكثر ذكرها. وربَما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاءً، ثم يبعثها في صدائق خديجة. وربما قلت له: كأنهُ لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة! فيقول: **إنها كانت، وكانت، وكان لي منها وَلد**». رواه الشيخان والترمذي.

أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وولدت له أحب الناس إليه، وأكرمهن عليه، سيدة النساء فاطمة رضي الله عنها. قال جميعُ بنُ عُمَير التيْمي: «دخلت مع عمتي على عائشة فسُئلتْ: أيّ الناس كان أحبّ إلى رسول الله صلى

(1) التحريم، 11-12.

الله عليه وسلم؟ قالت: فاطمة. قيل: ومن الرجال؟ قالت: زوجُها. إن كان –ما علمتُ– صواما قواما». أخرجه الترمذي والحاكم وصححه. وروى الترمذي عن بريْدة رضي الله عنهُ قال: «كان أحبَّ الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة، ومن الرجال علي».

سيدتنا فاطمة عليها السلام سيدة نساء الجنة. جاء بالبشرى مبعوث خاصّ لتسمعَ المرأة الخاصة قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**هذا ملَك نزل من السماء، لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة. استأذن ربه أن يُسلم علَيّ ويبَشرَني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة. وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة**». الحديث. أخْرجه الترمذي عن حذيفة رضي الله عنه.

يغضب لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويخصها بالترحيب ويضمها ويقبلها ويقول: فاطمةُ بَضعة مني أي قطعة مني. وفي فراش الموت يتهلل وجهه الشريف، ويستبشر بقدومها، ويُسر إليها كلاما فتبكي، ثم يُسر إليها آخر فتضحك. سألتها عائشة ما كان أسَرّ إليها فكان مما أخبرتها به أنه قال: «**أما ترضيْن أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة، وأنكِ أولُ أهلي لُحوقا بي؟**». الحديث. رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها.

عائشة الـمُدَلَّلة في الدنيا، المحبوبة، المبشرة بالبشارات العظمَى يدخل عليها وهي في فراش الموت سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فيجد امرأة تخاف الله رب العالمين. يسألها: كيف تجِدينَكِ؟ قالت: بخير إن اتقيتُ الله. قال: فأنتِ بخير إن شاء الله. زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ينكح بكرا غيرك، ونزل عذرُك من السماء. ويزورها في مرضها بَعْدَ ابن عباس عبدُ الله بن الزبير فتشكو إليه قائلة: «دخل عليّ ابن عباس فأثنى عليّ، وَوَدِدْتُ أنّي كنتُ نِسيا مَنسيّاً!». الحديث. رواه البخاري عن ابن أبي مُلَيْكة.

قانتة خائفة من ربها إلى آخر رمَق. ما بَطِرَتْ بنِعم ربها عليها، فتتكلَ على مكانتها من حبيب الله صلى الله عليه وسلم. إنما زادها القرب من الله ورسوله

خوفا وحُزْنا على تقْصيرها في ذات الله، شأن الصالحين. روى عنها الشيخان وأبو داود والترمذي قالت: «قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما: **يا عائشُ، هذا جبريل يُقرئك السلام**. قلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته. قالت: وهو يَرى ما لا أرى. تريد رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وروى الشيخان والترمذي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**كمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمُل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون. وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**». الثريد الخبز واللحم، الطعام المفضل عند العرب.

عائشة التقية النقية أفضل النساء، كانت أيضا من أكبر العلماء. قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «ما أشكلَ علينا -أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم- حديث قطُّ فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علما». رواه الترمذي بسند حسن صحيح. وروى بسند صحيح عن عمرو بن العاص قال: «قيل: يا رسول الله! من أحب الناس إليك؟ قال: **عائشة**. قيل: ومن الرجال؟ قال: **أبوها**». لا يزاحم حب عائشة وأبي بكر حب فاطمة وعلي. فازوا والله جميعا وسعدوا. ألحقنا الله بهم مسلمين صالحين.

مجاهدات

مشكلة الأذكياء المخلصين لوطنهم الغرباء عن دينهم المغربين من الديمقراطيين والديمقراطيات هي: كيف يوظفون الزخْم الإسلامي ليُعبئوا الناس في مشروعهم اللاييكي؟ سؤالهم هو: كيف ننقُد سلبيات الحداثة كما ينقُدها الإسلاميون، وكيف نُشيد بالتراث والأصالة والهُوَيَّةِ، وكيف نُحِل الديموقراطية في الوطن دون أن تسرق منا الشورى ومشروعها اللاييكية المقدسة، اللاييكية ضمان الحرية؟ الحرية الحياة، الحرية السعادة!

سؤالنا نحن هو: كيف نركب الكواكب الفضائية ونصنعها بما هي آلة من آلات القوة، وكيف نتقي الله ونخافه ونعبده لنلْحق في عالم الروح وفي رحاب الجنة براكباتِ الإبل آكلاتِ التمر لابسات الصوف؟ وجهتا نظر متقابلتين: ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ**﴾.[1]

سؤال المؤمنات وإشكاليتهن: كيف وبِم تعبأت الصحابيات فجاهدن في سبيل الله في ساحة القتال جنبا إلى جنب مع الأبطال؟ إن عرفنا سر تلك التعْبئة الجليلة ربما كان أهوَنَ علينا أن نجاهد جهادا لا دماء فيه تسيل. وهل الإسلام وصفة بمذاق الدم!

إن عثر المؤمنات على سر التربية الأولى التي أنتجت ذلك الانقلاع العظيم عن الدنيا وذلك الإقبال الكُلي على الله اقتنعن بهوان كل مطلب ما دون قرب الله ووجه الله. وعندئذ يقنعن الخلق المغرور المجرور بالحداثة وإليها أن تحاكَم الحداثةُ إلى الإسلام، وأن يُطرَح عليها السؤال من وجهة نظر الإسلام، وأن تنتقد الحداثة بمعيار الإسلام. لا يحاكم الإسلام إلى الحداثة. لا تُفرغ الشورى من مضمونها الإيماني لتباع بضاعةً مزيفة في سوق الديمقراطيات. لا يكذب الحاكم الجبري والأحزاب الذكية على الإسلام ليستغلوا زخم الإسلام.

(1) سورة آل عمران، 152.

ضِمْن السؤال عن سر التعبئة الصحابية أسئلةُ واجبِ المؤمنات في بناء أداة حكم ونظامِ حكمٍ مستقرٍّ على القواعد الإسلامية. أي يكون الحكم فيه للشعب لا للسيف. يكون فيه الاختيار بشورى بين المؤمنين، الرجل والمرأة فيها سواء، لا بأشكال ديموقراطية أَفْرَغَتْ الإسلام من الساحة.

يطرحُ الخلْق المستعمَر المستحمَر أسئلة مستحمَرة. ويطرح المسلم المتحمس لدينه أسئلة يسكنها الغضب على غابر الاستعمار وحاضر الاستحمار. يسكنها الغضب على الحقد الصليبي والغزو الصليبي، والتطاوُل اليهودي. غضب على صليبية جثت صاغرة بين يدي صلاح الدين، وأخرى أفحش وألعن حاضرة في البوسنة والقدس ولا صلاح الدين.

أسئلة مستحمرة وأخرى مسكونة فحواها. من يوقظ النائم، ومن يحيي الميت، ومن يسبق إلى إمامة الأمة؟ النضال بكلمة لاييكية أو جهاد بكلمة قرآنية؟

السؤال الحر ابتداءً، السامي أهدافاً وغاية، يصفني أنا أمةَ الله بأنني أنا وأُمتي حَمَلَةُ رسالة إلى الناس كافة، نتعبأ لذلك المرمى البعيد، ونُشرف على ذلك الجهاد الطويل النفَس البعيدِ المَدى، لا من زاوية مقهورية الأمة وتسلط الغرب وغزو الصرب، لكن من وِجهة نظر مَن هم قدَرٌ من قدر الله. من وجهة نظر إيجابية لا ردَّ فِعْلٍ. هجوما بكلمة الله لا مجرد دفاع عن هُوَيّة.

جهاد إذاً لبناء مجتمع متماسك لَبِناتُه أُسَر متماسكة. ثم جهاد سياسي وحركة تغيير لنستنبط من ذاتنا، أي من اعتمادنا على ربنا، مستقبلين متعلمين بلا حرج من عطاء الله للعباد، منتقدين يقظين ما يخطئ فيه العباد ويصيبون، ليكون لنا نمط تنمية، ونمط إنتاج، ونمط عيش، ونمطُ نظام، صالحة لإنساننا وأرضنا، موصولة بماضينا الأجل، واصلة بمستقبلنا الموعود، نموذجية ليقتدي الناس كافة بنا يوم ينادي المنادي على حضارة المادة والظلم والكفر بالاندحار والاندثار.

في ذاتنا نجد لا في غيرنا. تصنع المؤمنات أجيالا كثيرة العدد عالية النوعية، علينا واجب تغذيتها، ورعايتها الصحية، وتعليمها، وربطها ربطا وجوديا بالقرآن

وبالنموذج النبوي، ثم تعبئتها في جهاد مستمر لتبني من بعدنا مستقبل الأمة الشاهدة على الناس بالقسط.

في المستقبل المنظور إن شاء الله قومة إسلامية، بشائرها ساطعة، لن يضرها من خالفها بإذن الله. لا نظن أن القومة جهاد جيل وانتهى الرحيل، ما هي إبطال موجود، بل هي إيجاد مفقود. هي استصلاح وإصلاح، لا انتقام وشفاء غليل. طريق الجهاد طويل، يريد عملا ممنهجا، يريد تنظيم جهود، يريد تعبئة منظمة، يريد ضبطا وانضباطا، يريد استبشارا وتبشيرا لأنفسنا وللإنسان مهما تجهم الزمن في وجهنا، وكلَحت طلعته، واكفهَرَّت ملامحه.

لن ينقذ الأمة من الهلاك الذي يتهددها، ولن يُبَلِّغَها الأملَ المعقودَ على منقذ يسعدُها إلا الاعتماد على الله والجهاد في سبيل الله. عصر المواد الخام والإنتاجية الصناعية والموارد المادية والتمويلية كاد يولي الأدبار ليخُصّ الاعتبار الإنسان ومستوى معارفه وذكائه وقدرته على الابتكار وتطويع المعلومات وخزنها وترويجها وتوظيف الأدمغة المتفوقة لتخطط وتُنشّط.

يبقى في هذا العالم المتطور للمال والنفط خاصة مكانتهما وأهميتها، يَسْتأثر بما عندنا منهما الأقوياء العلماء. فلا بد لنا من جهاد وتعبئة لنوقف النزيف في ذاتِ مقوماتنا المادية، ولنُوقف خاصةً النزيف الذي أصبنا به في المخ فقلدنا الآخرين تقليد القردة. إن لا تكن تعبئة إسلامية لجهاد إسلامي فالقردية والذيلية والهوان مستقبلنا. هل تصنع اللاييكية إلا كما صنع الإسلام الصوري الرسمي الذي مَثّل ويمثل مسرحياته حكام الجبر؟ هل تصنع اللاييكية والثقافة العالمية الجاهلة بالله أجيالا غازية مؤثرة في العالم؟

بالإسلام وحده نساهم المساهمة الفعالة في إعلاء شأن القيم الإنسانية المروئية لنقول للعالم كلمتنا فتُسمَع: عن السلام والتعارف بين البشر والتعاون والعدل. ولنخبره عن كرامة الإنسان عند الله إن عرف الإنسان الله وأطاع الله. فتلك رسالتنا. والعزة بالله الناتجة عن جهادِ منبرنا.

الإسلام سلام، الإسلام رحمة، الإسلام دعوة. ما الإسلام قهر ودماء. لكن الإسلام بدون شوكة تُعزّه، بدون جهاد هو الشوكة، يبقى جسما يُداس بالأرجل. تستعرض المؤمنات وجوه نساء شاركن في الجهاد أشد ما يكون الجهاد. جهادُ القتال صبرُ ساعة وصبر أيام. أما جهاد بناء أمة، وتنشئة أجيال، وتعبئة حاملي الرسالة ابتداء من غثاء رميم يحييه الله على يد المؤمنين والمؤمنات، فهو صبر عُمْر وأعمار. لكن الباعث والتربية ومصدر القوة لا يختلف.

قاتلت الصحابيات رضي الله عنهن جنبا إلى جنب مع الصحابة. قاتلن وليس القتال عليهن فرضا. استأذنتْ عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد فقال: «**جهادكن الحج**». رواه عنها البخاري. وروي عنها أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم سألنه عن الجهاد فقال: «**نعم الجهاد الحج**».

لكن عائشة وغيرها من الصحابيات قاتلن متطوعات وأبلين البلاء الحسن. عقد البخاري في كتاب الجهاد من صحيحه أربعة أبواب: «باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال» روى فيه عن أنس قال: «لما كان يومُ أُحُد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأمَّ سُلَيم وإنهما لمشَمرتان أرى خَدَمَ سوقهما (خلاخلهما) تنقُزان القِرَب –وقال غيره: تنقلان القرب– على متونهما، ثم تُفْرِغانِهِ في أفواه القوم. ثم ترجعان تملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم». بعده «باب حمل النساء القِرَبَ إلى الناس في الغزو». فيه أن عمر أمير المؤمنين قَسَم مُروطا (أكسية) بين نساء من نساء المدينة فَبَقي مِرْط جيد. فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين! أعطِ هذا ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عندك –وهي زوجه أم كلثوم بنت الإمام علي– فقال عمر: أمّ سليطٍ أحق. وأم سَليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال عمر: فإنها كانَتْ تزفِرُ (تخيط) لنا القِرب يوم أحد.

وروى البخاري في «باب مداواة النساء الجرحى في الغزو» عن الرُّبَيِّع بنت مُعَوّذٍ قالت: «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم، فنسقي القوم، ونخدمهم، ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة».

وروى الإمام أحمد خبر صحابية خرجت في سَرِيّةٍ جهاد مع المسلمين وتركت ثِنتيْ عشرة عنزة وصِيصتها التي تنسُجُ بها (مغزلها). حكى رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد وفد عليه خبرها حين رجعت فوجدت أن إحدى عنزاتها مفقودة، فأخذت تناشد ربها عز وجل تقول: «يا رب! قد ضمنتَ لمن خرج في سبيلك أن تحفَظ عليه. وإني قد فقدت عنزا من غنمي وصيصتي. وإني أَنْشُدُك عنزي وصيصتي». قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فأصبحت عنزها ومثلها وصيصتها ومثلها. وهاتيك فأتِها فاسألها**». قال ذلك للوافد عليه.

كانت الكريمة منهن، وكلهن كريمات، تنقز القرب. وكانت الفقيرة المتواضعة تجاهد بمالها ونفسها، تغزِل وتنفق. روى أبو داود أن صحابيَات خرجن في غزوة خيبر فسألهن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصدهن فقلن: «خرجنا نغزل الشعر فنعين به في سبيل الله، ونداوي الجرحى، ونناوِل السهام، ونسقي السويق». وقد أوردنا في فصل سابق رواية ابن هشام عن بطولة أم عُمارة في أحُدٍ قالت: «فقمت أباشر القتال، وأذُبّ عنه (عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) بالسيف، وأرمي عن القوس حتى خلَصَتْ الجِراحُ إِلَيّ».

بطلة أخرى هي صفية بنت عبد المطلب عمةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم. أخرج ابن اسحاق أنها لجأتْ يوم أُحُد إلى حصن حسان بن ثابت شاعر المسلمين مع النساء والصبيان وحسان. فمر يهودي يُطيفُ بالحصن. فطلبت المرأة الصالحة البطلة إلى الرجل الشاعر حسان أن ينزل إلى اليهودي. قال حسان: «يغفِرُ الله لكِ يا بنت عبد المطلب! والله لقد عرَفْتِ ما أنا بصاحب هذا! قالت صفية: فلما قال لي ذلك ولم أجد عنده شيئا احتجزْتُ (شددت وسطي) ثم أخذت عمودا، ثم نزلت فضربته بالعمود حتى قتلته. فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت: يا حسان! انزِلْ فاستلِبْه، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل. فقال حسان: ما لي بسلبه حاجة يا ابنة عبد المطلب!».

جبُنَ رجل وأقدمت امرأة. وكانت أولَ مؤمنة قتلت عدوا في الإسلام.

ويوم حنين إذ انهزم المسلمون ساعة من نهار كانت أم سُلَيم بخنجرها تتحدى الأعداء. جاء زوجها أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ويُخبره أن مع أم سليم خِنْجَراً. سألها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصدها فقالت: «أردتُ إن دنا إليَّ أحد منهم طعنته به!». رواه ابن سعد وغيره.

وأخرج الطبراني أن أسماء بنتَ يزيد بنِ السَّكن بنت عَمِّ معاذ بن جبل رضي الله عنهما قتلت يوم اليرموك -الحرب الفاصلة بين الروم والمسلمين في عهد عمر- تسعة من الروم بعمود فُسطاط. بعمود خيمة وفّت أسماء ما عاهدت اللهَ عليه ورسولَه حين بايعته مع نُسيبة بيعة العقبة، تلك البيعةَ المؤسِّسةَ الحاسمة.

وأخرج البخاري أن أم حَرام بِنتَ مِلْحان سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبشر قائلا: «**ناس من أمتي يركبون البحر الأخضر في سبيل الله** (هو المسمى الآن البحر الأبيض المتوسط) **مثَلُهم مثَل الملوك على الأسِرّة**». فقالت: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم. فدعا لها وقال: «**أنت من الأولين ولستِ من الآخرين**». قال أنس راوي الحديث: فتزوجتْ عُبادة بنَ الصامت رضي الله عنهُ وركبت البحر مع بِنت قَرَظَةَ. وذلك حين غزا المسلمون القسطنطينية عاصمة الروم.

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

راعية ومسؤولة

كيف انقطع النسل المعنوي للمجاهدات اللواتي قتلن اليهودي وقاتلن بالسيف والخنجر وحطمن رؤوس الروم بعمود الفُسطاط وغزون القسطنطينية؟

أمع الرجال دليل وحجة بها أحالوا إماء الله قواعد في البيوت محجورات عاجزات جاهلات مظلومات؟ كيف فُقدت تلك التربية، وماتت تلك الروح؟ كيف قُتلت المرأة وأُفْشلت؟

ربما أدلى الفقيه بالحديث الجامع الذي وزعت فيه السنة المطهرة المسؤوليات وحددتها وأناطت بكل ذي موقع اجتماعي سياسي مهمته. حديثٍ عظيمٍ ما ترك لأمير ومأمور مَهْرَباً من مسؤولية. روى الشيْخان والترمذي وأبو داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**كلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته. فالإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله، وهو مسؤول عن رعيته. والمرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيتها. والخادم في مال سيده راع، وهو مسؤول عن رعيته**». قال: فسمعت هؤلاء من النبي صلى الله عليه وسلم. وأحسِب النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**والرجل في مال أبيه راعٍ ومسؤول عن رعيته، فكلكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعيته**».

مِثْلُ هذا الحديث العظيم حين تتلقاه قلوب زكية وعقول ذكية وضمائر حرة من التقليد، وأرواح نشأت في عبادة الله ونُشِّئَتْ عليها، يدور فَهْمها ويتجوهر حول مفهوم المسؤولية. كلمة «مسؤولية» في الدارج من لغة العصر تعني شعورا ما بالتبعة، وخوف ما من لوم الناس، وبحث ما عن راحة الضمير، واعتزاز ما بإظهار الكفاءة على حمل الأعباء وإنجاز المهمات. أما معنى المسؤولية حين يلفظ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفهمها العقول وتعيها القلوب التي تقرأ القرآن وتعيه فهو الوقوف بين يدي الله عز وجل غدا يوم القيامة ليُسأل الإمام والرجل

والمرأة والأب والابن، ويُجازَوْا عن أعمالهم، يُثابون إِن أحسنوا عملا، ويعاقبون إن أساءوا.

المفاهيم تتزحلق، وتخرج من نظام علمي إلى نظام، فتفقد قوتها وأصالتها ومغزاها. المسؤولية كما نستعمل الكلمة اليوْمَ لفظ تَرْجم معنىً أجنبيا. فهو جريحٌ يئِنّ مما أصابه من دحرجة وزحلقة مثل سائر الألفاظ العربية الترجمانة عن لغة الثقافة العالمية. الوثنية الإغريقية والمادية الحديثة والفلسفات المتتالية والفنون المستحدثة، كل ذلك يتقاطر على الألفاظ ويجْرف الألفاظ ويزحلق الألفاظ عن مدلولاتها القرآنية النبوية، فإذا هي أشباح في الأذهان بعد أن كانت حياة وباعثة حياة.

هذا عن التركيز وعن فهم الدلالات كما تَسمعُ الألفاظَ الدالّةَ قلوبُ المؤمنين والمؤمنات وعقولُهم. ويصيب الفهومَ والألفاظ والدلالات «تعرِيةٌ» تارِيخية كما نقول «تعرية التربة» في المصطلح الجغرافي الفلاحي. فيتحول مركز الفهم ودلالة اللفظ، فإذا أنت ترى من فعل الناس وخطابهم ما ينبئ عن خمود الذكاء وخمول الذكاء. وإذا بحديث المسؤولية العظيم يصبح في الخطاب والفعل تبريراً للواقع. وإذا بالكلمة المفتاح في الحديث هي «راع» وليس «مسؤول».

الإمام في السياق القرآني النبوي نبي وخليفة راشد اختاره المسلمون والمسلمات. وهو في السياق المنجرف الـمُعَرّى رجل قوي حملته إلى السلطة عصبية، «فغلبهم بالسيف حتى سُمي خليفة وأميرا للمؤمنين».

بين يدي النبوءة والخلافة الراشدة يُقرأ الحديث العظيم يَتداوله عباد الله وإماؤه لا يخافون سوَى الله، ولا يخافون في الله لومة لائم. وبين يدي السيف يُقرأ الحديث العظيم، وتُقرأ النصوص، وظل التخويف حائم. فإن كان في العقول ذكاء قبض من الزمام طمعا وخوفا من «الإمام» السياف، وإن كان بالقلوب زكاء هربت من الساحة لتُخْلِي ذمتها من كل مسؤولية. تقرأ القلوب الزكية الكلمة، كلمة «مسؤولية»، بالحرف الغليظ الممتاز.

الكلمة المفتاح في سياق الحكم العاض والجبري هي الراعي والرعية. وزبدة الحديث العظيم تُتَرْجَم إلى: كلكم رعية ما عليكم إلا السمع والطاعة. وهكذا تتقلب الحقائق. من: «**كلكم راع ومسؤول**» أصبحت الحقيقة الواقعية تحت ظل السيف ما قلنا.

فقيهنا الذي جردناه وقدرناه محاورا يريد أن يستدل من الحديث العظيم على أن للمرأة مجالا لرعايتها ومسؤوليتها حدده الشرع وأعطى عنوان سكَنه في بيت زوجها. وهذا لا نناقش فيه، وأنّى لنا وفَحوى الحديث كالشمس وضوحا: «**المرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيتها**». في هذا لا نناقش الجوهر، وأنّى لنا! لا نناقش الهدي النبوي، لكن نناقش فعل الأزواج، وإساءتهم القوامة، وفهمهم المتعسفَ «للدرجة» التي جعلها الله للرجال على النساء. منهم من يَخْبِطُ، ومنهم من يُهين، ومنهم من لا يعترف لها بفضل، ومنهم من يعتبرها خادما ليس لها من كلمة في البيت، ومنهم من يطردها من «بيته» ويشردها وأطفالها. ومنهم، ومنهم.

انفرط عِقد نظام الحكم، فذهبت الراعيات المسؤولات المجاهدات كما نقرأ عنهن في السيرة العطرة، وفتحت بعدهن النساء أعينهن على مجتمع يدين للحاكم «دين الانقياد» وتحكمه الذهنية الرعوية.

لا نناقش في جوهر الدلالة من الحديث النبوي الحكيم العظيم. إنما نناقش ما فعله الناس من بعدُ وما فهموا ويفهمون. ثم نثني العِنان في جولتنا مع فقيهنا المحاور المتخيّل، فنسأله: هل نسخت مسؤولية المرأة في البيت مسؤوليتها خارجه؟ مسؤوليتها في البيت سنة قرأناها، ومسؤوليتها خارجه قرآن نقرأهُ في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

---

(1) سورة التوبة، 72.

ما تنسَخ مسؤولية المرأة في بيتها مسؤوليتها خارجه إلا كما تنسخ سائر التكاليف الشرعية عنها. وهي لا تفعل. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكليفان على المرأة منهما مثل ما على الرجل. عليهما من ذلك مثلُ ما عليهما من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله. لو جاز للمرأة أن تترك الصلاة أو بعضها بدليل الحديث الحكيم الذي وزع المسؤوليات وعين الرعِيَّات لجاز لها أن تنسحب من ساحة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسؤولية مشتركة بين الرجال والنساء، هما العمل التضامني الذي يوقف الوَلاية بين المؤمنين والمؤمنات على قَدَم. إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ركنان من أركان الإسلام، وطاعة الله ورسوله أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر وَلايَة إيمان. تدخل الصلاةُ وتدخل الزكاةُ في طاعة الله ورسوله كما يدخل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دخولا اندماجيا لا فصل معه بين الدين والسياسة. الدين سياسة والسياسة دين. والمرأة المؤمنة كالرجل المؤمن نصيبها من المسؤولية السياسية مثل نصيبه، مع اعتبار «الدرجة» التي خولها الله له ليَقود السفينة، إذ هو قطب القوة في مُجَمَّع المؤمنين والمؤمنات.

ما هنا لكُنّ معشرَ المؤمنات من دليل يُقيلكن ويعفيكن من المسؤولية السياسية. إن كانت السنة المطهرة خصصت لكن مجالكن الحيوي حيث تزاولن أمانة الحافظية صالحاتٍ قانتات، فعموم القرآن أهاب بكن إلى تعبئة شاملة تدْعَمْنها بما يفيض من وقتكن وجهدكن بعد أداء واجبكن التربوي الأساسي. وليست تربية الأجْيال إِلا ترسيخا للمعروف وإبادة للمنكر. فأنتن تزاولْن السياسة في البيت والمدرسة والمعهد والجمعية الإحسانية وميدان الشغل والكسب -لمن كانت منكن كاسبة- أسمى ما تكون السياسة.

ليست لنا سابقة في الإسلام أن تتولى النساء الإمامة العظمى، وما كان لامرأة أن تتولاها. والمتبجحات بشجرة الدُّر التي حكمت مصر إنما يَتَنَدَّرْن ويتفكّهْن بنقائض الإسلام. ما كان للمرأة وما يكون لها أن تتولى الإمامة العظمى، فإن

ورثَت جاريةٌ مَحْظيَّةٌ المُلْكَ فما نحن في الإسلام نتكلم. الملك نقيض الإمامة. لا جرم أن ترثَ الملك جاريةٌ.

الإمامة العظمى إمامة صلاة قبل كل شيء وقيادة جيوش وجهاد. رب العباد جعل قوة العضل في الرجال ورَباطة الجأش. ورب العباد سبحانه خص بإمامة الصلاة الرجال. تؤم المرأة نساء ويؤم الرجل الكل. ويأتي بعد ذلك الحديث النبوي: «**لن يُفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة**». تجادل فيه بعضهن مستنداتٍ إلى نزاع لفظي فارغ بين بعض الفقهاء: هل المقصود بالزجر النبوي الفرسُ الذين ورثت ملكَهم ابنةُ كِسْرَى عن كِسرى، وإذاً لا نهيَ عن تولي المرأة الإمامة. هُراءٌ.

الإمامة العظمى صلاة وقوامة وقوة. لا تُنازع القوةُ الأمانة، بل تكملها. لا تنازع الحافظية القِوامةَ، بل يعيش بعضهما في كنَف بعض. القوة أخت الأمانة، والقوامة قرينة الحافظية. والسياسة أمر ونهي، للرجل مكانه، وللمرأة مكانها لتزدوج وتنسجم في المجال السياسي القوة والأَمَانة كما تزدوج وتنسجم القِوامة والحافظية في الحياة الزوجية.

فيما دون الإمامة العظمى مرعىً للمرأة ومسؤولية. ما يغمطها المؤمنون حقها متى أظهرت كفاءة وقدرة. وقد وَلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسؤولية القيام على الجرحى امرأة اسمها رُفيدة. روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن سعد بن معاذ أصيب يوم الخندق، رماه رجل من قريش، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد خيمة يعوده من قريب. وروى ابن اسحاق في السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل سعداً بن مُعاذ في خيمة لامرأة من أَسْلَمَ يقال لها رفيدة في مسجده عليه السلام كانت تداوي الجرحى وتحبِس نفسها على خدمة من كان فيه ضيعة من المسلمين.

قلت: متطوعة، لكن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكانها من مسجده اعتراف بمسؤوليتها. في كتاب «الاستيعاب» لابن عبد البَر أن امرأة تُسمى سمراء بنت نُهيك الأسدية كانت أدركت النبي صلى الله عليه وسلم، وعُمِّرَت، وكانت

تمر في الأسواق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتنهى الناس عن ذلك بسوط معها.

وعند القاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله في «أحكام القرآن» إنكار لقصة عن عمر رضي الله عنه. قال القاضي: «وقد رُوي أن عمر قدّم امرأة على حِسبة السوق، ولم يصِحّ، فلا تلتفتوا إليه، فإنما هو من دسائس المبتدعة في الأحاديث».

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

جدال فقهي

استبعد القاضي الفقيه رحمه الله أن يكون عمر ولّى على الحِسبة امرأة. من عصره تكلم القاضي ومن مكانه، عصر وأمصار زار منها ألفاً وَنَيِّفَ قرية -كما قرأنا في فصل سابق- فرأى فيها من تبرج النساء ما لم يعجبه. أنكر أحوال النساء في زمنه ولم يعجبه إلا نساء نابلس العابدات في مساجد الجمعة، وإلا نساء القدس سفك دماءهن الأعداء في مسجدهن.

صحت الرواية عن محتسبة عمر أو لم تصِحَّ، فتولي المرأة من المناصب ما لا تتعارض رعايته مع رعاية ما أناط بها الحديث العظيم من مسؤولية تربوية، وما لا يخدش عرضها، وما لا ينُوءُ بأعصابها وقدرتها، وما لا يُخرجُها عن طبيعة الأمومة والحنان والإحسان، أمر لا نجد له من نص يرفضه.

وترنو أعيننا إلى الأفق الصحابي بأعين لا يُقْذِيها فجور نساء القرى ورجال القرى. آه لو اطلع القاضي العزيز على فجور زمننا!

ما يفيض عن الوقت والجهد الأساسي التربوي تصرفه المؤمنة إلى مجال التعبئة العامة، مجال السياسة الآنية. تأسيس المستقبل وبناء المستقبل أولا، القومة التغييرية طويلة النفس بعيدة المدى أسبق. المؤمنة مربية أولا، ثم هي إن كانت لها الكفاءة، وكان لها الطموح والصبر وفائض الحيوية، أمينة مسؤولة عما تتطاول إليه همتها وتستحقه قدرتها على العمل والضبط.

تكسِر أسنانَها المرأةُ إن تعلقت بحق سياسي يخرجها من برجها. نعم، تشارك في النشاط العام للدعوة، من هذا النشاط الجانب السياسي، تَنتخِب وتُنتخب، تخطب في بنات جنسها وتكتب، تعبر عن رأيها بحرية. وستجد المؤمنات الصالحات في ظل الحكم الإسلامي أن المرأة إن جذّفت بنفسها في قارَبِ المباراة المطْلَقة مع الرجل، وإن حاولت أن تكون هي القوّامة لا الرجل، وزعمت

أن لها درجة مثلما جعل الله للرجل، فإنما تضيف تعبا مجنَّحـًا إلى تعب مُحْبَنْطِئ، وإنما تزيغ عن السكة، وإنما تخرج عن طبيعتها. لا يستفِزّنَّ المؤمناتِ مناضلاتٌ تهب بهن رياح الهَبَل.

إذا كان في النساء مستثنَياتٌ لهن من قوة الشكيمة ما يمكنهن من مناطحة الأهوال، فإن عامتهن إلى ما يناسب أنوثتهن أميل. المرأة في مشاهد الدماء والقتال قلّما تتحمل أعصابها، في الخصام هي غيرُ مُبينة بشهادة القرآن. وذلك مزية لها لا تنقيص أن تكون ميالة إلى الصلح لا إلى المشاكسة، أن تكون سلاما لا حربا، أن تعالج الجراح لا أن تجرح.

وقدْ تناظر الفقهاء المسلمون وتجادلوا في موضوع كفاءة النساء وحقهن في تولي الشؤون العامة. نورد من ذلك نُتفـًا. قال القاضي الفقيه المالكي أبو بكر ابن العربي في «أحكام القرآن»: «وقد تناظر في هذه المسألة (مسألة تولي المرأة الحسبة) القاضي أبو بكر بن الطيب المالكي الأشعري مع أبي الفَرَج بنِ طَرار شيخ الشافعية ببغداد في مجلس السلطان الأعظم عضُد الدولة. فمَاحَلَ ونصَر ابن طَرار ما يُنْسَبُ إلى ابن جرير –على عادة القوم في التجادل على المذاهب– وإن لم يقولوا بها استِخراجا للأدلة وتمرُّنا في الاستِنْباط للمعاني». قلت: ولنا إلى ابن جرير رجعة إن شاء الله.

قال: «فقال أبو الفرج بن طَرار: الدليل على أن المرأة يجوز أن تحكُم أنّ الغرَض من الأحكام تنفيذ القاضي لها، وسماعُ البينة عليها، والفصل بين الخصوم فيها، وذلك يُمكن من المرأة كإِمكانه من الرجل.

قال: «فاعترض عليه القاضي أبو بكر، ونقض كلامه بالإمامة الكبرى. فإن الغرض منها حفظ الثغور، وتدبير الأمور، وحماية البيضة، وقبض الخراج، ورده على مستحقيه. وذلك يتأتّى من المرأة كتأتّيه من الرجل.

قال: «فقال له أبو الفرج بن طَرار: هذا هو الأصل في الشرع، إلا أن يقوم دليل على منعه. فقال له القاضي أبو بكر: لا نُسلم أنه أصل الشرع. قال القاضي عبد الوهاب: هذا تعليل للنقض».

ويعقب ابن العربي رحمه الله قائلا: «ليس كلام الشيخين في هذه المسألة بشيء. فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرُز إلى المجالس، ولا تخالط الرجال، ولا تُفاوضهم مفاوضة النظير للنظير. لأنها إن كانت فتاة حرُم النظر إليها وكلامها وإن كانت مُتجالَّة (كبيرة السن) بَرْزَةً (تبرزُ وتظهر) لم يجْمعها والرجالَ مجلس تزدحم فيه معهم، وتكون مَنْظَرةً لهم. ولم يُفلح قطُّ من تصور هذا ولا من اعتقده».

حضرنا مجلس مناظرة من القرن السادس يدور حول مسألة خلافية بين المذاهب الفقهية، هي تولي المرأة القضاء. وكان القضاء أهمّ منصِب تركه حاملو السيف لأهل العلم والتقوى. كان القاضي ملاذ الناس ومَفْزعهم من الظلم. كان القاضي أهمّ شخصية مدنية. ويتبحّر في العلم فيكون في نفس الوقت مفتيا. لذلك كثر النزاع حول أهلية المرأة لتولي المنصب. كان القاضي مجتهدا.

أصبح القاضي في مجتمعاتنا الحاضرة مجردَ موظف، يُدَرَّبُ على إجراء مِسطرة وتطبيق مُدَوَّنة. وتتوظف النساء قاضيات لَسْتُ أدري هل يُلْبِسهن مُوَظِّفوهن من هذه المسوح السوداء التي يراد بها أن تُعطي الهيبة وتدخِل الرهبة وتخوف الجناة. في أفق الحكم الإسلامي أولويات تغيير من أهمها تحرير القضاء من المسوح الكنسية السوداء، وهو هين. وتحرير القضاء من الروح الكابِسة ليكون للقضاء جلال الحق والعدل لا إدارة القمع وتصريف الملفات.

ولا غِنى لنا عن سماع جدل فقهائنا الأقدمين رحمهم الله وأحسن مثواهم وألحقنا بهم مسلمين في مسألة أهلية المرأة للمنصب الجليل. نقيس على ذلك أهليتها لغير القضاء من مناصب الدولة.

يدور الاستدلال الفقهي في المسألة حول حديث رواه البخاري عن أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه قال: «لقد نفعني الله بكلمة أيامَ الجَمل. لَمَّا بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن فارسا ملَّكوا ابنة كِسرى قال: «**لن يُفْلح قوم ولَّوْا أمرهم امرأة**».

نعود إلى الجمل وإلى أبي بكرة في الفقرة المقبلة إن شاء الله. ونقرأ للمحدث الحافظ الفقيه ابن حجر رحمه الله قوله: «احتج بحديث أبي بكرة من قال لا يجوز أن تُوَلَّى المرأةُ القضاء، وهو قول الجمهور. وخالف ابن جرير الطبري فقال: يجوز أن تقضي فيما تُقبل شهادتها فيه. وأطلق بعض المالكية الجواز».

قلت: ابن جرير الطبري علَمٌ من أعلام الأمة. شيخ المفسرين، فقيه مجتهد له مذهبه. معه في اجتهاده المقيِّد لأهلية المرأة في جواز قضائها فيما تجوز فيه شهادتها، وهو الأموال -أو بعبارة العصر: القضاء المدني- الفقهاء الأحناف كما سنرى عن قريب إن شاء الله.

ننظر في نموذج من استدلال الفقهاء في كتاب «نيل الأوطار» للإمام الشوكاني مجتهد القرن الثاني عشر. قال رحمه الله عن حديث أبي بكرة: «فيه دليل على أن المرأة ليست من أهل الولايات. ولا يحل لقوم توليتها، لأن تجنب الأمر الموجب لعدم الفلاح واجب».

وينقل الشوكاني عن ابن حجر قوله: «وقد اتفقوا على اشتراط الذكورة في القاضي إلا عند الحنفية، واستثنوا الحدود. وأطلق ابن جرير». قال الشوكاني: «ويؤيد ما قاله الجمهور أن القضاء يحتاج إلى كمال الرأي، ورأي المرأة ناقص، لاسيما في محافل الرجال».

ويورد الشوكاني رحمه الله حديث بُرَيْدة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**القضاة ثلاثة: واحد في الجنة واثنان في النار. فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحقَّ فقضى به، ورجل عرف الحق وجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار**». رواه ابن ماجة وأبو داود. قال الشوكاني: «وهو دليل على اشتراط كون القاضي رجلا». ثم يعقب على الحديث قائلا: «في هذا الحديث أعظم وازع للجَهَلة عن الدخول في هذا المنصب الذي ينتهي بالجاهل والجائر إلى النار. وبالجملة فما صنع أحد بنفسه ما صنعه من ضاقت عليه المعايش فزجّ بنفسه في القضاء لينال من الحُطام وأموال الأرامل

والأيتام ما يحول بينه وبين دار السلام مع جهله بالأحكام أو جَوْره على من قعد بين يديه للخصام من أهل الإسلام».

قلت: عجز المرأة عن الخصام وقصورها في اللجاج، وبالتالي نفور نفسها وهروب طبعها من مواقع الخصام –ومجالس القضاء هي الخصام بعينه– يشهد لها قول الله تعالى يرد على المشركين الذين زعموا أن الملائكة إناث وأنهم أجلّهم الله بنات الله، تعالى الله: ﴿**وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ**﴾.(1)

قصورُها في الخصام وحبها للحلية والزينة كمال لأنوثتها ما هو مثلَبَةٌ. قال الفقيه المحدث ابن كثير في التفسير غفر الله له: «المرأة ناقصة يكمُل نقصُها بلُبس الحُلِيِّ منذ تكون طفلة. وإذا خاصمت فلا عبارة لها. بل هي عاجزة عَيِيَّةٌ (...). فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن في الصورة والمعنى. (...). وأما نقص معناها فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارةَ لها ولا هِمّةَ، كما قال بعض العرب وقد بُشِّر ببِنتٍ: ما هي بنِعم الولَد، نصرُها بكاء، وبِرُّها سِرقة». قلت: قول الله حق، وشهادة الأعرابي جاهلية تئد البنات. أعيدي قراءة الآيات.

يلخص الخلافَ المذهبي في المسألة الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي في كتاب «الفقه الإسلامي وأدلته»، فيقول عن الذكورة: «هي شرط أيضا عند غير الحنفية، فلا تُوَلّى المرأة القضاء لقوله صلى الله عليه وسلم: «**لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة**»، ولأن القضاء يحتاج إلى كمال الرأي وتمام العقل والفطنة والخبرة بشؤون الحياة. والمرأة ناقصة العقل، قليلة الرأي، بسبب ضعْف خبرتها واطلاعها على واقع الحياة. ولأنه لا بد للقاضي من مجالسة الرجال من الفقهاء والشهود والخصوم. والمرأة ممنوعة من مجالسة الرجال بعدا عن الفتنة. وقد نبه تعالى على نسيان المرأة فقال: «**أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى**»(2). ولا تصلح

(1) سورة الزخرف، 14-17.
(2) سورة البقرة، 282.

للإمامة العظمى ولا لتولية البلدان. ولهذا لم يوَلِّ النبي صلى الله عليه وسلم ولا أحد من خلفائه ولا مَنْ بعدَهم امرأة قضاء ولا وِلاية بلد».

وقال الدكتور: «وقال الحنفية: يجوز أن تكون المرأة قاضيا في الأموال، أي في القضاء المدني، لأنه تجوز شهادتها في المعاملات، ويَأْثَمُ المُوَلِّي لها للحديث السابق «**لن يفلح**...». أما في الحدود والقصاص، أي في القضاء الجنائي، فلا تُعيَّن قاضيا لأنه لا شهادةَ لها فيه. ومن المعلوم أن أهلية القضاء تُلازم أهلية الشهادة. وقال ابن جرير الطبري: يجوز أن تكون المرأة حاكما على الإطلاق في كل شيء، لأنه يجوز أن تكون مفتية. فيجوز أن تكون قاضية».

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

«أطوع الناس في الناس»

ما أكثر ما يستشهد الناس -الفقهاء منهم والعوام- بحديث نبوي ليُنَقصوا من قدر المرأة، يُزيغون الحديث عن سياقه ويعطونه دلالته اللفظية المطلقة. يقرأون بعضه ويسكتون عن بعض كما يقرأ بعضهم ﴿وَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ويقطع القراءة.

لا عجب يغلب سوء الظن بالمرأة، ويغلب الموروث من احتقارها حتى يكتب المفسر الجليل شهادة أعرابي جافٍ جافٍّ مباشرة بعد شهادة رب العالمين التي توبخ وتشنع على الذين يظَل وجه أحدهم مُسْوَدّاً وهو كظيم إذا بُشّرَ أحدهم بالأنثى، لاَ مِثالَ لاسوداد وجهه ولا شاهد عليه أفصح مما يرويه الفقيه المفسر عن الأعرابي.

ويقلد اللاحق السابق، فيتأبد فينا الفقه المنحبس -بل الراجع القهقَرَى إلى عروبية غابرة- ويحول بيننا وبين الفقه الصحيح المستقِي من معين. فقه انهزمنا به على وجه التاريخ، ما ينزع عنا أغلاله إلا تفقه جديد ينظر ويسمع ما قال الله وما قال رسول الله.

الحديث رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أَضْحى أَوْ فِطْرٍ إلى الـمُصلَّى، فمر على النساء: فقال: «**يا معشر النساء! ما رأيْتُ من ناقصات عقل ودينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الحازم من إِحداكن!**» قلْن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «**أَلَيس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟**» قلن: بلى! قال: «**فذلك من نقصان عقلها. أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟**» قلن: بلى! قال: «**فذلك من نقصان دينها**».

السياق الواقعي لهذا الحديث هو ما كان يشتكي منه المهاجرون من تعلم نسائهم آدابا أخرى غير ما تعود عليه المهاجرون في مكة. عبّر عن ذلك عمر بن الخطاب بقوله: «وكنا معشر قريش نغلِبُ النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم. فطفق نساؤنا يأخذن من أدب الأنصار». الحديث رواه البخاري.

في يوم عيد يخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعظ، ويخص النساء بهذه الكلمة الرقيقة التي جاءت في صيغة تعجب من اختلاف شأن المهاجرين الذين يغلبون نساءهم عن حال الأنصار تغلبهم الضعيفات وهم الأقوياء، قليلات الخِبرة بخصام الناس وشدائد الحياة حتى إن الله عز وجل عزز الشاهدة منهن بشاهدة ثانية لتذكرها إذا نسيت. ما في الحديث حُكْم قاطع. بل فيه تعجب، وفيه انبساط. وهل تظن مؤمنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا القلب الرحيم والعقل الراجح والخلق العظيم والعصمة الإلهية يكون من قلة الذوق وسوء الظن ببنات آدَم اللواتي كرّمهن الله على يديه حتى يختار مناسبة الفرح ليُتْرِحَهُنّ، مناسبة السرور ليدخل عليهن الحزن، مناسبة خروج المسلمين والمسلمات إلى صعيد واحد ليتلقوا جميعا جوائز الله يوم العيد فينغص عليهن بجرح شعورهن وإهانة كرامتهن!

تعجُّبٌ من قدرة الله الذي غلَّبَ الضعيفات، بلباقتهن وحب أزواجهن لهن يذهبن بلب الرجل الحازم فيطيعُهن ويخضع لرغباتهن.

عنوان هذه الفقرة كلمة قالها الإمام علي كرم الله وجهه أثناء أحداث حرب الجمل التي قادتها أمنا عائشة رضي الله عنها يوم خرجت إلى البصرة مع نحو ثلاثة آلاف رجل تحاول الإصلاح بين الإمام علي، وقد بُويع بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان، وبين طلحة والزبير الخارجَيْن عليه.

روى أخبارَ ذلك عمر بن شبة في كتاب «أخبار البصرة». ولخصه الحافظ ابن حجر رحمه الله. وعنه ننقل. قال الإمام علي: «أتَدْرون بِمن بُلِيتُ؟ أطوعُ الناس في الناس عائشة، وأشد الناس الزبير، وأدهى الناس طلحة، وأيسر الناس يَعْلَى بنُ أمية». اليسار: المال.

أطوع الناس في الناس عائشة. ناقصة عقل ودين بالمعنى النبوي الملاطف المتعجب من حكمة الله تقود جيشا فيه أمثال طلحة والزبير. أمنا العزيزة ارتكبت

خطأ فخرجت من مستقرها. قليلة الخبرة بالجماهير الحاشدة وتفاعلاتها، ظنت بحسن نية أنها بحضورها وحُرمتها في المسلمين ستوقف مسلسل العنف. حكمة الله وقدره السابق.

فقد أخرج الإمام أحمد والبزار والحاكم وابن حبان عنها رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنسائه ذات يوم: «**كيف بإِحداكن تنبح عليها كلاب الحَوْأَبِ!**». وعن ابن عباس روى البزار بسندٍ ثِقات أنه صلى الله عليه وسلم قال لنسائه: «**أيتُكنّ صاحبة الجمل الأدْبَبِ؟**».

من معجزاته صلى الله عليه وسلم الكثيرة إخباره بأحداث المستقبل، هذا منها. فينقل ابن حجر رحمه الله أنّ الأم المطاعة نزلت في طريقها إلى البصرة وهي على جملها التاريخي بعضَ مياه بني عامر، فنبحت عليها الكلاب فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: الحَوْأَب. تذكرت ما كان أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: ما أظنني إلاّ راجعة! فقال لها بعض من كان معها: بل تَقْدَمينَ فيراكِ المسلمون فيصلح الله ذات بينِهم.

قدَرُ الله ماض، علَّمَه نبيَّه صلى الله عليه وسلم، وأعلم النبيُّ عليا فأخبرَه: «**إنه سيكون بينك وبين عائشة أمر**». فزِع علي فقال: «فأنا أشقاهم يا رسول الله!» قال: «**لا! ولكن إذا كان ذلك فاردُدْها إلى مأمنها**». رواه أحمد والبزار عن أبي رافع بسند حسن.

امرأة من أهل الجنة أساءت التقدير، ساقها قدر الله السابق إلى موطن من مواطن الفتنة التي دمَّرَت الحكم الشوري بين المسلمين. من موقعة الجمل تفاقم الشرخ بين فئات المسلمين بعد أن دشن الفتنة قاتلو أمير المؤمنين عثمان.

ولا تزال تلك الأخطاء وتلك الحزازات بين الصحابة تحفِر في كيان الأمة. فالشيعة ما عندهم عذر للأم المطاعة. هي عندهم في قرَن واحد مع معاوية وعمرو ابن العاص والمغيرة بن شعبة ويزيد وسائر بني أمية. وكأن خطأ امرأة خرجت تصلح بين المسلمين بالنية الصالحة مثل خطإ من قتلوا حجر بن عَدِيٍّ الصحابي

العابد الصالح وأصحابه، ومن فرضوا على الأمة بالسيْف بيعة يزيد الشاب الطائش، ومن قتلوا حسينا، ومن قتلوا علماء الأمة في واقعة الحَرّة!

امرأة من أهل الجنة عصم الله من اتباعها في خَطإها أبا بكرة الصحابي الذي قال: «لقد نفعني الله بكلمة أيام الجمل: لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن فارسا ملّكوا ابنة كسرى قال: «**لَن يُفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة**». وسُئِل أبو بكرة: ما منعك أن تقاتل مع أهل البصرة يوم الجمل؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**يخرج قومٌ هلْكَى لا يُفلحون، تقودهم امرأة في الجنة**». رواه ابن أبي شيبة.

وأخرج البخاري عن عبد الله بنِ زياد الأسدي قال: «لما سار طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة بعث علي عمارَ بن ياسِر وحَسَناً بْن علي، فقَدِما علينا الكوفة، فصَعِدا المنبر. فكان الحسن بن علي فوق المنبر أعلاه، وقام عمار أسفَلَ من الحسن. فاجتمعنا إليه، فسمعت عمارا يقول: إن عائشة قد سارت إلى البصرة. والله إِنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة! ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليَعلَم إياه تطيعون أم هي».

ضعيفة مطاعة، نسَّاءَةٌ متقلبة الرأي. واحدة من بنات آدم وبنيه الخطّائين التوابين. جاءها يوم الجمل وهي في هودجها عبد الله بنُ بُدَيل بن وَرْقاء الخُزاعي فقال لها: «يا أم المؤمنين! أتعلمين أني أتيتُك عندما قُتِل عثمان فقلت: ما تأمُريني؟ فقلت: الزَمْ عليا». سكتت أم المؤمنين لأنها كانت في موقف حرج مناقض لما كانت أوصت به. الحديث رواه ابن أبي شيبة بسند جيد.

سكتت لأن موقفها ذاك كان منحازا لرجلين من أهل الجنة أخطآ أفدح من خطإها: هما طلحة والزبير، وما أدراكِ من طلحة والزبير! جبلان من الرجال ذوي البَلاء والسابقة العظيمة في الإسلام. بعد ست وثلاثين سنة من هجرتهما مليئة بالأعمال الجليلة خالفا أمير المؤمنين لرأي رأياه ظنّا أنه الحق، وقاتلهما الإمام قائلا: «أقاتلهم على الخروج من الجماعة ونكث البيعة». فلما فرغ من قتال الفئة

الخارجة بعد أن قُتِل طلحةُ والزبيرُ رضي الله عنهما دخل عليه عِمران بن طلحة، فقال له الإمام علي كرم الله وجهه: «إني لأرجو أن يجعلني الله وأباكَ من الذين قال الله فيهم: «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ». وكان في المجلس رجلان قالا: الله أعدلُ من ذلك! تقتلهم بالأمس وتكونون إخوانا! فقال علي رضي الله عنه: «قُومَا أَبْعَدَ أرضٍ وأَسْحَقَها! فمن هم إذاً إن لم أكن أنا وطلحة!». في رواية أن عليا غضب للمقالة غضبة عظيمة وصاح على القائل صيحة تَدَهده لها المكان. ذكر ذلك الحافظ ابن كثير رحمه الله وغفر لنا وله في التفسير عند الآية من سورة الحِجر.

أخرج الطبري بسند صحيح عن أبي يزيد المديني قال: قال عمار لعائشة لما فرغوا من الجمل: «ما أبعدَ هذا المسيرَ من العهد الذي عُهِد إليكن؟» يشير إلى قول الله تعالى مخاطبا نساء النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.[1] أم المؤمنين لما سمعت من خلف حجابها صوتا تعرفه يعاتبها بهذا الرفق البارّ وينصحها لا يكتمها النصيحة قالت: «أبو اليَقْظان؟» قال: نعم. قالت: «والله إِنك -مَا علمت- لقَوّالٌ بالحق!» قال: «الحمد لله الذي قضى لي على لسانِكِ».

ما أسرع ما تسامح الإمام ورجع به الإيمان والأخوة في الله من ميدان القتال إلى تأمل المصير عند الله! هل يسكُن الغِل والحِقد والنِّقمة تلك القلوب وقد تربّت أسمى تربية؟ يَطرأ الضعف البشري والخطأ البشري والنزوة البشرية والخلاف البشري، ثم تطوى الصفحة وترجع المياه إلى مجاريها.

شهِد بسُمُوِّ التربية وسموق الأخلاق أعداء الإمام قبل أحبائه. روى الإمام الشافعي عن الإمام علي بن الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب قال: «دخلت على مَرْوان بنِ الحكَم فقال: ما رأيت أحداً أكرَمَ غلبةً من أبيك! -يعني جده عليا- ما هو إلاَّ أن وَلَّيْنا يومَ الجمل فنادى مُنادٍ: لا يُقتَلْ مُدبرٌ ولا يُذَفَّفْ على جريح -لا يُجْهزْ عليه-».

(1) سورة الأحزاب، 33.

يقارَن هذا الصفح الجميل بالخزي المجسم في يزيد بن معاوية حين جاؤوه بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبِيّاتٍ بعد مقتل الحسين، وجاؤوه برأس الحسين في طَسْتٍ. كان واليه على العراق السفاك ابن السفاك عبد الله بن زياد قد وُضع الرأس الشريف بين يديه، فجعل ينْكت في أسنانه بقضيب ويقول: «في حُسْنه شيْء». ما أجمل الرأسَ يا خبيث! رواه البخاري.

وما أسرع ما ندمت أم المؤمنيين وانتصحت بكلام ابنها أبي اليقظان، ورجعت مكرمة أصْحبَها أميرُ المؤمنين نسوة وخَفَراً من الجند.

ما كان للأم العزيزة من خبرة بما هي الحرب وإن كانت حملت القربَ في أُحد وسقت الجرحى. وعذَرَها الإمام فكان مما قال: استأذنني الزبير وطلحة في العمرة فأخذت عليهما العهود وأذِنْتُ لهما. فعرّضا أمّ المؤمنين لما لا يصلح لها. فبلغني أمرهم، فخشيت أن ينفتق في الإسلام فتق فاتبعتهم.

وذكر الإمام القصة فكان مما قال: أول ما وقعت الحرب أن صبيان العسكرين تسابُّوا، ثم ترامَوْا، ثم تبعهم العبيد، ثم السفهاء، فنَشِبَتْ الحربُ. كذا نقل الحافظ عن الطبري.

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

بنو آدم الخطّاؤون التّوابون

جاء في سنن الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**». وأخرج الحديثَ أيضا الإمام أحمد وابن ماجة والدارمي بإسناد حسن.

وأخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لَذهبَ الله بكم وأتى بقوم يُذنبون فيستغفرون فيُغفَرُ لهم**». زاد على هذا الحديث الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب»: «**لو لم تذنبوا لخشِيتُ عليكم ما هو أشدُّ منه: العُجْب**». وقال: رواه البزّار بإسناد جيد.

تعميم النبي صلى الله عليه وسلم نسبة الخطإ والخطيئة إلى بني آدم لا يحط من تكرمة الله للمُكَرّمين من بني آدم، بل هو كشف عن طبيعة الطينة الآدمية التي زرع الله عز وجل فيها بذور المخالفة بما يغلب على الآدميين من غرائز تتأجج في نفوسهم، وسهو ونسيان، وتحريض إبليسي. أبونا آدم عليه السلام خليفة الله نسي فعصى، حرضه الشيطان وأغواه. فكانت معصيته وإهباطه من الجنة إلى الأرض عقابا في الظاهر، لكنه في الحقيقة معراج وتحقيق لـمُراد الله من خلقه إياه وتسويته إياه بيديه. كيف كان ينال آدم، وكيف كانت تنال حوّاء عفو الله ورضاه لولا ندمهما واستغفارهما وابتهالهما إليه سبحانه حين قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾؟[1]

وليس الحديث النبوي الذي أقسم فيه صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل يستبدل بنا قوما آخرين لو لم نذنب تحريضا على المعصية. كلا، وإنما هو رَبْطٌ على قلوبنا الضعيفة وخوف عليها أن تنكسر إن أحدُنا أو إحدانا اقترفت إثما. إن

(1) سورة الأعراف، 22.

انكسر القلب وانقطع رجاؤنا من عفو المولى سبحانه فذلك اليأس، ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[1]. ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[2].

أين تَقع رحمته وهو الرحمن الرحيم، على من يتنزل عفوه وهو العفو، ومغفرته وهو غافر الذنب غفار غفور، إن لم يكن ثَمّ تائب مستغفر؟ وكيف يظهر فعل التواب سبحانه إن لم يقترف العبد ما منه يُتاب؟

تُفهم الأحاديث خطأً إن شَمّ منها أحد رائحة التشجيع على المعصية. فإن الله عز وجل لا يأمر بالفحشاء، ورسوله صلى الله عليه وسلم لا يدعو إليها. لكن قدَرهُ سبحانه الذي رتب الأحداث وبَنى المسببَات على الأسباب، خزائنه ملأى بالرحمة والعفو والمغفرة، لا تُفْتَحُ إلا بمفاتِح التوبة والاستغفار، ولا توبة إلا من خطإ وخطيئة، ولا استغفار إلا من ذنب.

ثم إن الله عز وجل له من العباد والإماء كفرة فجَرة، وآخرون عصاة غُواة هم أصحاب الكبائر تنالهم الشفاعة، وآخرون محسنون ومحسنات لهم عند الله الزلفى، من جملة ما ينالون به الزلفى التوبة والاستغفار.

المحسنون من عباد الله وإمائه ما هم معصومون. يصفهم الله عز وجل في كتابه الكريم فيقول: ﴿وَلِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[3].

المسيئون العصاة هم مرتكبو الفواحش وكبائر الإثم. واللمم لا ينزه عنه المحسنُون. عن اللمم قال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ما رَأيت

(1) سورة يوسف، 87.
(2) سورة الزمر، 50.
(3) سورة النجم، 30-31.

شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى، أدْرك ذلك لا محالة. فزِنى العينين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفسُ تَمَنَّى وتشتهِي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه». أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود.

الحديث قائم بذاته، وتفسير اللمم بما ذُكر هو كلام ابن عباس. وابن عباس رضي الله عنه وعن أبيه مشهور بسَعة فقهه بين الصحابة وأخذه بالرخص في الإفتاء، عكس عبد الله بن عمر رضي الله عنهما المشهور بالشدائد. والوَرَعُ أن يَفهم المحسنون والمحسنات اللمم على ضوء أمر الله عز وجل بغض البصر: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾.(4)

الورَع أن يُفهم حديث حظ ابن آدم من الزنى على ضوء وصيته صلى الله عليه وسلم لعلي كرم الله وجهه، قال له: «**يا علي، لا تُتْبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة**». رواه أبو داود عن بُريدةَ رضي الله عنه.

بنو آدم المكرمون وبناته المكرمات، صفوة المحسنين بعد الأنبياء عليهم السلام، هم الصحابة والصحابيات رضي الله عنهم وعنهن. همْ لنا نماذج بشرية، ما هم ملائكة معصومون. لو كانوا ملائكة يمشون في الأرض مطمئنين ما صحّ أن يكونوا لنا مَثَلا ونموذجا. الملائكة أرواح في أجسام من نور. ما في داخل كيانهم الأطهر من مُنازِعٍ ينازعهم في طاعة الله والحضور الدائم مع أمره عز وجل. طبعنا أبعد شيء عن طبعهم. ما منهم واحد إلا له عند ربه مَقام معلوم. أما بنو آدم وبناته فهم في الدنيا في دار البلاء والامتحان: يَرْسب هذا، ويترقى ذاك. نَهْيُ النفس عن الهوى وعصيانُ نَزْغِ الشيطان وجهادُ النفس الدائم هو المعراج للرقي.

(4) سورة ر النور، 30-31.

لهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم لنا مثلا. بَشَرٌ هم ما هم معصومون. لِمكانِ النقص فيهم يكمله المجهود، والخطإِ يصححه الصواب، والذنبِ تمحوهُ التوبة، واللمَمِ يلحقه الاستغفار فإذا هو مِرْقاة، كانوا لنا نموذجا صالحا.

الكاملات المجاهدات خير نساءٍ طلعت عليهن الشمس بعد الأنبياء عليهم السلام كن يصبن ويخطئن، ويذنبن فيتبن، ويقترفن اللمم فيستغفرن. وكذلك كان الكاملون المجاهدون: الصحابة رضي الله عنهم.

افترق الناس فِرقتين في شأن الصحابة رضي الله عنهم: من المسلمين من يحرِص أشد الحرص على النظر إليهم بعين التعظيم والتقديس حتى لا يَرضى أن يُذكر أحدهم أو إحداهن بما يجري على البشر. عند المسلمين المحبين للصحابة تطْوى صفحة نزاع الصحابة وأخطاء الصحابة وخلاف الصحابة. موقف هارب من القواصم نجده عند أجيال العلماء الذين لم يحضروا النزاع، ولا لهم بذكر الأخطاء وَلوع، ولا لهم منها درس. شعارُهم تجاهَ خروج معاويةَ على الإمام علي وحربه وبغيه مثل شعارهم تجاه خطإ أمنا عائشة: «تلك دماء عصمنا الله من سفكها، أفلا نعصم ألسنتنا من ذكرها؟».

وانحبس فقه التاريخ الإسلامي، ومن ثَمَّ فقه الدين، في هذا الوقوف الورِع الـمُسالِم الفارِّ بدينه.

وما هكذا كان الصحابة أنفسهم ولا التابعون. إن كان من الصحابة من سكت اتقاء الفتنة وابتغاء السلامة، فإن منهم من قال للظالم: أنت ظالم. قالها حجر بن عدي رضي الله عنه وأصحابُه فقتلهم معاوية بن أبي سفيان. وقالها علماء المدينة فخربها عليهم ابنه يزيد. وقالها عاليةً قائمةً مقاتلةً عبد الله بن الزبير فقتله عبد الملك بن مروان وقائده الحجّاج بعد أن خرب عليه الكعبة، رماها بالمنجنيق، وهو صاروخ ذلك الوقت.

أخرج الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن عامر بن سعد بن أبي وقّاص عن أبيه رضي الله عنه قال له: «أمر معاوية سعدا قال: ما يمنعك أن تَسُبَّ أبَا تراب؟».

قلت: «أبو تراب» كنيةٌ كنّى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا عليا كرم الله وجهه ذات يوم وقد وجده نائما متوسدا الأرض، فعلِق التراب بوجهه. فهي كنية تحَبّبٍ وعطف استعملها بنو أمية لإهانة من شرفَه الله ورسوله وأمروا هم بسبه ولعنه على المنابر ستين سنة.

قال معاوية بن أبي سفيان وهو يومئذ متربع على كرسيه الملكي: «ما يمنعك أن تسُبّ أبا تراب؟ فقال سعد رضي الله عنه: أمَّا ما ذكرتُ ثلاثا قالهن له رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنْ تَكُونَ لي واحدةٌ منهن أحبّ إلي من حُمْر النَّعَمِ. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول -وخَلَّفَهُ في بعض مغازيه- فقال له علي: يا رسول الله! أتُخَلِّفني مع النساء والصبيان؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أمَا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبيّ بعدي**». وسمعته يقول يوم خيبر: «**لأعطيَنّ الراية رجلا يحب اللهَ ورسولَه ويحبه الله ورسوله**». قال: فتطاولْتُ لها. قال (النبي صلى الله عليه وسلم): «**ادعوا لِي عليا**». فأُتِيَ به وهو أرْمَدُ، فبصق في عينيه، ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه».

سعد رضي الله عنه من العشرة المبشرين بالجنة، من السابقين الأولين من المهاجرين، يتطاولُ طمعا أن يكون هو الرجلَ الذي يفضله رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال سعد يتمم حديثه المعترضَ المقاوِمَ لمعاوية: «ولما نزلت هذه الآية ﴿**فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ**﴾[1] دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا رضي الله عنهم ثم قال: «**اللهم هؤلاء أهلي**».

روى أبو زرعة الدمشقي أن الحديث الغاضب من سعد كان في دار الندوة حين حج معاوية، فأخذ معاوية بيد سعد وأجلسه معه على سريره -أي كرسي جلوسه- وأخذ يشتُم له عليا.

(1) سورة آل عمران، 60.

إن كان من الفقهاء الورعين من سكت وانزوى، فإن ذلك انحطاط عن درجة الأئمة. روى السيوطي رحمه الله في «تاريخ الخلفاء» هذه القولة الصريحة الشجاعة عن الحسن البصري أحد أئمة التابعين رضي الله عنهم. قال: «أفسد أمر هذه الأمة اثنان: عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف، وَالمغيرة بن شعبة حين أشار على معاوية بالبيعة ليزيد. ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة».

الفريق الثاني من الناس هم الخائضون في أعراض الصحابة رضي الله عنهم، الروافض المذمومون الناقصون. تغالى بعضهم في علي حتى ألهوه وعبدوه. وكفَّروا الصحابة جميعا ولعنوهم إلا نفرا قليلا منهم. سَبَّ رجلٌ عليا فاستحق الصحابة اللعن. ذلك ما فعلته الفتنة واقترفه الضالون الـمُضلون. نعوذ بالله.

مِلْنا إلى إدراج الحديث عن الصحابيات رضي الله عنهن وما يمثلن من نموذج صالح في السياق التاريخي البشري. ذلكن أن الصحابيات لم يعشن في قارورة مغلقة وبيت مغلق. ذلكن أن منهن من أخطأت الخطأ الفادح ذا الأثر في تاريخ المسلمين. ذلكن أنّ الجهاد والتعبئة ما هما تأمل في المثاليات وغسل الأيدي من أهوال الدنيا وأخطائها وخطاياها. والحمد لله رب العالمين.

«دعوا لي أصحابي»

الحديث رواه الإمام أحمد بسند صحيح والبزار عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**دعوا لي أصحابي. فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثلَ أُحُد ذهبا ما بلغتم أعمالهم**».

صدقت يا رسول الله! فازوا بصحبتك وتربيتك، فأنى لغيرهم أن ينال ذلك المنال! فندعهم امتثالا لأمرك بما وَدعهم القرآن، إذ ذلك قَصْدُك، لا أن نَصِمّ فلا نسمع، ونقرأ فلا نعتبر.

يأخذ الورِعون الفارون بدينهم الأمر النبوي أخذا مطلقا، لا يتكلمون في الصحابة إلا بكل تَجِلّة وإعظام. فيغالون وَيطوون الصفحات الناصعة التي فيها الدرس من تحوُّل الصحابة وترقيهم تحت التربية والتقويم. ما وُلد الصحابة كاملين، ولا استكملوا الإيمان منذ اللحظة الأولى لدخولهم في الإسلام. نحن الباحثين عن مسار تلك التربية العظيمة أشدُّ الناس حاجة للكشف عن المفاصل التربوية، عن لحظات الانتقال من طور لطور، لنستفيد ونحن نعيش فجر يقظة جديدة. ما هي المفاصل التربوية ولحظات الانتقال من جاهلية لإسلام، ومن إسلامٍ تشوبه جَاهلية إلى إيمان، ومن إيمان يُستكمل لإحسان؟

واقعنا فتنة، والفتنة بمعناها القرآني النبوي الموسع اختلاط شديد، وشوبٌ أكيد. وما يخرجنا من الفتنة إلا مثل ما أخرج الصحابة من جاهلية. غيرُ هذا أنْ نكفِّر المجتمع وندَّعيَ الإيمان، فنَفْتاتَ على الحقيقة ونكذبَ على أنفسنا وعلى المسلمين.

ندع الصحابة بما وَدَعَهم كتاب الله تعالى. المسُّ بهم ازدراءً واحتقاراً حِرمانٌ والعياذ بالله. تتبع هفواتهم تشهيراً كفرانٌ بجميل من لولا الله وجهادهم ما وصلنا الإسلام. لكن قراءة ما علَّم القرآن وزجَر ووبّخَ وهدد وخوّف من أجل تلقي

التعليم والزجر والتوبيخ من باب «إياكِ أعني فاسمعي يا جارة!»، ومن باب «الثور يُضْرَب لما عافت البقر» هو عين الاهتداء والاقتداء. نتعلم من القرآن وما علم وزجر كالسامع الحاضر، والمزجور من باب أولى، والـمُوَبخ المحذر من باب أولى، تُضْرَبُ له الأمثال العليا ليجتهد، وتوصف له العوائق النفسية والمراحل التربوية ليسهل عليه الاقتداء.

ما جاء في كتاب الله عز وجل من تقريع -موَجّه أحيانا للرسول- فالقصد الأول والأخير منه نحن معشرَ الأمة. مثلاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾.[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.[2]

نبحث عن الأسوة الصالحة في الصحابيات. هن كُنّ مِثالا يُحتذى لأن الرجال كانوا مثالا. كان الكل مثالا لأن الكل كانوا بني آدم خطائين توابين، ولأن التربية النبوية التي نبحث عن مسارها وسِرِّها صنعت منهم بإذن الله وتوفيقه ما نعلمُ. من الضُّعفِ البشري صنعت يد الله القوة، ومن الهزائم صنعت النصر، ومن الذل صنعت العزة، ومن الجبن الشجاعةَ.

في بدر الكبرى قال الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا﴾.[3] وقال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾.[4] في أحد وبّخ تعالى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾.[5] وقال عز وجل: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾.[6] في الخندق امتنَّ الله

(1) سورة الإسراء، 75-74.
(2) سورة الزمر، 62.
(3) سورة آل عمران، 122.
(4) سورة آل عمران، 123.
(5) سورة آل عمران، 155.
(6) سورة آل عمران، 165.

تعالى ووصفَ: ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾.[7] في العسرة نزلت سورة التوبة بكاملها تصف خيانة المُخَلَّفين من المنافقين وتخاذل بعض المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾.[8] وقال تعالى وهو التواب الرحيم: ﴿لَقَدْ تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.[9]

تلك قصة كعب بن مالك وصاحبيْه ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت ندما، كما ضاقت بالمسلمين خوفا في حنين كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴾.[10]

إننا إذا قرأنا آيات البطولة والشجاعة والخلق العظيم عند الصحابة والصحابيات دون أن نُلِمَّ بمواطِن انهزموا فيها، وأخرى زلزلوا فيها، وأخرى أخطأ فيها بعض، وأخرى زل فيها بعض، وأخرى تصرف فيها بعض تصرفا هو إلى فعل الجاهلية أقرب، فإنما نُبعد عنا المثل ونرفع البشر إلى مقام الملائكة، وبذلك يفوتنا الاعتبار، وتفوتنا العِبرة.

طابت الثمار في صيف سنة شديدة مُجدبة وحر شديد وقلة من الزاد والماء. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى التعبئة العامة لغزو تبوك، وكان قبلها

(7) سورة الأحزاب، 10-11.
(8) سورة التوبة، 38.
(9) سورة التوبة، الآيتان: 118-119.
(10) سورة التوبة، 25-26.

يُعَيِّن للقتال بعضا دون بعض. وصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه شدة الحال في تلك الغزوة التعبوية قال: «نزلنا منزلا فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، وحتى إِنْ كان الرجل ليذهب يَلتمس الماء فلا يرجع حتى يظنّ أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصِر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده». وكانت معجزة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ونزول مطر غزير.

في غزوة العسرة هذه ظهرت آيات البذل والعطاء: جاء أبو بكر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بماله كلِّه، وجاء عمر بشطر ماله، وجهز عثمان ثلاثمائة بعير، ولم يكن لعلي مال فيُعْطِيَ. وظهرت وسط هذه الصفحة الناصعة نُكتة أشار إليها القرآن وحفظت قصتها السنة لأنها موطن درس مكمِّل، تنقُص دلالة الدرس البطولي إن حُذِفَتْ منه القصة، وتَقِلُّ نصاعة الصفحة إن لم تُبرِزْها ضعْفة كعب بن مالك وصاحبيه، وندمهم، وتوبة الله عليهم.

تخلف كعب بن مالك ومَروان بن الربيع وهلال بنُ أمية. مَا عبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنافقين المتخلفين وكانوا بضعة وثمانين رجلا، وإنما عذرهم ففضحهم القرآن وخلّد في تصنيفهم آيات تتلى إلى يوم القيامة كما تتلى آيات وصف الأقوام الغابرة. لكنَّ تَخَلُّفَ كعبٍ وصاحبيه شكَّلَ بعد رجوع النبي صلى الله عليه وسلم حَدثا مهما، لأنهم كانوا من صالحي المؤمنين. عثروا عثرة مؤلمة.

قاطعهم النبي صلى الله عليه وسلم وقاطعهم الصحابة، وقاطعتهم نساؤهم. تصف امرأة كعب كعبا في ندمه قالت: «وإنه والله ما به من حركة إلى شيء. وإنه والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان». وكان يوم نزول آية التوبة على المؤمنين وعلى كعب وصاحبيه يوم عيد، ركب الفرسان ليبلغوا البشرى. في قراءة قصته الطّويلة المتفق عليها عبرة من ندمه وصدقه رضي الله عنه.

إن كانت عثرة كعب بن مالك وصاحبيه قضيةَ أفراد فإن عثرةَ حاطبٍ بْنِ أبي بَلتَعَةَ قضيةُ أُمَّة. حاطب بن أبي بلتَعة رضي الله عنه من أهل بدر، تلك المعركة

التي أسس الله بها الإسلام ومكن له في الأرض. لما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على غزو مكة عام الفتح السنة الثامنة، أمر المسلمين بالخروج دون أن يُشيع الاتجاهَ ليحفظَ سِرَّ الحركة ويفاجِئَ قريشا بعد أن نقضت هي وحلفاؤها عهد الحديبية. لم يُقَدِّرْ حاطب خُطورة الموقف، كان وعيه السياسي وخبرته العسكرية في درجة الصفر، فأرسل إلى قريش رسالة مع امرأة يخبرهم بمسير النبي صلى الله عليه وسلم إليهم.

خيانة عظمى كان يكون فعل حاطب لولا سابق عناية الله به وبالمؤمنين. نزل الوحي، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا والزبير والمقداد فحبسا المرأة. وقال عمر: يا رسول الله! دَعني أضربْ عُنُقَ هذا المنافق! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنه قد شهِد بدرا، وما يُدريك! لعل الله اطَّلع على من شهد بدرا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**». رواه البخاري.

حسنة عظيمة سبقت فمحت سيئة عظيمة: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾.(1) وكان عذر حاطب أنه كان لصيقا وحليفا لقريش ولم يكن من عشيرتهم، فأراد أن يتخذ عندهم يَدا ليحمُوا قرابته. وعيٌ لا يميز بين مراتب الأحوال وأهمية الأفعال.

أبو لُبابة بشير بن المنذر كان من أعيان الأنصار. استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة يوم بدر، واستعمله في غزوة السّويق وفي غزوة بني قيْنُقاع. حاصر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بني قريظة اليهود الذين غدروا بالمسلمين وتألبوا عليهم في غزوة الخندق مع قريش والأحزاب. فلما اشتد عليهم الحصار طلبوا أن يستشيروا أبا لُبابة. فذهب إليهم، فقام إليه الرجال وجَهَش إليه بالبكاء النساء والصبيان، فأشفق ورَقَّ. فلما سألوه عن مصيرهم إن هم نزلوا على حكم النبي صلى الله عليه وسلم أشار بيده إلى حلقه: إنه الذبح. وندم أبو لبابة على فلتته أشد الندم. فربط نفسه إلى عمود في المسجد وقال: «إني خنت الله ورسوله. لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله علي».

(1) سورة هود، 114.

نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوبة على أبي لبابة وهو في بيت أم سلمة رضي الله عنها، فاستأذنت النبي صلى الله عليه وسلم فأذن لها، وأسرعت بالبشرى إلى أبي لبابة. فأبَى أن يُطْلِقَ سراح نفسه حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم ففك رباطه.

عند الشيخين عن أنس رضي الله عنه أن ناسا من الأنصار لم يعجبهم ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حنين حين أعطى رجالا من قريش يتألف قلوبهم، ولم يعط الأنصار شيئا. احتجاج ومعارضة! قالوا: «يغفِر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم! يعطي قريشا ويتركنا وسيوفُنا تقطر من دمائهم!».

جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس خاص وقال: «**فإني أُعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألّفُهم. أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله؟ فوالله لَمَا تنقَلبون به** (ترجعون به) **خير مما ينقلبون به**». وهكذا أرضاهم صلى الله عليه وسلم بعد أن كادت تعصف الدنيا بهم.

الحديث النبوي الذي عَنْونّا به هذه الفقرة خاطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم خالدا بن الوليد، وما أدراكُن ما خالدٌ سيف الله! بطل الإسلام العظيم. أسلم خالد قُبيل الفتح، فتح مكة، في السنة الثامنة. ومنذ إسلامه ملأ الساحة ببطولاته، فأنقذ موقف المسلمين أمام جيوش الروم الجرارة في غزوة مُؤتة في نفس السنة. وقاد كتيبة يوم الفتح.

بعد الفتح أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قبيلة جَذِيمة ليدْعُوَ لا ليقاتل. كانت مدة تربيته قصيرة جدا. كان حديثَ عهد يومَها بجاهلية. كان في مرحلة مراهقة دينية. وكان رجل سيف. لم يَعِ ما أُمِرَ به فكتَّف الناس وأمر بقطع الرُّؤوس. وكان معه سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقال له: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام! غضب خالد وخاصم، فكان حديث «**دعوا لي أصحابي**» جزءا مما وبخ به رسول الله صلى الله عليه وسلم خالدا.

لم يُحسِنْ بنو جذيمة أن يقولوا «أسلمنا» لما دعاهم خالد إلى الإسلام. فجعلوا يقولون «صَبَأْنا! صبأنا!». فقتل خالد. فلما قدِم الصحابة على النبي صلى الله عليه وسلم وأخبروه الخبر رفع يديه وقال: «**اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد**». ألحقنا الله بخالد وبالصالحين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

خشية الله ومحبة رسول الله

في فصل سابق ركزنا على حب الله تعالى وحب رسوله والحب فيه. وذلك فقه مغيّب، مسكوت عنه. وذلك فقه لا يكمُل إلا بفقه لازِمَتُه ونتيجتُه هي خشية الله وتقوى الله. علامة صدق المحبة في الله أن يَسْرِي بين القلوب، من قلب لقلب، حب الله وحب رسول الله. وعلامة رسوخ حب الله ورسوله في القلب نشاط الأعمال القلبية يتلجلج فيه ويتعاقب الخوف والرجاء. من أَحَبَّ في زعمه ولم تظهر عليه وفيه الخشية والتقوى فقد غوَى. ومن دهَمه الخوف حتى لم يبق مكان للرجاء فيئِس وقنَط فقد هوى.

الخوف من الله ومن عذاب الله خوف على النفس من العقاب. والتقوى جَعْلكِ العمل الصالح وقاية بينَك وبين ربِّكِ. والخشية خوف يشوبه التعظيم ويبعثه العلم. لمن خَافت مقام ربها جنّتان، ولمن اتقت ربها حب الله لها، وخشية الله مقامُ الرسل ومقامُ أولي العلم. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾.[1] وقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.[2]

خص الله عز وجل الصحابة بصحبة سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم، فتلك مزية لا يلحقهم فيها لاحق. كانت لهم القُدوةُ من سلوكه، والتعلم من حديثه. وكان لهم على الخصوص الشُّربُ المباشر من قلبه الكريم على الله. قلوب شربت من قلب. إذا رتَّبْنَا مآتِيَ التربية ومآخذها حسبَ أهميتها قلنا: الصحبة تشرُّبٌ قلبي، وقدوة ماثلة، وتعلُّم.

«**المرء على دين خليله**». لا عجب أن اجتذب مغناطيس القلب النبوي المنور القلوب فأحبته أشدّ ما يكون الحب، فأتَى القلوبَ مِنْه الدين، وأخذت القلوبُ منه الدين.

(1) سورة الأحزاب، 39.
(2) سورة فاطر، 28.

إن كانت القدوة وكان التعليم يهديان للأعمال الظاهرة، فإن أعمال القلب يأخذها قلب عن قلب مباشرة على أثير المحبة.

كان حبيب الله صلى الله عليه وسلم، وهو قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبِهِ وما تأخر -نصا قرآنيا- أشد الناس خشية من ربه، لأنه كان أعلمهم به وأقربهم إليه. روى الشيخان والترمذي عن أمنا عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأَيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مستَجْمِعا قَطُّ ضاحكا حتى تُرَى منه لَهَوَاتُه (اللهوة اللحمة في أقصى الحلق). إنما كان يتبسم». قالت رضي الله عنها: «فكان إذا رأى غيْمًا (سحابا) عُرِفَ في وجهه. قلت: يا رسول الله! الناس إذا رأَوْا الغيم فرحوا، رجاءَ أن يكون فيه المطر. وأراك إذا رأيت غَيما عُرف في وجهك الكراهية! فقال: **«يا عائشة! ومَا يُؤَمِّنُنِي أن يكون فيه عذاب؟ قد عذِّبَ قومٌ بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا:** «هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا»».

وأخرج الترمذي بإسناد حسن عن أبي ذر الغِفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنِّي أرى ما لا ترَون، وأسمع ما لا تسمعون. أطَّتْ السماءُ** (كثرت فيها الملائكة حتى كأنها ترفع صوتها كما تفعل الإبل إذا حملوا عليها)، **وحُقَّ لها أن تَئِطَّ. ما فيها موضع أربَع أصابِعَ إلاَّ وملَكٌ واضِعٌ جبهته لله ساجدا. والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتُم كثيرا، وما تلذّذْتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدَات** (الطرُق) **تجأرونَ** (تستغيثون) **إلى الله. لَوَدِدْتُ أني شجَرةٌ تُعْضَدُ** (تقطع)».

دخل صلى الله عليه وسلم على شاب وهو في الموت فقال: «كيف تجِدُكَ؟» قال: أرجو الله يا رسول الله، وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطِن إلا أعطاه الله ما يرجو منه، وآمنه مما يخاف**». رواه الترمذي عن أنس بسند حسن.

وأوصى صلى الله عليه وسلم عقبة بن عامر قال: «يا عُقبة! احرُس لسانك، ولْيَسَعْك بيتك، وابْكِ على خطيئتك». رواه الإمام أحمد والترمذي عن عقبة.

وكذلك كانوا رضي الله عنهم: بكّائين أوابين أوّاهين من خشية الله. سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فَرَّ من ميدان القتال في سَرِيّة من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: «بعَثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرِيّة، فلما لقِينا العدوّ انهزمنا في أول غادِية (صباح). فقدِمنا المدينة في نَفَرٍ ليلا فاختفينا. ثم قلنا: لو خرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتذرنا إليه. فخرجنا إليه ثم التقيناه فقلنا: نحن الفَرّارون يا رسول الله! فقال: «**بل أنتم العَكّارون (الكَرَّارون) وأنا فِئَتُكم**». رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر. في رواية: «فررنا من الزحف وبُؤْنا بالغضب». إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ**﴾.[1]

غلب عليهم الخوف فاختفَوْا، فعدَّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكِفَّة. وفرَّ في واقعة الجَسر في خلافة عمر صحابي اسمه سَعْد القاري، فأخذ يبكي ويتحسر حتى سنحت له الفرصة فرجع إلى الأرض التي انهزم فيها فقاتل في وقعة القادسية حتى قُتِل رضي الله عنه.

أحبوه واتخذوه خليلا، فتخلّل دِينُه قلوبهم. هو صلى الله عليه وسلم وَدّ لَوْ كان شجرة تُعضَد خشية من ربه عز وجل. فكذلك نجد صاحبه أبا بكر رضي الله عنه. روى ابْن أبي شيبة وهنَّاد والبيهقي عن الضحَّاك قال: «رأى أبو بكر الصديق رضي الله عنه طيرا واقفا على شجرة فقال: طوبَى لك يا طيرُ! والله لَوَدِدْتُ أني كنت مثلك، تقع على الشجر، وتأكل من الثمر، ثم تطير وليس عليك حساب ولا عذاب! والله لَوَدِدتُ أني كنت شجرة إلى جانب الطريق، مر عَليّ جمل فأخذني، فأدخلني فاهُ، فلاكَنِي ثم ازْدَرَدَنِي (مضغني وبلَعني) ثم أخرجني بَعَراً ولم أَكُ بشرا!».

وروى ابن سعد أن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقَدْ طُعِنَ، فقال له: «أبشِرْ بالجنة! صاحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطَلْت صحبته، ووُلِّيت أمر المؤمنين فَقوِيتَ وأدّيت

(1) سورة الأنفال، 16.

الأمانة. فقال عمر: أما تبشيرك إيّاي بالجنة فوالله الذي لا إله إلا هو! لَو أنّ الدنيا وما فيها لي لافتديت بها من هَوْلِ ما أمامي قبل أن أعلم الخبر! وأما قولك في إمرة المؤمنين، فوالله لَوَدِدْت أن ذلك كَفَافٌ لا لِي ولا علَيّ. وأما ما ذكرت من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فذاك (أي ذاك ما أرجوه)». وذكر ابن سعد أن عمر سأل ابن عباس أن يعيد عليه كلامه، فلما فعل قال: «أتشهد بذلك عند الله يوم تلقاه؟ قال: نعم! ففرح عمر بذلك وأعجبه».

وروى أبو نُعيم عن عبد الله بن عمر قال: «كان رأسُ عُمَرَ على فخذي في مرضه الذي مات فيه. فقال لي: ضع رأسي على الأرض! قال: فقلت: وما عليك كان على فخذي أم على الأرض؟ قال: ضعه على الأرض! قال: فوضعته على الأرض فقال: ويْلي ووِيلَ أمي إن لم يرحمني ربي!».

خشية الله ثمرة العلم بالله، خشية الله دين شرِبه الشاب والكهل من القلب المنوّر. أحبوه الحب الخارق فأفاض عليهم من بركة محبته ما صيَّرهم إلى أن ما نقرأ من آيات التقوى، والشجاعة، ونبذ الدنيا، والإقبال على الآخرة، والشغَفِ بذكر الله والشوق إلى لقاء الله، وخوف لقاء الله.

حب تكشف لنا عائشة رضِي الله عنها نموذجا منه، قالت: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! إنك لأحب إلَيّ من نفسي! وإنك لأحبُّ إليَّ من وَلدي! وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبرُ حتى آتِيَ فأنظُرَ إليك. وإذا ذكرتُ موتي وموتك، عرفت أنك إذا دخلتَ الجنة رُفعت مع النبيئين، وأني إذا دخلت الجنة خَشِيتُ أن لا أراك. فلم يَرُدَّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم شيئا حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ﴾[1]. أخرجه الطبراني بسند صحيح.

يثبُت على حبه الرجال والنساء، ويَنشأ على حبه الصغار. روى الطبراني عن أنس رضي الله عنه قال: «لما كان يومُ أحُدٍ حاص أهل المدينة حَيْصة (اضطربوا

(1) النساء، 68.

وفروا) وقالوا: قُتِلَ محمد حتى كثرت الصوارِخُ (الباكيات الصارخات) في ناحية المدينة. فخرجت امرأة من الأنصار محرمة، فاستُقْبِلتْ بأبيها وابنها وزوجها وأخيها (أخبرت بأنهم قُتلوا)، لا أدري أيّهم استُقبلت به أولا. فلما مرت على أحدهم قالت: من هذا؟ قالوا: أبوك، أخوك، زوجُك، ابنك. تقول: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ يقولون: أمامَكِ. حتى دفَعَتْ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت بناحية ثوبه ثم قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لاَ أُبالي إذا سلمتَ مَنْ عَطِبَ!» والقصة يرويها أيضا ابن اسحاق، وفي روايته تقول المرأة حين رأته صلى الله عليه وسلم حيا: «كل مصيبة بعدك جَلَلٌ (هينة)».

حب عظيم يفدي المحبوب بالروح. في أُحُد كان لأم عُمارة موقفها الخالد. وكان أبو طلحة يرفع صدره ليتلقى النبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول: «هكذا! بأبي وأمي أنت يا رسول الله! لا يصيبُك سهم. نَحْرِي دون نحْرك!». كذا رواه الإمام أحمد.

طلحة بن البراء غلام جاء إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم فجعل يَلْصَقُ به ويُقبل قدميه. قال: «يا رسول الله! مُرْني بِما أحببتَ ولا أعصي لك أمرا! فعجِب لذلك النبي صلى الله عليه وسلم وطلحة غلام صغير. ومرض الغلام مرض الموت، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُعْلِمُوه إذا مات ليصلي عليه. لكن الغلام -وهو يُحْتَضَرُ- قال لهم: ادفِنوني وألْحقوني بربي عز وجل، ولا تدْعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإني أخاف عليه اليهود أن يُصاب في سَببي! فلما أصبح الصباح وأخبروا النبي صلى الله عليه وسلم جاء فصف الناس أمام قبر طلحة ورفع يديه فقال: **اللهم الْقَ طَلحة تضحك إليه ويضحك إليك**». رواه الطبراني وحسّنه الهيتمي.

في جِدِّ القتال يُفتدَى المحبوب صلى الله عليه وسلم بالأرواح، وفي سكرات الموت تُؤْثر سلامته على رحمةٍ خاصةٍ تُرجى من حضُوره. وتغطي محبته الهفوات والعثرات. روى ابن عساكر عن الزهري قال: «شُكِيَ عبدُ الله بن حُذافةَ رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه صاحب مِزاحٍ وباطل. فقال: «**اتركوه! فإنَّ له بطانة يحب الله ورسوله**».

الناس على درجة محبتهم، وعلى دين من يحبون، وعلى قدر قلب المحبوب. لذلك فرح الصحابة رضي الله عنهم فرحا شديدا يوم أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن المرء مع من يُحب. قال أنس: «فما فرحنا بشيء فَرَحَنا بقوله صلى الله عليه وسلم: «**أنت مع من أحببت**». قال أنس: فأنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم». رواه الشيخان. وعند الترمذي أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم قائلا: يا رسول الله! الرجلُ يحب الرجل على العمل من الخير يعمل به ولا يعمل مثلَهُ؟ فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم: «**المرء مع من أحب**».

نعود ثم نعود إلى رأس الحكمة: وهي: «الصحبة أولُ الطريق». ما كانوا صحابة إلا لأنهم أحبوا. وتركوا فينا الوصية بالصحبة كما سمعوها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكما ذاقوا هم المحبة، وكما أدركوا أهميتها القصوى. قال سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كما أخبر مجاهد ونقله المُناوي: «فإنّك لا تنال الوِلاية إلا بذلك، ولا تجد طعم الإيمان حتى تكون كذلك». يعني الحب في الله والبغض في الله. والله ولي المؤمنين.

بسط الدنيا

ما سكنت خشية الله في قلوبهم وقلوبهن إلا لأنهم أحبوا وأحببن من يخشى الله. امتزج في آدميتهم الخطاءة التوابة ما هو نور على نور في بشريته المعصومة صلى الله عليه وسلم. حذرهم من بسط الدنيا وفتنتها، ولولا الوصلة القلبية والقدوة الفعلية لكانت الوصية كلاما. حثهم على جهاد النفس وكفها وامتلاك زمامها، ولولا آيات جِهاده المتلوة والعملية المؤيدة بنصر الله لكان حديثا يذهب اليومُ منه بذكرى الأمس.

أوصاهم صلى الله عليه وسلم قال: «المجاهد من جاهد نفسه». أخرجه الإمام أحمد والترمذي عن فُضالَةَ بنِ عَبيد بسند صحيح. أوصاهم بجهاد النفس الصابئة إلى الدنيا الراغبة فيها.

التعبئة جهاد نفس، إصلاح ذات قبل مناداة غيرٍ. تُعبِّئين أُمَّةً وأنتِ أَمَةٌ للشهوات، أسيرة في شَرَك الدنيا وشِرْك التقاليد والعادات لا تستطيعين تخالفينها! تُربِّينَ بناتِك وأبناءك إن كانت نَفْسُكِ سيدة الموقف لا عقلُكِ المؤمن وقلبُكِ العامر بحب الله وخشية الله! تعبئة أمة قَلْبُ عالم. كيف تقلبين العالَمَ وأنت لما تتوبي توبة الذي ربط نفسه بعمود المسجد لزلة زلها! ربطُ جسم عصَى لتُرْبَط نفسٌ أمَرَتْ بالمعصية.

لو حذرهم صلى الله عليه وسلم وما كان قدوة، وزهّدهم في الدنيا وما كان أزهدَهم فيها، وعَبّأهم بالشعارات والخطب وما كانت حقيقتهُ مثالا لما دعا إليه، لَما كانوا هم هُم، ولما كنّ هنّ هنّ. كيف يصرف وجوههم إلى الآخرة وإلى إرادة وجه الله لو لم يكن هو ينبوع الإرادة وقدوة التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار البقاء! محبة أصّلَت الصحبة، صحبة أثمرت ذكر الله وخشية الله، صدق التقى به تصديق فاعتنقه. ﴿وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ﴾.[1]

(1) سورة الزمر، 32-33.

شوَّقهم إلى لقاء الله فاشتاقوا لِما يروْن من دلائل قربه من ربه. قال لهم: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**». أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه. خطبهم يوما فقال من أعلى منبره: «**إن مما أخاف عليكم بعدي ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها**». وضرب لهم مَثَل الحياة الدنيا والراتع فيها الغافل عن الله بدابة أكَلت خَضِراً فثلَطت وبالت ثم رتعت. وقال: «**وإن هذا المال خضِرٌ حُلو، ونِعْمَ صاحبُ المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل، وإن من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة**». رواه الشيخان والنسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

علَّم صلى الله عليه وسلم بالكلمة، وعلم بالقدوة، وعلم بضرب الأمثال: «مر بالسوق داخلا من بعض العوالي (أطراف الجبل)، والناس كنَفتيه (حواليه)، فمر بجَدْيٍ ميتٍ أسَكَّ (مقطوع الأذنين)، فتناوَلَهُ وأخذ بأذنيه، ثم قال: **أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟** قالوا: ما نحب أنه لنا بشيءٍ! ما نصنع به! إنه لو كان حيا كان عيبا، إنه أسك! قال: **فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم**». أخرجه مسلم عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه.

بعد حياة زاهدة في الدنيا أشد الزهد، وقُبَيل وفاته صلى الله عليه وسلم، زار قتْلَى أُحد كالمـُوَدِّع للأحياء والأموات، فصلى عليهم، ثم صعد المنبر فقال: «**إني بين أيديكم فَرَطٌ** (سابق أمامكم) **وأنا عليكم شهيد. وإن موعدَكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا. وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا. ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تَنافسوها**». رواه البخاري عن عقبة بن عامر رضي الله عنه. قال عقبة: فكانت آخِرَ نظرة نَظَرْتُها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

من هجم على الدنيا ليغير الدنيا وحبُّ الدنيا مِلء نفسه حقيقٌ أن تصرعه الدنيا وتُنْسِيَه الآخرةَ.الدنيا التي بدأ فتحُها في زمن النبي صلى الله عليه وسلم واستمر بعدَه بقوة الانطلاقة الأولى كانت دنيا قبلية وزراعة وانكفاء أقوام عن أقوام. ونحن دنيانا الحاضرة، وما يتراءى في المستقبل أفحش، هي دنيا صراع على البقاء بين

حضارة مادية علومية غنية مسلحة غازية، وبين مستضعفين ما لهم من مقومات القوة شِرْوَيْ نقير بالنسبة لغيرهم. كثرت حاجاتنا المعاشية من دنيانا، وقلت جدوانا، وكثُرت المُغْريات من حولنا في القرية العالم، في العالم السوق. فإن كانت قراءتُنا لزهد النبي وأصحاب النبي نافعةً فَليس من التمثّل بنمط تقشفهم وتقللهم من الدنيا، لكن من التشبع بروح الترفع عن الدنيا وقناعة القلوب من متاعها وزينتها.

كان الفقرُ عاما في ذلك المجتمع المثالي، والتفاوت الطبقي لا يتجاوز امتلاك الغني بضعة أجْمُلٍ وحديقة نخل. انبَسطت الدنيا على الأمة، ثم انزوت، ثم امتدت، ثم انجزرت على مدى قرون. واختل ميزان العدل، فالأمة نفط يفيض دولارات بألوف ألوف الألوف تذروها الرياح في حرب العرب على العرب، والأمة جوع وبؤس وعُري وموت. يَزهدُ روّاد الكازينوهات يقال فيها للنادل والغانية زِهْ! وتعطى ألف دولار أو مليون دولار؟ أو يزهد جيوش من الشباب العاطل انسدت أمامه الآفاق؟ أو يزهد مساكين البنغلاديش والسوائم البشرية في أفريقيا؟

كيف يجمع الزهد هذه المتناقضات والإيمانُ بالله وباليوم الآخر خابٍ في الأفئدة؟ كيف نأتمر بالزهد والعالم من حولنا تنافس بلا نهاية، وترَفٌ يلطِمُ وجه الفقر، والنَفطيُّ يتألَقُ في عباءته الذهبية الفضفاضة الطاعمة الكاسية جنبا إلى جنب مع الـمُرابي السويسري وأمير العالم الياباني في أعلى درجة الدخل الفردي السنوي؟

الزهد تربية وإيمان وتوجه كلي للآخرة. الزهد رُوح تظهر فضيلته مع الفقر العام، لا كُلْفة عليه إلا جهاد النفس وكفها عن التنافس في الدائرة المحدودة. وعلى الزهد لتظهر روحه في عالم التنافس الكلِي في العالم السوق الهائج المائج كُلَفٌ منها جهاد التنمية، وجهاد العدل، وجهاد تحرير الأمة، وجهاد تحرير عقل الأمة، وجهاد كفاح أعداء الأمة، وجهاد صون الأمة عن الوباء من كل نوع، وجهاد توحيد الأمة.

تعبئة شاملة وجهاد شامل. وإلا فالموت. جهاد النفس وتربية أجيال، وإلا فالتعبئة خيال. لذلك نستنطق المثال النبوي الصحابي، ثم نستنطق. ونستلهم ثم نستلهم.

قالت أمنا عائشة رضي الله عنها: «كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه نارا، إنما هو التمر والماء، إلاّ أن يُؤتى باللُّحَيْمِ». في رواية: «ما شبِع آلُ محمد من خُبز البُر (القمح) ثلاثا حتى مضى لسبيله». في رواية أخرى: «ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم». في رواية أخرى: «ما أكل آل محمد أُكلتيْن في يوم واحد إلا وإحداهما تمر». هذه روايات البخاري ومسلم عنها رضي الله عنها.

قال النعمان بن بشير رضي الله عنه وقد عاش حتى رأى كنوز كِسْرى تُساق إلى عمر: «ذكر عمرُ ما أصاب الناسُ من الدنيا فقال: «لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظَلُّ اليومَ يلتوي، ما يجد من الدَّقَل (التمْر الرديء) ما يملأ به بطنه». رواه مسلم. لا يجد لأنه صلى الله عليه وسلم كان يصرف أموال المسلمين مصارِفَها، فكان يُعطي ما بين جبلين من غنم وإبل. لكنه لنفسه كان مالكا، وعلى بطنه الشريف كان يربط الحجرَ من الجوع.

مات صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعا من شعير. رواه الشيخان والنسائي عن أمنا عائشة رضي الله عنها. وعنها روى الشيخان والترمذي قالت: «تُوفِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عندي شيءٌ يأكله ذو كبِد إلا شَطْرَ (نصف كيل) شعير في رَفٍّ لي. فأكلت منه حتى طال عليّ، فكِلتُه ففنِيَ».

بعد وفاته صلى الله عليه وسلم دخل يومـًا على سلمى امرأةِ أبي رافع رضي الله عنهما الحسَنُ بنُ علي وعبدُ الله بنُ جعفر وعبد الله بنُ عباس رضي الله عنهم فقالوا لها: «اصنعي لنا طعاما كان يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلُه. فقالت: يا بَنِيَّ! إذاً لا تشتهونه اليوم! قالت: فقمت، فأخذت شعيرا فطحنته

ونسَفته (نفختُ على النُّخَالة) وجعلت منه خبزة. وكان أُدْمُه الزيتَ. ونثرت عليه الفُلْفُلَ فقرَّبتُه إليهم وقلت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب هذا». رواه الطبراني بإسناد جيد.

هو صلى الله عليه وسلم كان المثَل الأعلى في العزوف عن الدنيا. كانت الجنة والنار والحوض يراها رأي القلب ورأي العين. غيره من المؤمنات والمؤمنين يصدقون، فتارة تغلب جاذبية متاع الدنيا، وطورا يحضر الإيمان وخشية الله واحتقار الملذاتِ والمالِ في جنب ما عند الله.

وكان الصحابيات والصحابة درجات في هذا المعنى. أنسٌ يقص خناقه مع أم أيمن رضي الله عنها الحاضنةِ المدلّلَةِ، وهو كان غلاما يومئذ في الرابعة عشرة أو نحو ذلك. قال: «كان الرجل يجْعل للنبي صلى الله عليه وسلم النخلات (ليجْنيَ تمرها) حتى افتتح قريظة والنضير. وإنّ أهلي أمروني أن آتي النبي صلى الله عليه وسلم فأسْأَلَه الذي كانوا أعطوه أو بعضه (أي ليرد عليهم نخلهم). قال: وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أعطاه أمَّ أيمنَ. فجاءت أمّ أيمن، فجعلت الثوب في عنقي تقول. كلا! والذي لا إله إلا هو لا يعطيكم وقد أعطانيها -أو كما قالت- والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: لكِ كذا. وتقول: كلا والله! حتى أعطاها -حسبتُ أنه قال- عشرة أمثاله». رواه البخاري.

خِناق على الدنيا بين مؤمنة ومؤمن. ما كان أهون ما أحوجت الفاقة للنزاع عليه! أخرج ابن سعد عن أم دُرّة خادمةِ عائشةَ رضي الله عنها أنها أتتها -لعله في عهد عمر- بمائة ألف وهي صائمة، ففرقتها. قالت أم درة: «فقلت لها: أما استطعت فيما أنْفَقْتِ أن تشتري بدرهم لحما تفطرين عليه؟ فقالت: لو كنتِ أذكَرْتنِي لفعلت». طراز آخر من التربية، ودرجة، وعهد انبسطت فيه الدنيا وفاضت بمآت الآلاف.

وأخرج ابن سعد بسند صحيح أن عمر في خلافته بعث إلى أم المؤمنين سودةَ رضي الله عنها بغِرارة من دراهم (كيس كالذي تخزن فيه الحبوب). فقالت: ما هذه؟ قالوا: دراهم. قالت: في غرارة مثل التمر! ففرقتها.

وأخرج بن سعد عن بَرَّة بنتِ رافع قالت: «لما خرج العطاء أرسل عُمَرُ إلى أم المؤمنين زينب رضي الله عنها بالذي لها. فلما أُدْخِل عليها قالت: غفر الله لعمر! غيري مِن أخواتي كان أقوى على قَسم هذا مني! قالوا: هذا كله لكِ! قالت: سبحان الله!».

قلت: ما أسْمى ما ربى المربّي! لم تر المال إلا شيئا يُقْسم على المحتاجين، لا أفاعيَ متربصة في الخزائن. قال الراوي: واستترت من المال بثوْبٍ، وقالت: ضعوه واطرحوا عليه ثوبا. قلت: وهل امتثل أحد تحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا كما امتثلت أم المؤمنين! قال الراوي: ثم قالت لبرة: أدخِلي يدك فاقبضي منه قبضة فاذهبي بها إلى بني فُلان وبني فلان من أهلِ رحِمِها وأيتامها. حتى بقيت منه بقية تحت الثوب.

قال الراوي: فقالت لها برة: غفر الله لك يا أم المؤمنين! والله لقد كان لنا في هذا حق! قالت: فلكم ما تحت الثوب. قالت: فوجدنا ما تحته خمسة وثمانين درهما. ثم رفعت يدها إلى السماء فقالت: اللهم لا يُدْرِكْني عطاءُ عمر بعد عامي هذا. فماتت رضي الله عنها وأرضاها.

في الحديث أن المال الذي لا يزكى يأتي صاحبه إلى القبر على صورة شجاع أقرع (ثعبان عظيم). تسترت أم المؤمنين من الثعبان تصديقـاً ودفعت عنها البلاء.

اللهم ارحمنا كما رحمتهم واهدنا كما هديتهم.

دروس تربوية

لعلنا وقد عرَّجنا على منعطفات ومستقيمات من حياة الصحابة رضي الله عنهم نقرأ حياة عائشة وأسماء وسائر المجاهدات قراءة جديدة. نقرأهن على أنهن دروس تربوية تطبيقية مِن هُدَى الله وهَدْيِ المصطفى صلى الله عليه وسلم. دروس تتحدانا وتعلمنا وتقرِّب إلينا لنتحلَّى بالروح ونتحلى بالخلق وننبعث بالإرادة في بيئة أخرى أشد تعقيدا وأعظم ابتلاء من بيئتهن.

قص الله عز وجل على المصطفى أحسن القَصص من جهاد الرسل قبله وقال له: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾.[1] ولنحن العصاة التائبون أحوج إلى قدوة من المعصوم صلى الله عليه وسلم. لنحن في غثاثَة أنفسنا، ومأزق أمتنا، وخمول إِرادتنا، وفداحة ابتلائنا أحوج إلى مثال قوي، مثال حي، مثال منتصرٍ لَمَّا جاهد نفسه فطوّعها لتسير مجاهدة في سبيل الله. الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم هو القدوة. لكن أين نحن في حضيض ترَدّينا من مقام العصمة! هو إمام الصحابة وإمامنا، لكن بَعُدَتْ الشّقّة بنا، وانحط بنا الزمن، فقد نُخْلِد إلى الأرض عجزا، وننبطح على بساط القعود يأسا، لولا وجود خطائين توابين مِنْ قبلِنا، قريبين منا بآدميتهم، سبقونا بالإيمان فخلّدهم الوحي ليكونوا لِمن بعدهم سلّما للمعالي.

لب الدروس التطبيقية التربوية وخلاصتها وزبدتها هو انتقال أَمَةِ الله الصحابية وعبد الله الصحابي من ضلال السعي في الدنيا للدنيا، ومن إرادة الدنيا للدنيا، ومن الاستهلاك في الدنيا مع بنات الدنيا وأبناء الدنيا، إلى السير المهتدي، إلى إرادة الآخرة، إلى إرادة وجه الله عز وجل، حبّاً له، وخشية منه، وتهمّما بلقائه، واستعداداً للعرض عليه بالتوبة والاستغفار والعمل الصالح.

تفاصيل الدروس التطبيقية من ماجَرَيات الحياة، وما ابتلى الله عز وجل به هذه المؤمنة أو تلك، كيف فعلن كذا، كيف قاتلن، كيف أسلمن، كيف هاجرن، كيف

(1) سورة الأنعام، 91.

صبرن، إنما هي ظرْفيات تفضي بنا مطالعتها إلى اللب والمقصود، فنستيقظ، ونعمل، ونسارع، ونتأسى. وإلا فهي نزهة فكرية على ضفاف نهر الموت.

شاركن الصحابياتُ رضي الله عنهن مشاركة متميزة في إنشاء خير أمة أخرجت للناس، واخترن الإسلام باستقلال، وتحملن الأذى، وقدمن أول شهيدة -بل أول نفس- هي سُمَيّة أم عمّار بن ياسر رضي الله عنهم. أسلمت أخْتُ عمرَ بن الخطاب قبل عمر بن الخطاب. كان إسلامها وثباتها على دينها، وصحيفتها التي تقرأ فيها القرآن، ومعلمها، وزوجها، أسبابا لإسلام الجبار -كان في الجاهلية- عمر بن الخطاب.

تحكي أم عبد الله بنت أبي خيثمة أنها كانت تستعد للهجرة إلى الحبشة مع زوجها، فاعترضها عمر وقال: إنه لَلاِنطلاق يا أم عبد الله! قالت بقوة المؤمنة وثقتها وشجاعتها وهي تعلم أي جبار تخاطب: «نعم والله! لنخرجن في أرض الله. آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله مخرجا». قال عمر: صَحِبكم الله! عجِبتْ الصحابية من لهجةٍ غيرِ مألوفة، وطمِعت كما تطمع الداعية في كسب رجل مثل عمر إلى الصف.

كانت فاطمة بنت الخطاب أخت عمر قد أسلمت وأخفت إسلامها هي وزوجها سعيد بن زيد. وكان خبَّاب بن الأَرَتّ يأتيهما ليعلمهما القرآن خفية. قال ابن هشام: فخرج عمر يوما متوشّحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا من أصحابه قد ذُكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيتٍ عند الصّفا، وهم قريبٌ من أربعين ما بين رجال ونساء.

جوٌّ خوفٍ وقهر وأذى وترصُّدٍ وهجرة. كانت المرأة حاضرة أقوى حضور يومئذ. لم تكن حبيسة بيت الجهل والاستقالة من الحياة. كانت المرأة تُمارس السياسة في أكمل مظاهرها، إذ كانت تناهض الوضع القائم. بل كانت مُؤسسة لمشروع قلْب العالم، كانت روحا من روح التعبئة وطاقة من طاقات الجهاد.

وقصة إسلام عمر مبسوطة عند الدارقطني وابن هشام، حين دخل عمر على أخته، فبطَش بخَتَنه سعيد بن زيد، وضرب أخته فشجها، فتحدثه قائلة: نعم قد

أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. ندم عمر لما رأى ما فعل بأخته والدماء تسيل من رأسها. قال ابن هشام: «فارعَوى». واتعظ بصمود امرأة، وتناول الصحيفة، وقرأ من سوره طَهَ فهداه الله للإسلام.

أسلم عبد الله بن عباس وهو غلام صغير مع أمه قبل إسلام العباس. أم مؤمنة أنقذت ابنها من الكُفر في أشد الظروف تعَسُّرا. قال ابن عباس: «كنت أنا وأمي من المستضعفين: أنا من الوِلدان. وأمي من النساء». رواه البخاري. طفل تبع أمه إلى الهدى، لم يقعد مع أبيه على دين قومه. درس تربوي لصانعات المستقبل.

أسلمت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقي زوجها أبو العاص بن الربيع مشركا، فهاجرت وتركته. درس تربوي للمؤمنة لا تُقْعدها العاطفة عن الحق. أم كلثوم لم يكن لها من قرابة النبي ما كان لزينب، كان أبوها عقبة بن أبي مُعَيط أشدّ قريش على المسلمين. أسلمت من دون أهلها جميعا، وهي عاتق (فتاة يافعة)، وهاجرت بعد صلح الحديبية مع المُمْتَحنات. الممتحنات مؤمنات هاجرن إلى الله ورسوله، خارجاتٍ من ملة الشرك، في أحلك الظروف بعد صلح الحديبية. منهن، كما قال ابن حجر، أميمة بنت بِشْر، وسُبيعة بنت الحارث، وبَرْوَع بنت عقبة، وعبدة بنت عبد العزيز. تركن الأزواج والأهل والديار. أية قوة هذه! وكانت شروط الحديبية تقضي أن من جاء المسلمين من قريش يرده المسلمون من حيث أتى. وأبطل الله عز وجل الشرط في حق النساء المؤمنات فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾.[1] لذلك سُمّين الممتحَنات. وكانت أقواهن فتاة عاتق.

وابتُليت أم سَلَمة -وهي التي أصبحت من بعدُ زوجا للنبي صلى الله عليه وسلم بعد موت زوجها الأول- بلاء أعظم. لما أَزْمع زوجها أبو سلمة الهجرة رحَّل لها بعيرا وأركبها ووضع ابنها الطفل سَلَمَة في حجرها. فجاءه بنو المغيرة فنزعوا خطام البعير من يده، وتجاذبوا البُنَيّ سلَمةَ حتى خعلوا يده وأمه تنظر. وفرقوا بينها وبين ابنها وزوجها. فأمسَت سَنَةً تبكي حتى رقَّ لها بعضهم. فهاجرت

(1) سورة الممتحنة، 10.

رضي الله عنها لتستقبِل بعد حين حياة السعادة الأبدية مع أمهات المؤمنين. درس في الصبر. للقابضات على الجمر.

وجاءت بشائر نصر الله على يد وفود الأنصار الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة. كانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين هما: أم عُمارة نُسَيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو. أم عُمارة وأسماء حضور رمزي للنساء في هذا الموقف الحاسم. لكنه حضور. بايعتا مع الرجال على: «السمع والطاعة في عُسرنا ويُسرنا، ومَنشطنا ومَكرهنا، وأثَرَةٍ علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول الحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم». بايعوهُ على أن يحاربوا معه الأحمر والأسود، وأن يحموه مما يحمون منه نساءهم. ووفّوْا رضي الله عنهم، وقاتلت أم عُمارة بالنبل والسيف. درس في الوفاء.

وأتى الله عز وجل بالرخاء بعد الشدة، وأصبح المسلمون الذين كانوا مستضعفين في الأرض يجلسون للتفاوُض مع أعدائهم صناديدِ قريش يوم الحديبية. وكانت أم سلمة يومئذ مات زوجها المهاجر رضي الله عنه وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخرجها معه كما كان يفعل بإحدى نسائه في غزواته، تُعيِّنها القُرعة. شاركت أم سلمة في الصمودِ للعدو، ومخالفةِ القوم في الدين، ومفارقة الأهل والديار، والصبر على البلاء في النفس والزوج والولد. ونقرأ مشاركتها يوم الحديبية بالرأي السديد لنتلقى درسا في غَناء المرأة المؤمنة وكفاءتها في المواقف السياسية الحرجة.

روى البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان قالا: «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية (...) فلما فرغ من قضية الكتاب (كتاب شروط الصلح ومنها أن يرجع فلا يتمم العمرة) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: **قوموا فانحروا ثم احلقوا** (وفي ذلك إنهاءٌ للعمرة وتحلل منها قبل أدائها). قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد، دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس. فقالت أم سلمة: يا نبيّ الله! أتحِبّ ذلك؟ (تحب أن يفعلوا ما أمرت؟) اخرج، ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر

بُدْنَك، وتدعوَ حالقك فيحلقَك. فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدْنه ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غَمّا». الحديث. غمّـًا على ما فرط منهم من التباطؤِ عن الطاعة، أم غيظا على الإجحاف في شروط الهدنة؟

كان الموقف شديدا على المسلمين، لم يقبلوا شروط الصلح المجحفة، وهم كان من ورائهم انتصارات بدر والأحزاب وخيبر وسائر المغازي. موقف توقف فيه عُمَر وعارض، وحزِن المسلمون واغتموا. وأنقذت الموقف امرأة بحسن رأيها وسداد مشورتها. رضي الله عنهم وعنها.

تَلَقَّين التربيةَ الصحابياتُ، وشاركن بقوة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم. فلما توفاه الله ظهرت ثمرات التربية فيما قرأناه قبل هذا من ترفع أمهات المؤمنين عن زهرة الحياة الدنيا، وإن كانت عائشة أخطأت في اجتهادها لما خرجت تصلح بين الناس فتأججت الحرب حول جملها، فإنها وأخواتها أسهمن إسهاما ملحوظا في حياة الأمة. هي كانت العالمة المعلمة المفتية، ومنهن كانت المستشارات والآمرات بالمعروف الناهيات عن المنكر، والمجاهدات الصامدات في وجه البغاة.

شعرت أمنا حفصة رضي الله عنها وقد طُعن أبوها عمر بن الخطاب بمسؤولية عظيمة لَمّا سمعت حيرة الناس وسؤالهم عن المستقبل. روى مسلم عن أخيها ابن عمر قال: «دخلتُ على حفصةَ فقالت: أعَلِمتَ أن أباك غيرُ مُستخلِفٍ؟ (عزم أن لا يوصي بالخلافة كما فعل أبو بكر). قال: قلت: ما كان لِيفعَلَ! قالت: إنه فاعل! فحَلَفَتْ أني أكلمه في ذلك. فسَكَتُّ حتى غدَوتُ ولم أكلمه. قال: فكنت كأنما أحمل بيميني جبلا». الحديث. وكلم عبد الله بنُ عُمَر أمير المؤمنين عمر نتيجةَ اهتمام امرأة وحلِفِ امرأة على رجل حملته بحلِفها مسؤولية كالجبال.

ولما كان يوم التحكيم بين الإمام علي ومعاوية دخل عبد الله بن عمر على أخته حفصة فقال: «قد كان من أمر الناس ما ترين، فلم يُجْعَل لي من الأمر شيء.

قالت: اِلْحَقْ! فإِنهم ينتظرونك، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فُرقة». رواه مسلم عن ابن عمر. وذهب ابن عمر فحضر أمرَ الناس نتيجةَ تهمّم امرأة بمصير الأمة، وسياسة الدولة، وخشيتِها من الفُرقة.

ونقرأ في سيرة سيدتنا أسماء الصديقية رضي الله عنها درسا بليغا في الرُّشد والصدق وكمال الزوج وبطولة الأم. هي كانت ذاتَ النِّطاقين، حزَمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأبيها زادهما استعدادا للهجرة. وهي كانت هاجرت وهي حامل. وهي كانت زوج الزبير الكريمة ترعاه وترعى فرسه. فلما كان عهد بني أمية، وقام ابنها عبد الله بن الزبير، وهجم عليه بالمنجنيق الحجاجُ بن يوسف دخل عليها عبد الله وهي ابنة مائة سنة لم يسقُط لها سن ولم يفقد لها بصر. وكان البطل عبد الله ابن خمس وسبعين سنة، فأوصته أن يصمد ويقاتل لتقَرّ عينها بنصره، أو يموت كريما فتحْتَسِبه، ونهته عن قبول الصلح مع العدو.

ويروي مسلم كيف أرسل إليها الحجاج بعد أن قتل ابنها وصلبه، فأبتْ، فأرسل إليها بالتهديد مع من يَقول لها: «لَتأتِنَّني أو لأبعثَنَّ إليك من يسحبُك بقرونك! لم تأته، فذهب إليها وسألها: كيف رأيْتِني صنعتُ بعدو الله! قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك (...). أمَا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا أن في ثقيف (قبيلة الحجاج) كذاب ومُبير. فأمَّا الكذاب فرأيناه (هو المختار ابن أبي عبيْد المتنبئ)، وأما المُبير (الفتاك) فلا إِخالُك إلا إياه! فقام عنها الحجاج ولم يراجعها». وكيف تراجع كلمة حق نطقت بها خريجة المدرسة المحمدية! والحمد لله رب العالمين.

خـاتمة

ختم الله لنا ولكن بالحسنى وزيادة. ولا تنسيننا أخواتي من دعائكن، تدنو الآجال، وتنقطع الأعمال، ويرجو رهين حبسه، دفين رمسه، أن ترد عليه سورة أهدتها إليه قلوب طاهرة يرحمهُ بها الله، ويشكر الصنيعَ لكن الله. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

عشنا في فصول هذا الكتاب ذكرى الصحابيات الجليلات نتأمل سيرتهن فنكتشف عالَم التقوى الفاعلة. مع حب الله ورسوله، مع الذكر والخشية والبكاء على الذنب همم عالية وطموح للقرب من الله عز وجل. مع الطموح عمل صالح وجهاد دائب. نكتشف نموذجا للمرأة المسلمة مناقضا تمام المناقضة للمرأة «الحرمة»، ذلك الكائن الساكن الساكت يمر من الحياة كأن لَم يَمُرَّ منها.

أمامنا نموذج الصحابيات رضي الله عنهن نستلهم منه الإيمان بالله والوَلاء في الله والجهاد المؤثِّر في العالم في سبيل الله. ما تنكَّبْنَ الطريق فتشعبت بهن السبل. سبيل الله في حياتهن اقتحام وتشابك مع العالم، ينهين عن المنكر ويأمرن بالمعروف. ما كان سبيل الله عندهن طُرَيقَةً هينة خارج التاريخ وعلى هامش المجتمع وفي كِنِّ العُش الخامل.

إرادة الله كانت الباعثَ، وخشيةُ الله كانت الرقيبَ، وحب الله ورسوله كان سعادةَ الحياة. إرادة جامعة بانية فاعلة. ونرِثُ والمؤمناتِ في زمننا وضعا أشبه ما يكون بوضع الجاهلية الأولى لولا أن في المسلمين والمسلمات لا تزال لا إله إلا الله العاصمةُ كلمةَ القلوب إن عطلتها عن العمل في الحكم والمعاملات معطلات الفتنة. نرث والمؤمناتِ تمزقا في جسم الأمة يوازي التمزق القلبي الأول. نرث غُثاءً في أقفاص وطَّننا فيها الاستعمار فتوطنَّاها، لا ندرك أنها السجن والهوان.

وجد الإسلام العربَ لا شيء، وجعل منهم شيئا. وابتعث الله المؤمنين والمؤمنات فحملوا إلى العالم رسالة الله. واليومَ ابتعد العرب والمسلمون عن دينهم فرجعوا إلى لا شيئيتهم. فهم في العالم نُتَفٌ، هم في العالم طُعمة، هم في العالم صفر، هم في العالم صحراء من حيثُ الصنائع والعلوم والقوة. هم في العالم كلّ ذلك -نساؤهم أدنى من ذلك- لأنهم إن عمل أفراد مصلون حاجون مسبحون لآخرتهم فلا جماعة للمسلمين تعمل، ولا جامعة لهم تتكون، لينالوا ثواب الدنيا، والعزة في الدنيا، والقوة في الدنيا، ويتأهلوا بذلك لحمل رسالة الله، فينال المجاهدات والمجاهدون الدرجات عند الله.

ثواب الآخرة الغاية، والسعادة الأبدية في الجنة. وذلك ترجوه المؤمنة إن تطهرت رغم دنَس الناس، وخشيت ربها رغم فساد الناس. وَتتدنّى درجتها عند الله أن فاتها الجهاد. هدف الجهاد إعزاز كلمة الله. إعزاز كلمة الله بالتدافع والتشابك والاقتحام.

وفي سنة الله أن التدافُع والتشابك مع الناس يَفْصِلُ فيه ما أعد الناس من قوة وما فشِلوا في إعداده. ثواب الدنيا جائزة من يد القدَر، يُتحف بها القدر العاملين لا الخاملين.

فإذا كنا في فصول هذا الكتاب نوازن بين التعبئتين والجهادين. تعبئة الفرد وجهاد النفس، وتعبئة الأمة وجهاد الأمة، فلأن الله عز وجل أعد للمحسنات والمحسنين أجرا عظيما، وأعد سبحانه للمحسنات وللمحسنين فوق ذلك درجات لا تنال إلا بالجهاد، جهاد تعِزُّ به الأمة فتقوَى في الأرض على تبليغ كلمة الله.

كان العدو في عهد النبوة والخلافة الراشدة الأولى يحمل على المسلمين أسلحة متكافئةً إلى حد بعيد مع ما في أيدي المسلمين من سلاح. كان الجهاد عَضلا تدفعه للاقتحام إرادة الله واليوم الآخر، إن كان العدو تدفعه حمية الجاهلية وعصبية القبيلة. وأنزل الله عز وجل نصره على عباده المؤمنين لإخلاص الإيمان،

ومع النصر أمر مستديم بإعداد القوة. لا ينزل نصر الله على أمة ممزقة الأوصال، عزلاء، جرداء.

والعدو يومَنا وغدَنا إلى أن يأذن الله بنصر وأسباب نصر، يغزونا على كل الواجهات، بأسلحة غير ما عهده البشر في تاريخ البشر. أسلحة تدمر الجسوم، وتخرب الديار، وتمتطي إلينا الجو، وترقُبُنا من الفضاء، وتتعاقب علينا جواسيسها الكوكبية آناء الليل وأطراف النهار. ما معنا من ذلكُنَّ شيء إلا «خردات» من فولاذ يقتنيها العرب -الحكام على العرب- بأموال المسلمين يرصدها بعضُهم لبعض، ليحافظ بعضهم على استمرار سيادة العشيرة، وليغزُوَ بعضهم بعضاً لتسمُوَ عشيرة قومية على قبيلة. ما معنا من أسلحة المادة والصناعة شيء. فالتعبئة البعيدة المدى تبدأ منكن أمهاتِ الأجيال، صانعاتِ الغد. وَلَدٌ عملٌ صالحٌ، وتربية، ومدرسة تحضنها الأمهات.

ذلك الجسمُ في المتناول كسبُه بإذن الله كما كسبته الأمم قبلنا وتكسب أمام أعيننا الذاهلة. ثم لا نكون نحن خيرَ أمة إن استأنسنا العلوم والصنائع وطورنا أسلحة الفضاء وأضعنا الروح، وفقدنا الروح، وتقمصَتْنا من الجاهلية المعاصرة روح.

تزحف إلينا روح الجاهلية المعاصرة، ويغزونا فكرها، ويخرب ديارَ كوننا فلسفاتها، وتعدو علينا ثقافتها الداعرة بالخيل والرَّجْل. فكما بسطنا من قبل نماذج المَنعة الإيمانية، ونماذج المستعليات بإيمان، المبشِّرات برسالة، المبلِّغاتِ لكلمة، نريد أن نُلِمّ بنماذج الكفر، أستاذات الانحطاط، زعيمات «تحرير المرأة».

أقرأ في دائرة المعارف الفرنسية «أونفِرساليس» أسماءَ زعيمات غربيات تألقن في سماء الشهرة النضالية النسوية، ثم انخسفن وانكسفن وانتحرن لتبقى ذكراهن نِبراسا في أفق المارقات المنحلات من بني جلدتنا كما تشع في أفق المؤمنات شموس الكاملات مريم وآسية وخديجة وفاطمة وعائشة وأسماء وحفصة وزينب وأم عمارة وأم سليم.

زعيمات النضال النسوي يئِسْن من العثور على أنوثتهن في طريق غير طريق الأمومة التي يفرضها عليهن المجتمع كما يزعمن فانتحرن. زعيمات أديبات كاتبات شواعر تمردن على الفطرة بعد أن تمردن على الله عز وجل الفاطِرِ، فجُنّ بعضهن وانتحرن، وانتحر بعضهن بذهن حاضر، وكفى بذلك جنونا.

فِرْجنْيا وُلْفْ الكاتبة المجنونة الزعيمة أغرقت نفسها في النهر قُرْب بيتها سنة 1941 بتاريخ النصارى. سِلْفْيَا بْلاثْ الشاعرة انتحرت سنة 1963. صوفي بودُلْسْكي وأَنَّا كَفَانْ انتحرتا. وانتحرت دانْيِلْ كولُّوبِرْ. أُونِيكا زُورْن الرسامة والكاتبة البارعة أدخلوها مستشفى المجانين مرات، وانتحرت سنة 1970.

قالت الكاتبة الباحثة في دائرة المعارف بْرِجِتّْ لُوكارْ: «كل هؤلاء النسوة جربن في أجسادهن المرض والألَمَ الذي جعله المجتمع من خصوصيات المرأة منذ قال الكتاب المقدس: «ستضعين في الألَم». قالت: «عن هذا التمزق الجسمي النفسي ما انفكت كتابات هؤلاء النسوة تتحدث».

قلت: الحمل عندهن مرض وعاهة ومصيبة أثقل بها المجتمع كاهل المرأة. فهي ترفضُ هذه العبودية للمجتمع، وتتمرد عليها. وهي تدين بدين الزعيمة الفرنسية الكاتبة الفيلسوفة صاحبة سارتر الوجودي معلمة الخنا والزنى. قالت سِمون دُبوفوار: «إن المرأة لا تولد امرأة، وإنما المجتمع يصيرها امرأة». فلسفة رافضة تعارض «الطبيعة» «بالثقافة».

هروب من الأمومة، وتنكر للفطرة، وجبن أمام ألم المخاض وأعباء الحمل. غدا القريب، وقد بدأ بالفعل هذا الغد، يُهاجر الغثاء الأنثى ليحمل أطفال من تشتهي الوَلَدَ من بنات الغرب، كما يهاجر الغثاء الذكر ليجمع القُمامة ويُشَغِّلَ الآلات الثقيلة ويحفِرَ الفحم في أعماق الأرض.

إماءَ الله نكون وعبادَهُ، أو هي الحضارة العملاقة تستعبدنا، بل تزيدنا إهانة على إهانة. عرض القرآن الكريم آياتٍ، وعرضت السنة عَملاً ونموذجا، الإسلام في مقابلة واشتباك وعراك مع معتقدات المشركين. الإسلام روح من عند الله،

إيمان بالله. لا يتساكن إيمان وكفر. فمن تحرير أنفسنا وعقولنا نبدأ. يتوقف نجاح المؤمنات في جهاد التحرير على قوة إيمانهن أولا، ثم على قوة تكتلهن ومساندتهن للجهاد الشامل تقتحم عقباتِه المؤمناتُ ويقتحمها المؤمنون ليفرضوا وجودهم في كل ميدان. تنظم المؤمنات أنفسهن، قيادتُهُنَّ منهن، مبادرتهن منهن. والشورى جامعة.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبهن السياسي، والتغيير على المدى الأبعد وتعبئة الأمة وصناعة المستقبل واجبهن المصيري. تكتلهن واجب حول زعامات منهن تناهض زعامة المنتحرات. إزاحة الباطل من مواقعه قَدَما قدماً، ثم بناء الحق لبِنَةً لبِنَةً. صبرٌ وجلَدٌ وتحملٌ وطولُ نَفس. ورِفق مع ذلك لا عنْف. آن أن توقظ المؤمنات بنات جنسهن ليقُدْنَ جهادا مختلف الأشكال، متنوعَ الوجوه، شاملا لكل مرافق الحياة. جهاد تعليم، وتتويب، وتوعية، ومحوٍ للأمية العقلية والسياسية.

جهاد لمقاومة غطرسة الرجل الذي يتذرع بالإسلام وشريعته ليظلم المرأة. جهاد لكيلا يمارس الرجل قِوامته ممارسة لئيمَةً يُقايِضُ بالنفقة عبودية المرأة له وعبادتها إياه. جهاد كسب القوت ما دام المجتمع فقيرا لا يستطيع كفالة الأمهات، وما دام المجتمع لا يعطي التربية المقام الأول ليأْجُرَ الأم المربية «منتجة» الإنسان أفضلَ ما يأْجُر العاملين.

جهاد سياسي واعٍ بأوضاع الزمن. تفطن المستضعفون إلى أن أهمّ مَا تفَوَّق به المستكبرون في الأرض استقرارُ الحكم على قاعدة الديمقراطية. فصيحة العصر ديمقراطية. وجواب الإسلام ترحيب ديمقراطية تخْنُق الاستبداد، ثم لن تأتي انتخابات حرة في بلد المسلمين إلا بمسلمين. وللإسلام منطقه المتسلسل إلى شورى وعدل وإحسان ومعروف يُطيح بالمنكر.

يُزَوِّر أعداء الإسلام الانتخابات كما فعلوا هنا وهناك، ويوقفونها كما فعلوا في الجزائر إلى أن يشتد ساعد الحركة الإسلامية ويلتف الشعب حول قيادته المؤمنة،

ويومئذ يكون عصيانٌ من عصى الله نعشا يقبر فيه الباطل وأهل الباطل لتنبُت نابتة الإسلام تحت شمس الإسلام. ومثال إخواننا الشيعة في إيران طريق لاحبة.

تساهم المؤمنات في تنحية أنقاض ماضي الفتنة ونواقض حاضرها، لنبني على الأصول مجتمع العدل، وعمران الأخوة، وكيان القوة والكفاية. ولنتوحد بعد ذلك على فقه بالأهداف البعيدة والإمكانات الحالية.

نتوحد لنقوى على حمل رسالة الله للعالمين. يَحْمِل الحِمارُ أسفارا لا يفقه ما الكتاب. ويُحمِّلنا الله عز وجل رسالة نسيناها فنسيناه فأنسانا أنفسنا.

نعوذ بجلاله أن نجهل أو يجهل علينا. ونلوذ بحماه أن تَتَخَطَّفنا طيرُ الهَوَى أو تهوِيَ بنا ريح الجاهلية. آمنت بالله لا إله إلا الله محمد رسول الله. سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس

الفصل السادس

المؤمنات وطلب الكمال القلبي والعلمي

الفصل السابع

المؤمنة في بيتها وحجابها

الفصل الثامن

المؤمنة زوجا وأما

الفصل التاسع

الأمهات المؤمنات صانعات المستقبل

الفصل العاشر

حظ المؤمنات من الجهاد تعبئة أمة